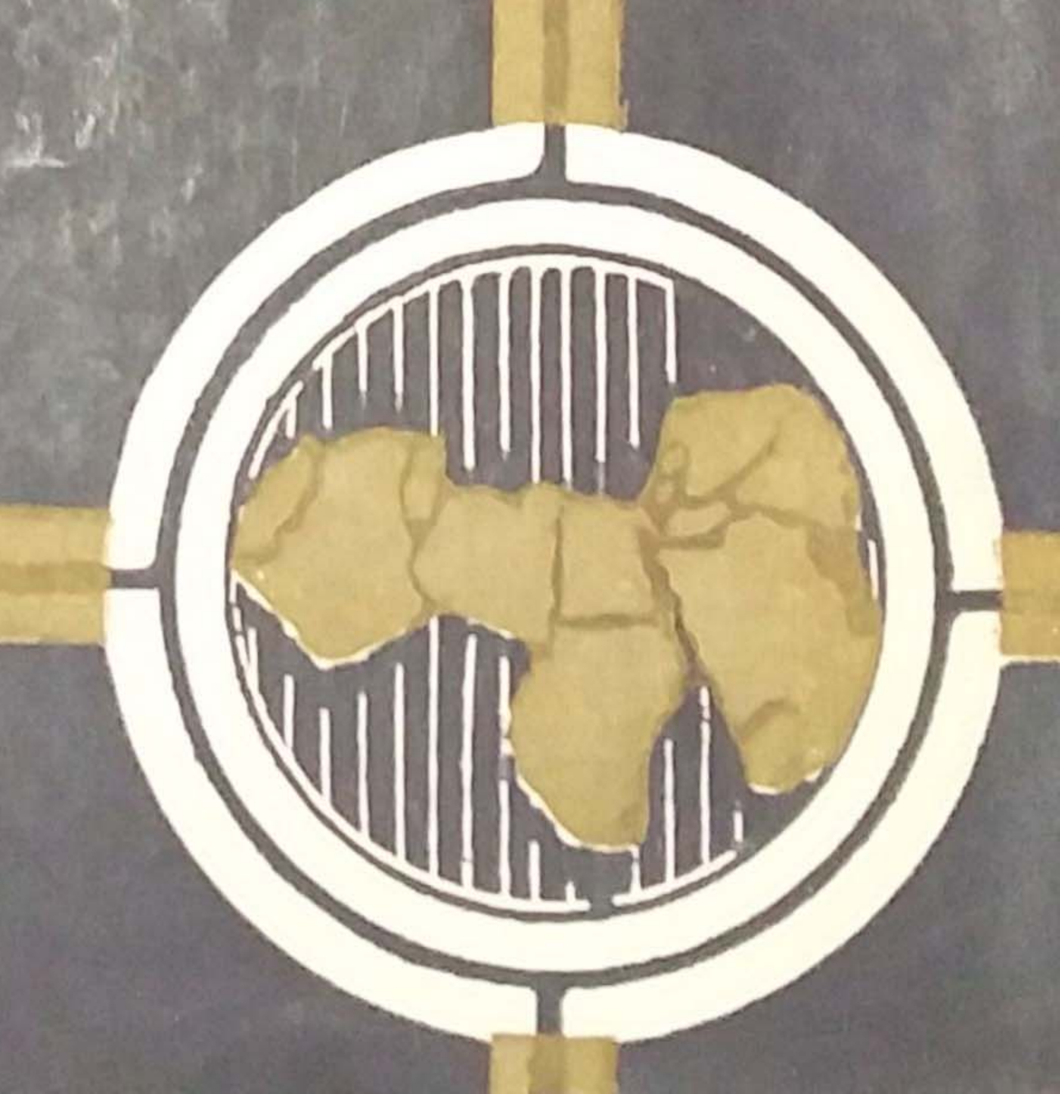


دكتور جمال حمدان



دار المعرفة

بترول العرب



بترول العرب

دراسة في الجغرافيا البشرية

تأليف

الدكتور جمال حمدان

دار المعرفة

١٥ شارع صبري أبو علم - القاهرة

الطبعة الأولى - ١٩٦٤

مقدمة

نعم دراسة فى الجغرافيا البشرية !

وعهدنا نحن الجغرافيين أننا إذا قلنا البترول فقد قلنا الجغرافيا الاقتصادية. ولقد نردفها بقليل من اجتماع أو سياسة ، ولكنه يظل فى منطقة الظل أو مجرد « جملة اعتراضية » . ولكن النتائج البشرية والمجتمعية والسياسية للبترول لا تقل أهمية وخطرا عن البترول نفسه كظاهرة اقتصادية . من هنا كنا بحاجة إلى نظرة متكافئة متكاملة للبترول : اقتصادياته وما بعد اقتصادياته كما قد نقول . ونأمل أن يكون فى هذا البحث الذى نقدم الآن استجابة لهذه الحاجة .

ومشكلة كل كاتب علمى يتعرض للبترول ليست فيما يكتب ، وإنما فيما لا يكتب . فلعل موضوعا - ربما باستثناء إفريقيا — لم ينل طوفانا من الكتابة والنشر فى السنوات الأخيرة مثلما نال البترول . ولكن أسوأ ما فى الأمر أن الكتابة السطحية والشعبية والمثيرة - تماما كما فى موضوع إفريقيا — تطغى فى هذا المجال طغيانا كاسحا على الكتابة الدقيقة الموضوعية المحققة ، وتكاد تطردها كما تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة من السوق.. وهنا نجد أن المراجع العلمية الجديرة فى بترول العرب أقل مما نتصور .

ومن الغريب حقا أن نتخلف نحن الجغرافيين العرب كل هذا الوقت عن معالجة كاملة حية متوازنة لهذا الموضوع الحيوى الذى يعيد تشكيل الوجود البشرى فى المنطقة برمتها بل ويصنع لها جغرافية جديدة تماما . والواقع أن الجغرافيين العرب قد كتبوا بعض الشىء عن بترول العرب ،

ولكن هذا الشيء أبعد ما يكون عن الكفاية . ولا زلنا بحاجة إلى مجهود واهتمام أكبر ، فليس أجدر منهم بهذا الموضوع الحيوى وليس أجدر به منهم باعتباره أصحابه إن لم يكن أبناءه . ومن الحق أيضا أن أغلب القليل الذى كتب لا زالت تنقصه النظرة الجغرافية المميزة . ففى الجانب الاقتصادى المطروق لا زال أقرب إلى الاقتصاد منه إلى الجغرافيا وإلى الجدول المقروء منه إلى الخريطة اللفظية ، ولا زال يضغط — مثلا — على « الترتيب » الكمى قبل النمط الإقليمى ، وعلى السرد قبل التحليل . أما الجانب السياسى فقل أن تتلمس فيه البعد الجغرافى بوضوح . بينما يظل الجانب الاجتماعى أرضا مجهولة تماما أو تقريبا .

والبحث الحالى ينقسم إلى ثلاثة أبواب : اقتصادية واجتماعية وسياسية على الترتيب . فالباب الأول ، دراسة فى الجغرافيا الاقتصادية ، يفيد كثيرا من الاقتصاديين الذين قاموا بدور كبير فى المكتبة البترولية يجعلهم أصحاب فضل . ولعل صاحب الفضل الأكبر هنا هو لونجريج . فما نعرف كتابا عربيا عن بترول العرب ، علميا أو نصف علمى ، إلا كان تضمينا أمينا — أو غير ذلك — لمؤلف لونجريج . ولكن للعبوسى فضلا فى فصل أصيل فى التحليل الاقتصادى لدور البترول فى الدخول القومية ، كما أنه يمتاز بعرض أصولى Systematic أى موضوعى منطقى — هذا عدا وجهة النظر العربية طبعا .

وإذا كان لونجريج هو المرجع الأول ، فإنه يعيبه أنه أقرب إلى التاريخ — أكاد أقول التأريخ — الاقتصادى ، وأحيانا إلى تقارير مديرى الشركات مما يتبع المنهج التاريخى فيعالج بترول كل وحدة سياسية بحسب الفترات والمراحل وهو ما يمزق بوضوح وحدة الموضوع ويشتت القارىء كثيرا .

ولكنه يظل مع ذلك وثيقة تاريخية أساسية . وللقارىء أن يعلم أنه كان مرجعا أساسيا فى الباب الأول من دراستنا هذه ، ولكنه كان بمثابة المادة الخام التى أخضعت لصنعة وإضافة جغرافية جـــذرية حتى لنزعم أنهما لا يتشابهان إلا كما يتشابه كل القول فى حروف الأبجدية . . وقد اتبعنا فى معالجة حقول البترول فى العالم العربى منهجا جغرافيا إقليميا بحتا وليس منهج الوحدات السياسية . ولكننا فى نفس الوقت احتفظنا بإطارات الوحدات السياسية داخل الإطار الجغرافى الإقليمى العـــام . فجعلنا أقاليم البترول الرئيسية « أحواضا بترولية Bassins huiliers » ، وجعلنا لكل حوض قلبا ونواة من ناحية وهوامش وأطراف من ناحية أخرى . وكل حوض يتألف من كوكبة من الحقول ، بمثل ما يتألف كل حقل من مجموعة من الآبار.

أما الباب الثانى فدراسة فى الجغرافيا الاجتماعية عرضنا فيه للنتائج البشرية للبترول على العالم العربى سواء بما أحدث من احتكاك حضارى ومشاكل اجتماعية ، أو بما أدى إليه من تغير فى المركب الوظيفى وفى الغلاف أو الغطاء البشرى واللاندسكيب الحضارى . فتتبعنا أولا أحجام الدخول البترولية الجديدة وأنماط توزيعها الطبقى ثم حللنا التطورات التى أصابت النشاط الاقتصادى والحرف والوظائف فى المجتمع ، وبعـــدها عالجنا نمو السكان الجديد وما طرأ من إعادة توزيع للسكان ومن إعادة تشكيل لتركيبهم الديموغرافى . وأخيرا عرضنا للانفجار والطفح المدنى الذى برز على صفحة الإقليم ـ أسبابه والأشكال ، تحديدا وتصنيفا . وفى هذا البـاب تلتقى وجهات نظر ومناهج الأنثربولوجى وعالم الاجتماع بفلسفة وطرائق الجغرافى البشرى لتقدم خريطة لفظية للمجتمع العربى كما تشكل بالبترول .

الباب الأخير دراسة فى الجغرافيا السياسية . والبترول مادة سياسية

بقدر ما هو مادة اقتصادية . وفى هذا الجانب خاصة تتكاثر وتفره الكتابات الصحفية والشعبية كما تندس متسللة وجهات النظر المتحيزة أو الدعائية والمصالح الخاصة سواء الاحتكارية أو الاستعمارية أو الطبقية . ولهذا كان لا بد من نظرة موضوعية يقظة فاحصة . كذلك تصطدم الحقيقة العلمية هنا أحيانا مع الحساسيات الوطنية والمشاعر المحلية ، ولذا يلزم كثير من الحذر واللباقة ، بشرط ألا تساوم الحقيقة العلمية . كذلك نلاحظ أنه على كثرة ما كتب عن البترول سياسيا لم تظهر دراسة يتكامل فيها دور البترول فى نسيج المركب السياسى العام تكاملا منهجيا عضويا . ولهذا كان لا بد أن نتبع خط البترول أو خيطه منذ البداية فى النسيج السياسى للعالم العربى سواء فى مرحلة الاستعمار أو التحرير . ولهذا عالجنا فى هذا الباب أولا دور البترول فى جغرافية الاستعمار فى العالم العربى ، كيف دعمها أو زعزعها ، كيف شكلها ثم طورها . ثم عرضنا لدور البترول فى جغرافية التحرير العربى وحاولنا أن نقدر مدى ما أضاف البترول إلى العرب من وزن سياسى فى المجال الدولى وما أضاف من قوة سياسية لهم وما إذا كان البترول قد أدى وظيفته السياسية كاملة أو غير كاملة ولماذا .

بعد هذا عقدنا فصلا عن بترول العرب فى الاستراتيجية العالمية وكان لا بد أن نعرض هنا بلا حرج أو هروب لوجهات نظر ثلاث : هى المعسكر الغربى ثم الشرقى وأخيرا وجهة النظر العربية كالفيصل الفاصل فى الموضوع . وأخيرا ناقشنا دور البترول السياسى فيما بين العرب أنفسهم سواء من حيث ما قد يرتبط به من إعادة توزيع للقوة السياسية داخل وحدات المنطقة أو من حيث مغزى البترول بالنسبة للوحدة العربية : هل هو عون لحركتها أم عوان عليها ؟ وفى كل هذه الفصول التزم الكاتب المنهج الجغرافى البحت ، صيغة وصبغة ، حتى نعطى للحقائق والأحداث السياسية

المتميعة بطبعها والتى لا شكل لها محدد أحيانا amorphous نعطى لها قالبا إقليميا وإطارات مكانية واضحة فى الذهن . كذلك تحررنا من عبء « أنساب » الشركات وفروع شجراتها المعقدة التى قد تكون علما كاملا عند الاقتصاديين له مؤرخوه ونسابته ولكنها فيما نرى ليست من الجغرافيا فى شىء إلا فى حدود تبعياتها السياسية وما تحمل من دلالة .

وبعد ، فنرجو أن تحقق هذه الدراسة هدفها فى تقديم عمل جغرافى متكامل فى موضوع من أخطر ما عرف الكيان العربى ، وأن يحفز إلى نشر أوسع للثقافة الجغرافية وتعميق أكبر للفكر الجغرافى فى هذا العالم العربى ، هذا الذى يمر بأكبر فورة بل ثورة فى تاريخه الحديث . ونحن نقدم هذا العمل للعالم المتخصص وللقارىء المثقف العام على حد سواء بعد أن جمعنا فيه — فى ميزان دقيق فيما نرجو — بين ما نسميه « جغرافية الحقائق » و « جغرافية الأفكار » . والأولى وحدها جسم بلا روح ولهذا فإنها طالما نفرت القارىء العام من المادة ، بينما الثانية وحدها روح هائمة كالأشباح لا تقر إلا فى قدر معقول من المادة العلمية . إن أزمة الجغرافيا عند المثقفين والقارىء العادى هى أنها تطفح بالحقائق أكثر مما تنضح بالأفكار . ولهذا فإن جغرافية الحقائق سردية تدعو إلى الذاكرة وتكاد تتحدى الذكاء — هذا إن لم تتحداهما معا ! ومن هنا لا بد من جغرافية الأفكار حيث تؤلف الأفكار الكلية seminal ideas الخصبة إطارا ذهنيا conceptual framework تأتلف فيه تفاصيل الحقائق وجزئياتها منطقيا . وسيرى القارىء أننا قد اتبعنا فى أبواب البحث الثلاثة المنهج الأصولى المقارن وليس منهج الوحدات السياسية . فقد وجدنا أن الصورة الموضوعية التحليلية لا تكتمل فى الذهن إذا ما عالجنا كل شىء عن

البترول فى كل وحدة سياسية على حدة ، وإنما بمعالجة الموضوع الواحد معالجة مقارنة فى كل وحدات العالم العربى معاً .

ويود المؤلف فى ختام هذه المقدمة أن يغتنم الفرصة ليقدم عميق شكره وتقديره إلى الصديق الفنان الأستاذ ادوارد إبراهيم سعد المدرس الأول بوزارة التربية والتعليم لقاء تفضله برسم خرائط هذا الكتاب حتى جاءت بهذه الدقة وهذه الإجادة .

الباب الأول

بترول العرب

دراسة فى الجغرافيا الاقتصادية



الفصل الأول
الجيولوجيا الاقتصادية
وايكولوجية الإنتاج

قبل الإنتاج ، لا بد لنا من معرفة موجزة مبسطة عن جيولوجية البترول فى منطقتنا ، كيف نشأ ولماذا هنا ... الخ ، ثم لا بد من إلمامة وافية بالظروف الجغرافية التى يتم الإنتاج فى ظلها . والموضوع الأول يقع فى نطاق ما يعرف بالجيولوجيا الاقتصادية economic geology ، والثانى هو إيكولوجية الإنتاج . وفى هذا الفصل نعالج كلا منهما على حدة .

الجيولوجيا الاقتصادية

النطاق الممتد من القوقاز إلى الخليج العربى هو بالتأكيد «النواة البترولية» للعالم القديم . ولقد يمتد منها ألسنة أخرى كما عند أطرافها الشمالية فى الاتحاد السوفييتى أو ينفصل عنها جزر تتفاوت بعدا أو أهمية فى الغرب كما فى رومانيا شمالا والمغرب العربى جنوبا . وقد تنتثر حولها أو بين تضاعيفها بعض حقول بترولية مبعثرة . ولكن تظل تلك النواة هى المحور الأساسى للبترول فى نصف الكرة الشرقى وذلك بالإنتاج وبالرصيد على السواء . هذه النواة هى موطن الزيت ومهد البترول لا فى العالم القديم بل فى العالم كله . ولعل السؤال الأول - منطقيا - هو : لماذا هنا ؟ وبعده وكم هنا وكيف هنا ؟ أما الإجابة ففى الجيولوجيا الاقتصادية .

لماذا هنا ؟

إن البترول « صدفة چيولوجية » تقع حيث تتوفر شروط تكوينه (١).
ومن حسن حظ العالم العربى أن توافرت فيه أركان هذه الصدفة السعيدة ، وهى الأركان الثلاثة التى تؤلف مثلثا متساوى الأضلاع نظراً لتساويها فى الأهمية : ونعنى بها البحار ذات الهوامش الضحلة الغنية بالحياة العضوية ، السواحل التى تشكل مناطق محمية ، تراكم الإرسابات الناعمة الذرات الآتية من تعرية اليابس بإنتظام وعمق .

فأولا يرث العالم العربى فى قطاع كبير منه بحراً جيولوجيا داخليـــا Geosyncline هو التثيس الذى لعب دور المشتمل الچيولوجى فى تاريخ البترول هنا . فقد كان هذا بحرا دافئا Warm - water sea ولهذا كان غنيا بدرجة ملحوظة بالحياة الحيوانية والبحرية لاسيما البلانكتون والألجا وغيرها من الكائنات العضوية الحيوانية الدنيئة .

ومن حسن الحظ ثانيا أن هذا البحر لم يكن يغطى القطاع الأكبر من منطقة المشرق العربى الحالية فقط من بين أجزاء المنطقة، وإنما كان يمتد ويطغى جنوباً على الأطراف الشمالية من كتلة جندوانا الصلبة epicontinentalseas بحيث أصبحت أطراف إفريقيا الشمالية اليوم هى وحدها تقريبا من بين أجزاء القارة التى تمتاز « بالأحواض الرسوبية » Sedimentary beds مهد البترول . فى ليبيا مثلا تسود التكوينات الجيولوجية الأحدث من

---

(1) S. H. Longrigg, Oil in the Middle East, Lond., 1961, pp. 5 ff. ; W. B. Fisher, The Middle East, Lond, 1950, pp. 220—3.

الزمن الأول post- primary ، الرسوبية ، القليلة الإلتواء ، والتى لم تتأثر بالظاهرات البركانية إلا فى رقع محدودة فى الوسط . ولهذا كانت غنية بإحتمالات البترول (١) .

ولقد ظل التثيس بعد هذا بحرا لفترات جيولوجية طويلة جداً مما يعنى عملية ترسيب طويلة متصلة تعاقبت فيها طبقات الصخور المختلفة نوعاً وعمراً . وعلى هذا السمك والغنى ستتوقف وفرة البترول . ولم يكن معنى عملية الإرساب السميكة هذه فقط عملية من التحلل الجزئى للكائنات البحرية كيماويا وبفعل البكتريا اللاهوائية anaerobic والضغط والحرارة ألخ وتحولها بالتالى إلى البترول، وإنما كانت تعنى أيضا إثراء وتنوع التكاوين البترولية.

ومن الطريف أنه يبدو أن عملية الترسيب الخالقة للبترول هذه لازالت مستمرة فى خليج عمان حيث تتراكم حاليا رواسب من الطين الأسود ذى الرائحة النفاذة . ويبدو أن عملية تكوين البترول فى المنطقة حدثت أساسا فى الزمن الثانى ولو أنها امتدت أيضا إلى الزمن الثالث ويحتمل أنها حدثت كذلك قبل الثانى . على أن هـــذا ليس معناه أن البترول يوجد اليوم فى تكوينات هذه الأزمنة بالضرورة لأن البترول كثيرا ماهاجر من طبقاته الأم التى نشأ فيها إلى طبقات أخرى نتيجة الضغط وغازاته هو والجاذبية... ألخ . وعادة ماتكون هذه الطبقات المضيفة أخشن ذرات وأكثر مسامية كالحجر الرملى والجيرى لأنها بفضل شقوقها ومفاصلها ومسامها تلعب دوراً هاما وضروريا كوسط يتجمع فيه حبات البترول المنتشرة لكى تؤلف

---

(1) John. I. Clarke, " Oil in Libya . Some Implications'," Econ . Geog., Vol. 39.no 1., Jan.1963, p.43.

تجمعات باطنية هامة . ولحسن الحظ يتوفر بين طبقات المنطقة هذه الطبقات الرسوبية المسامية أو المنفذة من الحجر الرملي والجيرى . يضاف إلى هذا توفر طبقات صماء غير منفذة تقع مباشرة فوق الطبقات الحاملة للبترول وقرب أو عند السطح ، وهى بدورها ضرورية كغطاء صخرى Cap - rock يمنع البترول من التبدد والضياع أو الانتشار فى « برك » ضحلة غير إقتصادية .

وهناك بعد هذا كله حركة الإلتواء التى رفعت هذه الطبقات الرسوبية إلى السطح ، فقد أتت رفعتها فى أنسب قوة من وجهة نظر جيولوجية البترول. فهى - ابتداء - قد أحدثت من القلاقل والاضطرابات فى طبقاتها القدر الذى لابد منه لتجميع الموارد البترولية تجميعا إقتصاديا فى أحواض أو مصايد Traps لولاها لظل شتيتا منشورا - كالماء فى الاسفنجة - فى كل ثنايا الطبقات الحاملة له بصورة لا يمكن معها استثماره . على أن هذه القلاقل لم تأت مفرطة فى قوتها بالدرجة التى يمكن أن تمزق الأحواض الباطنية والمصايد البترولية إلى جيوب قزمية قد يتسرب منها بددا أو تظل غير إقتصادية للإستخراج . والفضل فى توفير هذه الدفعة المثلى يرجع إلى التوازن الذى أحدثه وجود كتلة رصيفية صلبة إلى جوار البحر القديم ، ونقصد بتلك الكتلة قارة جندوانا القديمة ، فقد خففت من حدة الإلتواء.

ولهذا فإننا نجد أن الظروف الجيولوجية المثالية لتوطن البترول ليست هى أعالى السلاسل الإلتوائية التى إن نشأ فى منطقتها البترول قبل الإلتواء فإن شدة الالتواء والقلقلة تطرده أو تبدده منها ، وإنما هى الهوامش الخارجية Submontane للنظم الالتوائية الكبرى حيث يتحقق شرط القلقلة ولكن فى اعتدال ، وحيث تكثر كنتيجة لهذا التوازن التكاوين القبابية

Domal Structures المحدبة التى تعد النموذج المثالى النظرى للمصايد البترولية وتكاد لذلك أن تكون علما على خزان بترولى أسفلها . ولعل أكبر مثل هو موارد البترول الهائلة فى أحضان إلتواء زاجروس فى القوس الشرقى من المشرق العربى بصورة عامة ، حيث تكاد التكاوين القبابية والمحدبات البترولية الخفيفة تكون مرئية للعين فى اللاندسكيب على الأفق ، بينما أعالى زاجروس نفسها تعد « جبانة لآبار البترول الميتة Graveyard of dead oilfields » (١). كذلك لا ننسى أن بعض موارد البترول فى المغرب العربى قريبة أيضا من أطراف إلتواء الأطلس .

وثمة حقيقة هامة نلاحظها على حقول البترول عند أطراف الإلتواء « فسواء فى حقول العراق أو المغرب نجد أننا كلما بعدنا عن الإلتواء كلما قلت ضخامة الرصيد والحقول وقلت جودة نوع الزيت فيها . ومع ذلك فلا يقتصر توطن البترول قرب أو على ضلوع الإلتواء بل يمتد بعيدا فى أطراف الكتلة الصلبة كما فى الجزيرة العربية وصحراء المغرب . وهذا مما يعطى الأمل فى كشف البترول فى بقية مناطق العالم العربى التى تمتاز بنفس التركيب الجيولوجى . ولا تتمثل حالة القلقلة المفرطة فى القوة فى العالم العربى إلا فى مصر فى منطقة خليج السويس حيث يجتمع الإلتواء بالإنكسار الأخدودى مما مزق خزانات البترول الباطنية إلى جيوب صغيرة نسبياً (٢) .

كم هنا ؟

السؤال الآن : كم هنا ؟ أى ماهو رصيد العرب من البترول ؟ والإجابة

---

(1) Longrigg · p. 5.
(2) Fisher. P.233.

دائما تقديرية إن لم تكن تخمينية ولكن المهم أنها متطورة باستمرار وذلك مع البحث والتنقيب ، الذى يمكن دائما أن يقدم حقائق ثورية تقلب موازين التقديرات القائمة . ويكفى أن نتذكر أن البترول قد ظل كامنا تحت أقدامنا آلاف السنين دون أن نعرف عنه بل دون أن نعرفه ! ويمكن القول بأن التنقيب الآن يشمل كل جهات العالم العربى ، غير المنتجة قبل المنتجة . ولكننا لن نعرض فى هذا البحث لمسح عمليات التنقيب والحفر باعتبارها علامات استفهام فى ضمير الجيولوجيا ، لم تدخل بعد مجال الجغرافى.

وإنما ينبغى لنا أن ندرس إمكانيات توطنه على أساس الجيولوجيا الإقليمية . فأولا لا يمكن أن يوجد البترول فى الصخور النارية أو على الرصيف البلورى القديم سواء فى الجزيرة العربية أو الصحراء الكبرى . ثانيا علينا أن نبحث عنه فى الأحواض الرسوبية أساسا . ثالثا لما كانت كل وحدة سياسية فى العالم العربى لا تخلو من الأحواض الرسوبية بدرجة أو بأخرى ، فإن احتمالات بعض البترول فى كل منها ليست مستحيلة حتى ولو لم تكشف للآن . ولكن — رابعاً — حتى فى الأحواض الرسوبية لا يمكن أن تكون وفرة الاحتياطى متساوية ، لا كماً ولا كيفاً ، أى لا فى الحجم ولا فى النوع . وأخيرا لا يمكن التنبؤ بهذا الاحتياطى لا كما ولا كيفا، لأن البترول لا يتشابه تماما فى أى موضعين .

وعلى هذه الأسس يمكن أن نحدد مناطق احتماله وذلك بصرف النظر عن المناطق المنتجة فعلا . فإذا بدأنا بالجزيرة العربية فإن ساحل المعاهدات إبتداء من قطر حتى رأس مسندم يعد جزءا من الحوض الرسوبى البترولى الأكبر الذى ورث منطقة البحر الجيولوجى العظيم geosyncline فى الخليج العربى . والساحل الجنوبى ابتداء من جنوب عمان وغربها خضع للبحرقترات ولا يخلو من أحواض رسوبية ، ولهذا يحتمل أن يوجد البترول فيه فى عمان

جنوب وغرب الجبال ، وقد ظهر البترول فعلا فى مرمول Marmul على بعد ٤٠ ميلا من الساحل فى شرق ظفار ولكنه سرعان ماخيب الآمال إذ قل محصولة جدا ولم يعد صالحا للاستثمار (١) . وفى محمية عدن وفى اليمن وعلى الساحل الغربى للجزيرة خط رسوبى ضيق له احتمالاته .

أما شمالا فى الشام فنجد أن الجزء الأكبر من سوريا الداخلية تقل فيه الرواسب التى تغطى الكتلة العربية القديمة بحيث تقل إمكانياته البترولية لاسيما فى الجنوب حيث تزداد الرواسب ضحولة،أما لبنان وغرب سوريا فبها رواسب قديمة وحديثة قد لاتخلو من بترول . إلا أن المنطقة منطقة انكسار بقدر ماهى منطقة إلتواء ولذلك فإن التكاوين الجيولوجية التى تحوى البترول لا يمكن أن تكون كبيرة . والأردن كسوريا الداخلية ، إلا أن شماله الشرقى به بعض الرواسب ويمكن إعتباره جزءا من إقليم غرب العراق جيولوجيا . وكذلك لايخلو جنوبه من بعض احتمالات . أما غرب الأردن — وادى الأردن والبحر الميت ووادى عربة — فأقرب فى جيولوجيته الاقتصادية إلى خليج السويس فى مصر حيث تقل الرواسب العميقة المتصلة وتكثر الانكسارات والقلقلات الشديدة وتشتد لذلك حيرة الباحث عن البترول وتقل إمكانيات التكاوين البترولية الغنية (٢) .

وفى منطقة الدلتا وشمال غرب الصحراء الليبية فى مصر توجد التكوينات الرسوبية ولا يستبعد العثور على الغاز فى الأولى والزيت فى الثانية ، لاسيما

---

(١) لونجريج . ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) لونجريج . ص ٥ — ٩

بعد أن تفجر البترول بغزارة فى التكوينات المماثلة فى ليبيا والتى تعد هذه استمراراً جيولوجيا لها . وقد بدأ بالفعل البحث الجدى فى هذا النطاق . وتنقسم احتمالات البترول فى مصر عامة إلى ثلاث درجات : مناطق الدرجة الأولى وتشمل سواحل خليج السويس والبحر الأحمر ، ومناطق الدرجة الثانية وتشمل مياه خليج السويس حتى خط عمق ١٠٠ متروسواحل البحر المتوسط ، ومناطق الدرجة الثالثة جنوب سواحل البحر المتوسط (١) .

ويمكننا الآن أن نعرض لتطور تقديرات الاحتياطى الموثوق من وجوده proved reserves والذى يمكن استثماره أو الرصيد المرصود كما قد نقول . إلا أنه لابد أن ندرك أن أسس التقديرات ليست متجانسة ، إذ تتفاوت ما بين الشركات المختلفة ، كما أن هناك هامشا معينا من عدم الصحة فى بعض التقديرات ينبع أحيانا من المناورات السياسية كما فى حالة الجـــزائر حيث تأرجحت التقديرات المعلنة عن عمد بين التهويل والتهوين . فأما التهويل فلتبرير النفقات الحربية من ناحية ، ونفقات البحث الجيولوجى عن البترول فى نظر الفرنسيين من ناحية أخرى . كذلك استغلت شركات بترول المشرق العربى التهويل فى تقدير احتياطى المغرب العربى لتثنى دوله عن المطالبة بمزيد من العائدات . وأما التهوين فقد قصدت به فرنسا فى حالة الجزائر ألا تصب مزيداً من الزيت على نار الثورة ! وفيما يلى وفى حدود هذه التحفظات والتحذيرات بعض تقديرات الاحتياطى .

---

(١) رشدى سعيد . « تطور صناعة البترول المصرى » . مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، مارس ١٩٦٢ ، ص ٦٨ — ٧٠ .

	١٩٤٨ (١)	١٩٥٣ (٢)		
	بمليون طن	مليون طن	٪ من رصيد العرب	٪ من العالم
مصر	؟	٢٨ر٦	٠ر٥	٠ر٢
العراق	٧٠٠	١٤٧٠ر٦	٢٢ر٢	٩ر٤
البحرين	١١٠	٤٠ر٩	٠ر٧	٠ر٣
السعودية	٧٠٠	٢٤٢٦ر٥	٣٧ر٠	١٥ر٦
قطر	١٥٠	١٦٣ر٢	٢ر٥	١ر٠٥
الكويت	١٣٠٠	٢٤٤٤ر٣	٣٧ر١	١٥ر٧
المحايدة	—	—	—	—
الجزائر	—	—	—	—
ليبيا	—	—	—	—
المجموع	—	٦٥٤٤ر١	—	٤٢ر٢٥

	١٩٥٨ (٣)		١٩٥٩ (٤)
	مليون طن	٪ من رصيد العالم	مليون طن
مصر	٣٩	٠ر١	؟
العراق	٣٥٧١	٩ر٥	٣٥٧٠
البحرين	٢٩	٠ر٠٧	٣٢
السعودية	٦٤٢٩	١٧ر٠	٧١٠٠
قطر	٢٥٠	٠ر٦	٣٥٠
الكويت	٨٥٧١	٢٢ر٧	٨٨٠٠
المحايدة	؟	؟	٩٣٠
الجزائر	؟	؟	+٧٥٠
ليبيا	—	—	+٧٥٠

(١) فيشر . ص ٢٤٤ .

(٢) محمد جواد العبوسى . البترول فى البلاد العربية . القاهرة . ١٩٥٦ ص ٢٦٩ .

(٣) مجلة بترول الشرق الأوسط . اكتوبر ١٩٥٨ . ص ٣٨ .

(٤) لونجريج . ص ٣٥٠ .

١٩٦٢ [١]

	بالآف البراميل	٪ من العالم
الكويت	٦٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٢ر٣
السعودية	٥٧ر٠٠٠ر٠٠٠	١٩ر٠
العراق	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٨ر٠
المحايدة	٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٣
أبو ظبي	٦ر٥٠٠ر٠٠٠	٢ر٢
ليبيا	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	٢ر٠
الجزائر	٥ر٢٥٠ر٠٠٠	١ر٧
قطر	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٠
مصر	٥٦٤ر٠٠٠	٠ر٢
البحرين	٢٤٠ر٠٠٠	٠ر١
سوريا	٢٠٠ر٠٠٠	٠ر١
المحتلة	١٥ر٠٠٠	
المغرب	١٢ر٠٠٠	
مجموع العالم العربي	١٨٦ر٦٨١ر٠٠٠	٥٨ر٩
مجموع العالم	٢٩٩ر٧٤٤ر٧٠٠	١٠٠

وللجدول معان كثيرة . فالأرقام لا تتطور بل تقفز وتطفر . ومركز العالم العربي يأتي في الصدارة من العالم حيث نملك الآن ما لا يقل عن ٥٦ ٪ من رصيده ويقدره البعض بنحو ٦٠ ٪ . ويلاحظ أن الرصيد تزداد نسبته من الاحتياطي العالمي كلما تقدم الوقت والبحث . وهو لهذا ليس له تاريخ بترولي بقدر ماله مستقبل بترولي . والواقع أن عظم الرصيد يجعل مجرد عملية التنقيب والكشف أسهل وأرخص منها في أي جزء آخر من العالم . فقد قدر أن الدولار الواحد الذي ينفق يكشف عن احتياطي يعادل ١٧ مرة ما يكشف عنه في منطقة كالكاريبي ، كما قدر أن تكاليف الكشف عن طن من البترول

---

(1) World Oil, August, 1963, p. 65:

انظر أيضا : الموارد الاقتصادية في الوطن العربي . محمد صبحي عبد الحكيم ، يوسف خليل ، حليم جريس ، إجلال السباعي : القاهرة ١٩٦٣ . ص ٢٧٩ .

العربى تعادل خمس تكاليف الكشف عنه فى الولايات المتحدة (١) .

ثانياً قفزت الأرقام ضفدعياً leapfrogging، بمعنى أن ترتيب الأولويات داخل العالم العربى قد تغير جذريا . وليس من الضرورى للمزيد من التنقيب أن يرفع الاحتياطى بل قد يخفضه ولو فى المدى القصير . ومع هذا فالاتجاه العام هو إلى الزيادة . ويمكن أن نزعم أن الصورة الآن قد استقرت فى خطوطها العريضة . فهناك من يملكون ومن لا يملكون The Haves & The Have nots هناك العمالقة والأقزام . «فالثلاثة الكبار » هم الكويت والسعودية والعراق ، يملكون فيما بينهم ٨٥ ٪ من بترول العرب ، ٥ر٤٩ ٪ من بترول العالم بينما يخص الكويت وحدها ٣ر٢٢ ٪ من رصيد العالم أو ٣٨ ٪ من رصيد العرب ، حتى وصفت بأنها ليست إلا قبة من الزيت تغطيها الرمال ، وهو ما يجعلها أيضاً أولى دول العالم رصيداً بلا منازع أو مقارب . ورصيد السعودية ثلث الرصيد العربى (٣٢ ٪) وخمس الرصيد العالمى (١٩ ٪) . وهى بذلك ثانية العالم رصيداً . أما العراق فرصيده أكثر قليلا من ثمن العرب (٦ر١٣ ٪) وأقل قليلا من $\frac{1}{12}$ من رصيد العالم (٨ ٪) : وهو بذلك أقل من كل من الولايات المتحدة وإيران قليلا ويكاد يعادل الاتحاد السوفيتى ويفوق فنزويلا كثيراً . ولهذا فترتيبه الخامس فى العالم وإن كان الثالث بين العرب . ويمكن أن نقول إن النسبة بين الثلاثة الكبار فى العالم العربى تكاد تقع المتتالية ٣ : ٢ : ١ على الترتيب كما تؤكد أرقام ١٩٥٩ ، ولو أنها تبتعد عن ذلك قليلا بالتدريج فى ١٩٦٢ . ولسنا نعرف بالضبط أين تأتى أبو ظبى فى هذا الترانب . فحتى عام مضى كانت توحى بأنها على غرار «باكو الثانية» فى الاتحاد السوفييتى ـ قد تكون «الكويت الثانية» فى العالم العربى . ولكن حتى الآن لا تزال المنطقة

(١) العبوسى ص ٥٣ .

المحايدة تتغلب عليها وإن يكن قليلا، بينما أن الاثنتين أبعد ما يكون عن مستوى الكويت الفذ بل حتى عن العراق أصغر الثلاثة الكبار. هذا وقد أظهر البحث أخيرا جدا وجود رصيد قيل هائل من البترول فى حضرموت في منطقة ثمود.

وفيما عدا هذا فقد كان المشرق العربى يملك ٢٠٧٨٢ مليون طن (٩٣٪ من بترول العرب)، مقابل ١٥٠٠ مليون طن (٧٪) للمغرب العربى، أى ثلاثة عشرة أمثاله، وذلك فى ١٩٥٩. أما فى ١٩٦٢ فكان رصيد المشرق نحو ١٦٥ر٥١٩ر٠٠٠ر٠٠٠ برميلا أو نحو ٢٣ر٦٤٠ مليون طن مقابل ١١ر٢٦٢ر٠٠٠ برميلا أو نحو ١٦٠٩ مليون طن للمغرب. أى أنه رغم التقديرات المتزايدة للمغرب فإن هناك مزيدا من الاختلال فى مصلحة المشرق. وبصورة تقريبية يملك هذا الأخير نحو ٥٤٪ من رصيد العالم بينما لا يتجاوز المغرب ٤ر٩٪ من نفس الرصيد. على أننا يحسن أن نذكر هنا مرة أخرى أن هذه أرقام مؤقتة بطبيعتها. ولكن فى حدود هذا التحفظ فالمغرب العربى هو الشقيق الأصغر للمشرق بتروليا كما هو سكانا وتاريخا. والمشرق العربى هو مركز الثقل البترولى فى العالم برمته وحين نقول المشرق العربى فإنما نعنى فى الواقع القوس الشرقى منه بالذات «المشرق الأقصى» وبوجه أخص ساحل الخليج العربى أو «ساحل البترول» وبالتالى «ساحل الذهب». لقد تحول «ساحل القرصان» الموحش الفقير إلى «ساحل الذهب».. هنا حقا — وليس فى اليمن بعد الآن! — بلاد العرب السعيدة» الجديدة..

كيف هنا؟

السؤال الأخير هو «كيف هنا»؟ أى مانوع البترول فى العالم العربى وعمقه وتصرفه؟ هناك بالطبع فروق محلية وإقليمية فى نوعية البترول وأعماقه وتصرفاته مابين الحقول العربية، ولكن الصورة العامة هى الجودة فى كل الحقول. فنوعا: نسبة الكبريت منخفضة عامة، والمشتقات متنوعة

متعددة . ولكن بترول المشرق العربي في مجموعه من النوع الأثقل نسبيا أي أن نسبة زيوت الوقود fuel oils فيه عالية ، ولكن قد يتطرف ثقل كثافته ، حتى يصعب استغلاله لشدة ثقله كما في بعض الحقول الثانوية غرب الدجلة في العراق . ولكن هذا شذوذ تافه جدا . بينما بترول المغرب العربي سواء الجزائر أو ليبيا يجنح إلى النوع الخفيف مما يقل معه نسبة زيوت الوقود. (١) كذلك يمتاز زيت ليبيا بنسبة عالية من الشمع ومنخفضة من الكبريت .

أما عن الأعماق فهي بعامة لا تعد سحيقة مما يسهل كثيرا عمليات الاستخراج . فكثير من الآبار يقل عمقها عن ٥٠٠٠ قدما ونسبة أقل تصل إلى ١٠,٠٠٠ قدما وما زاد عن ذلك فنادر . وهذا يتأكد بالمقارنة مع الولايات المتحدة مثلا . فلزيادة الإنتاج ٢٥٠ برميلا نحتاج إلى طن من الصلب في الولايات ، بينما لا نحتاج في العالم العربي إلا إلى ١/٢ طن(٢). ولكن هناك فروقا واضحة في العمق بين المشرق والمغرب العربي ، أو بالأحرى بين آسيا العربية وإفريقيا العربية . فالبترول أعمق في افريقيا العربية سواء في مصر أو في المغرب .

أخيرا من حيث التصرف ، نجد الآبار العربيـــة بعامة غزيرة التصرف وذلك بسبب غزارة الرصيد وقلة مسامية الطبقات الحاملة للبترول ، ولهذا لا نحتاج إلا إلى دق عدد صغير من الآبار . وبصرف النظر عن الآبار الإنفجارية ، نجد المتوسطات مرتفعة بوجه عام .

---

(١) John I. Clarke, « Economic & Political Changes in the Sahara, Geography, April 1961 p. 111.

(٢) العبوسي ، ص ٥٤ .

فى ١٩٤٩ مثلا كان متوسط التصريف اليومى للبئر الواحدة بالبرميل كالآتى : ١١٫٢٠٠ فى العراق ، ٦٠٨٣ فى السعودية ، ٤٢٥٠ فى الكويت . هذا بينما هو فى إيران ٢١٦٠ ، وفى فنزويلا ٢٠٠ وفى المكسيك ١٦٠ وفى الولايات المتحدة ١١ فقط ! ومرة أخرى تتفوق آسيا العربية على إفريقيا العربية فآبار المغرب أقل تصرفا من آبار المشرق ، إما لأن الحقول قزمية ممزقة كما فى مصر ، وإما لأن الطبقات الحاملة للبترول أقل مسامية كما فى الجزائر . ولهذا يلزم عدد أكبر من الآبار (١) . ويلاحظ أن نسبة الآبار « الجافة » فى العالم العربى عامة قليلة إذا ماقورنت بمناطق البترول الأخرى بل إن التفاوت فى هذا المجال يصل إلى درجة الاختلال المطلق . فإن عدد الآبار المنتجة فى العالم العربى لا ترجح عدد الآبار الجافة بينما العكس صحيح فى غيره فحسب ، وإنما نجد بئرا جافة واحدة فى العالم العربى من كل ٣٠ بئرا تحفر مقابل بئر منتجة واحدة من كل ٩ آبار تحفر فى الولايات المتحدة . بل من الحقائق المثيرة والمعبرة أن حفر ١٧ بئرا جديدة فى السعودية فى ١٩١٠ رفعت رصيدها بنحو ٧٫٥ بليون برميل ، بينما أن حفر ١٧٥٠ بئرا فى الولايات المتحدة لم يرفع رصيدها إلا بنحو ٢٫٠ بليون برميل..

إيكولوجية الانتاج

يقصد بإيكولوجية الانتاج ظروف الوسط الطبيعى والبشرى الذى يتم فيها الانتاج . ولعل أبرز حقيقه فى بيئة الانتاج أنها بيئة صحراوية هذا من الوجهة العلمية يعنى أنه يكاد يقوم فى « فراغ » حضارى وعمرانى واقتصادى . ومعنى هذا أن الاستثمار ينبغى أن يستورد معه كل شىء ابتداء من رأس المال والتكنيك إلى الثوابت الحضارية Cultural immobilia والأيدى العاملة إلى الماء والغذاء . أى أن عليه أن يحمل معه بيئة منقولة

(١) Clarke, loc. cit.

نقلا أو أن يصنعها صنعا ، بل قد يلزمه أن يصنع «الماء والمناخ» - التقطير والتكييف . بمعنى آخر إن الأساس الحضارى والمادى infrastructure للانتاج فاقد . وكل أولئك يجعل عملية التنقيب - ابتداء - عملية شاقه بلا أى تسهيلات حضارية ، ومن بعدها يجعل عملية الانتاج عملية باهظة يثقلها انعدام الوفورات الخارجية external diseconomies يضاف إلى هذا صعوبات ومضايقات المناخ الحار الصحراوى بسمومه « والجبلى » ، وضرورات التكييف الباهظة . هذا عدا عقبات السطح من كثبان وعرق (إرج) تستهلك وسائل المواصلات بشراسة ، وتعطل عمليات الحفر ذاتها وقد كانت هذه العقبات - بحكم الموقع الداخلى أو الساحلى - أشد فى المغرب منها فى المشرق ، وفى الجزائر أكثر منها فى ليبيا .

والواقع أن هذه الظروف اضطرت الشركات أحيانا إلى ابتكار طرق وفنون جديدة تماما للكشف البترولى . وقد نضيف بعض ظروف عارضة لكنها عائقة مثلا مخلفات الحرب الأخيرة من حقول الألغام المنبثة فى ليبيا - أكثر من ٣ مليون لغم أغلبها فى برقة (١) - والتى كانت لا تقل عن أى عائق جغرافى جدى فى سبيل الكشف والتنقيب . وهناك كذلك الموقع الداخلى لكثير من الحقول : فإن معناه مضاعفة كل الأضداد السابقة بمتتالية هندسية تقريبا . وفى هذا الصدد وجد أن تكاليف البحث عن البترول فى ليبيا هى أعلى منها فى أى منطقة أخرى فى العالم .

ولكن يعوض - وزيادة - من هذه السوالب والمثالب مجموعة مضادة من الظروف الطبيعية والبشرية تجعل البترول العربى فى النهاية فريدا فى

---

(1) Clakre, « Oil in Libya ... », p. 44.

إيكولوجية انتاجه . فهناك مزايا الجيولوجيا الاقتصادية التى رأينا ، وهى وحدها تعطيه تفوقا لا يلحق . وهناك المزايا الاجتماعية المرتبطة بعنصر العمل . فالعمل المحلى المدرب وغير المدرب أرخص كثيرا من نظيره فى مناطق البترول الأخرى لا المتقدمة فحسب كالولايات المتحدة بل وشبه المتخلفة مثل فنزويلا . وإذا استبعدنا العمل الأجنبى من مجموع العمل فى البترول العربى لوجدنا قيمته الحقيقية أرخص من قيمته الظاهرية . ومع ذلك فينبغى عدم المبالغة فى تقدير أهمية هذا العامل . فمستوى الأجور يميل بإنتظام إلى الارتفاع فى المنطقه مع زيادة الوعى السياسى والعمالى . ومن ناحية أخرى فعنصر العمل برمته ثانوى نسبيا فى ميزانية إنتاج البترول لاتزيد عن ١٠ — ١٥ ٪ منها (١) .

ثمة بعد هذا عامل سياسى يشكل أحد أبعاد الإطار البيئى لانتاج البترول العربى. فأغلب الامتيازات الاحتكارية الممنوحة فى المنطقة هى من النوع الشامل — الامتيازات الغطائية blanket Concessions — أى التى تغطى مناطق شاسعة قد تمثل أحيانا كل الرقعة السياسية للدولة (٢) كما فى العراق والكويت والبحرين وقطر. أما فى السعودية فهو وإن كان لا يغطى كل الدولة فإنه يعد مع ذلك أكبر مساحة امتياز فى العالم (٣٥٢٫٠٠٠ ميلا (٢)) . وهذا كله يقلل المنافسة ضد شركة الامتياز من ناحية ، ويفسح لها مجال البحث الانتخابى والأولويات الفنية من ناحية أخرى ، كما يسمح لها نظريا بوضع أمثل سياسة استثمارية تحقق الاحتفاظ بشباب الآبار إلى أبعد حد ممكن . كذلك تمتاز المنطقة سياسيا بأن سيادة الدولة فيها تنصرف إلى سطح الأرض وباطنها على السواء ،

---

(١) العبوسى ، ص ٥٥

(٢) لونجريج ، ص ٣٥٧

مما يعفى الشركات من مشاكل الملكيات الخاصة والفردية لمناطق الآبار والحاجة إلى التعامل المباشر مع الأفراد(١) ولو أنها قدتجد صعوبة من جانب القبائل المتعددة التى لازالت غير خاضعة تماما للحكومات المركزية . كما تتمتع هذه الشركات عادة بعقود طويلة الأجل قد تصل إلى قرن أو نحو قرن ، كما تتمتع بإعفاءات سخية من ضرائب ورسوم وجمارك عديدة .

والحساب الختامى لإيكولوجية الإنتاج بالنسبة لبترول العرب هو تفوق إقتصادى محقق سواء قارنا بالدول المنتجة المتقدمة أو المتخلفة كما يتضح من الإحصاء التالى لتكاليف إنتاج البرميل الواحد بالدولار لسنة ١٩٤٦(٢) .

الولايات المتحدة	فنزويلا	السعودية	الكويت	البحرين
١٫٨٥	٠٫٨٥	٠٫٤٠	٠٫٢٧	٠٫٢٥

وهذه التكاليف هى على الحقل On the spot . ولكننا سنرى أنه حتى بعد النقل إلى سوق الاستهلاك تظل أفضلية الإنتاج الاقتصادية محفوظة للبترول العربى . وفى ١٩٦٣ قدرت متوسطات تكاليف البحث عن المتر المكعب الواحد بنحو ٧٠٤ سنت فى الولايات المتحدة ، ١٣٢ فى فنزويلا ، مقابل ٣ سنت فقط فى الشرق الأوسط ، ٤٠ سنت (١٦٥ مليما) فى مصر . وبالنسبة للبرميل فى الفترة ١٩٥١ — ١٩٦٠ هذه كانت متوسطات تكاليف البحث ثم الإنتاج بالدولار :

---

(1) H. L. Hoskins, The Middle East .Problem Area in World Politics, N. Y. 1954 p. 197.

(٢) العبوسى ص ٥١ .

	البحث	الإنتاج	
الولايات المتحدة	١ر١٢ دولار	١ر٧٣	دولار
كندا	؟	٣ر١٠	»
فنزويلا	٢١ سنت	٠ر٥١	»
الشرق الأقصى	؟	٠ر٨٢	»
الشرق الأوسط	٥ر٠ سنت	٠ر١٦	»

ويمكن أن نعبر عن مزايا بترول العرب بطريقة أخرى . فحتى آخر ١٩٦٠ بلغت نسبة رؤوس الأموال الموظفة فى البترول فى الشرق الأوسط ٤ ٪ فقط من مجموع الأموال الموظفة فى البترول فى العالم كله (وقدرها ٥ر١٠٤ مليار دولار) رغم أنها تنتج الآن نحو ٣٠ ٪ من الإنتاج العالمى! ولا غرابة بعد هذا أن تصل الأرباح الصافية على رؤوس الأموال الموظفة فى بترول المنطقة إلى نسبة لا مثيل لها فى العالم فى أى منطقة أخرى فى أى سلعة أخرى — وقد تصل إلى نسب خيالية حقا . ففى الفترة ١٩٥٦-١٩٦٠ بلغ متوسط الربح السنوى من رؤوس الأموال الموظفة فى بترول الشرق الأوسط ٦٦ ٪ من هذه الرؤوس ! وفى عام واحد ١٩٥٨ بلغت نسبة الأرباح فى قطر ١٥٠ ٪ من رأس المال !

وفى دراستنا لإيكولوجية الإنتاج ينبغى أن نميز أخيرا بين ظروف المشرق العربى والمغرب . فرغم الوراء الصحراوى المشترك ورغم أن بترول المغرب داخلى أكثر منه فى المغرب ، فقد كان المشرق هو المدرسة الأولى التى تلقت فيها الشركات الدروس الصعبة والتجارب القاسية فى تكنولوجية الصحراء ، بينما فى المغرب استفادت من هذه الخبرة المكتسبة خاصة فى

فنون النقل ومكافحة الكثبان والحرارة وتوفير المياه ... الخ . ومن الناحية الأخرى فقد استفادت دول المغرب من دروس المشرق من حيث عقود الامتيازات . فتفادت كثيرا من أخطائها وتساهلها المجحف بحقوق الدولة . فمن ناحية بينما تسود فى المشرق ظاهرة الشركة الواحدة فى الدولة الواحدة ، تتنافس فى المغرب كثير من الشركات فى الدولة الواحدة - ١٨ فى كل من ليبيا والجزائر . ومن ناحية أخرى بينما تصل مدة الامتياز فى المشرق أحيانا إلى القرن لا تزيد غالبا عن نصف ذلك فى المغرب . ومن ناحية ثالثة بينما تسود الامتيازات الغطائية فى المشرق يتميز المغرب وخاصة ليبيا بالامتيازات الرقعية الضئيلة نسبيا . وسنرى فيما بعد كيف أثر هذا النمط على نمط توزيع الحقول فى كلتا الحالين . وأخيراً فإذا كانت شركات المشرق تنال امتيازها على كل منطقتها طوال فترتها ففى المغرب يقضى النظام بسلسلة موقوتة من التنازلات عن نسب محددة من رقعة الامتياز وذلك حثا للشركات على البحث وعدم الإهمال . كذلك تشترط عقود المغرب على الشركات إنفاق قدر محدد من الأموال على البحث والتنقيب ضمانا لجدية العملية(١) .

(١) راشد البراوى ، ثورة البترول فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٥ — ٣٠

الفصل الثانى

تاريخ الانتاج

بداية الإنتاج

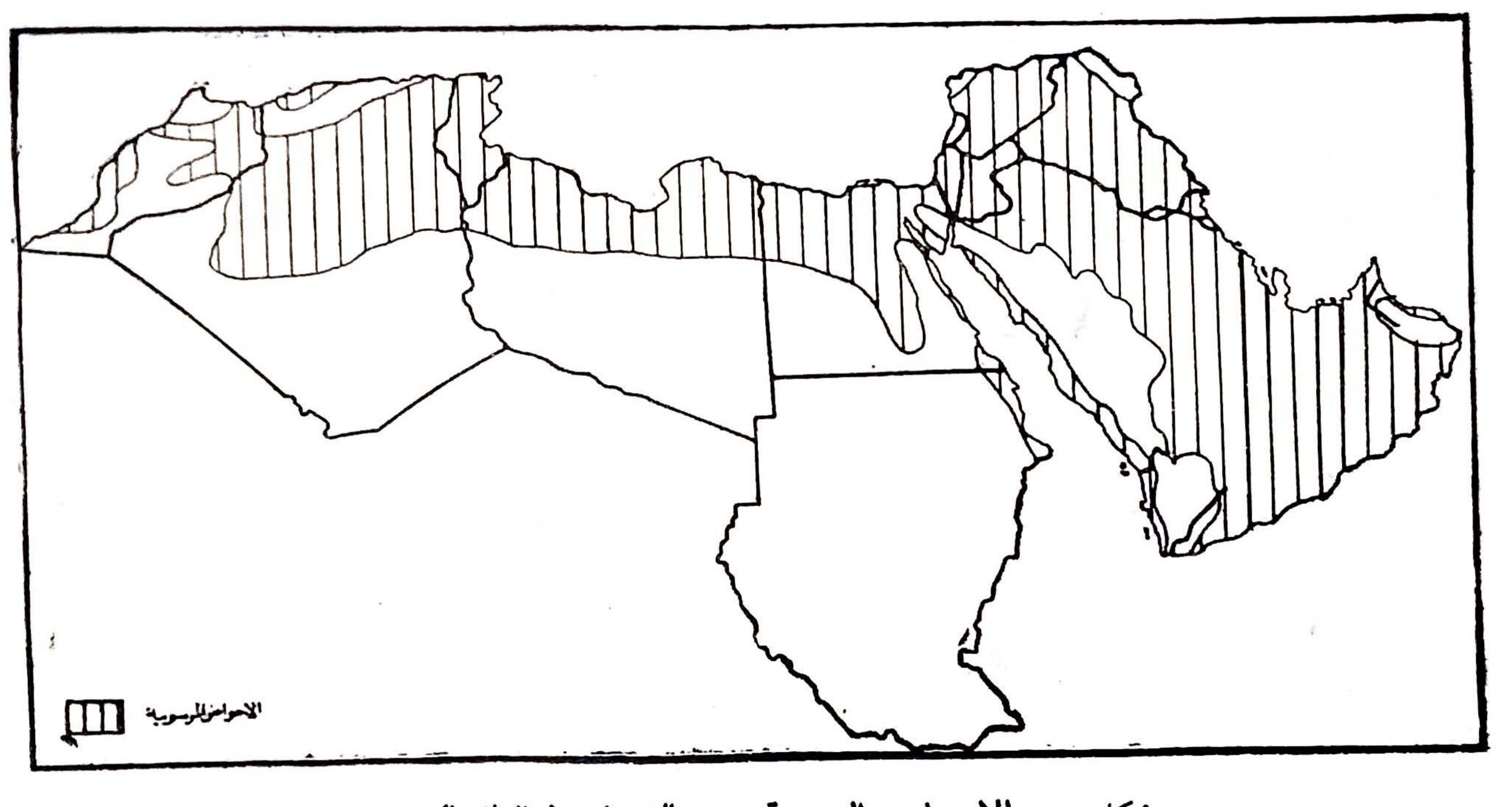
ظهر البترول أول ما ظهر فى العالم العربى فى مصر بالصدفة أثناء البحث عن الكبريت فى جمسة فى ١٨٦٩ ، ولكن الكشف عنه بكميات تجارية لم يبدأ إلا فى ١٩٠٦ . وكان العراق هو الثانى فى الترتيب ، فتم أول كشف فيه عن البترول فى ١٨٧١ ، ولكن الإنتاج تأخر طويلا إلى ما بعد الحرب الأولى منذ سنة ١٩٢٧ . ووضع العراق بالذات يمثل شذوذا فى تاريخ البترول العربى : فإن الإنتاج لم يتأخر طويلا فحسب وإنما ظل بعد ذلك أقل بكثير مما يمكن . ويعلل هذا بأن الشركة المسيطرة كانت هى الشركة المسيطرة على بترول إيران ولم تكن تجد مصلحة فى التعجيل بتنمية البترول العراقى بما يحتاجه من إنفاق رأسمالى ضخم فى المراحل الأولية بينما زيت إيران يتدفق إلى الأسواق من قبل . كما أنها كانت تجد مركزها السياسى غير مستقر فى إيران بعكس العراق ولذلك حاولت أن تنتزع من بترولها أكبر قدر ممكن بأسرع ما يمكن ولذا ركزت على إيران وتعمدت تأخير وإهمال بترول العراق (١).

وكانت البحرين هى الثالثة فى تاريخ نشأة بترول العرب ، فقد تفجر البترول فيها فى ١٩٣٢ وبدأ الإنتاج التجارى منذ ١٩٣٤ . وكان لظهور

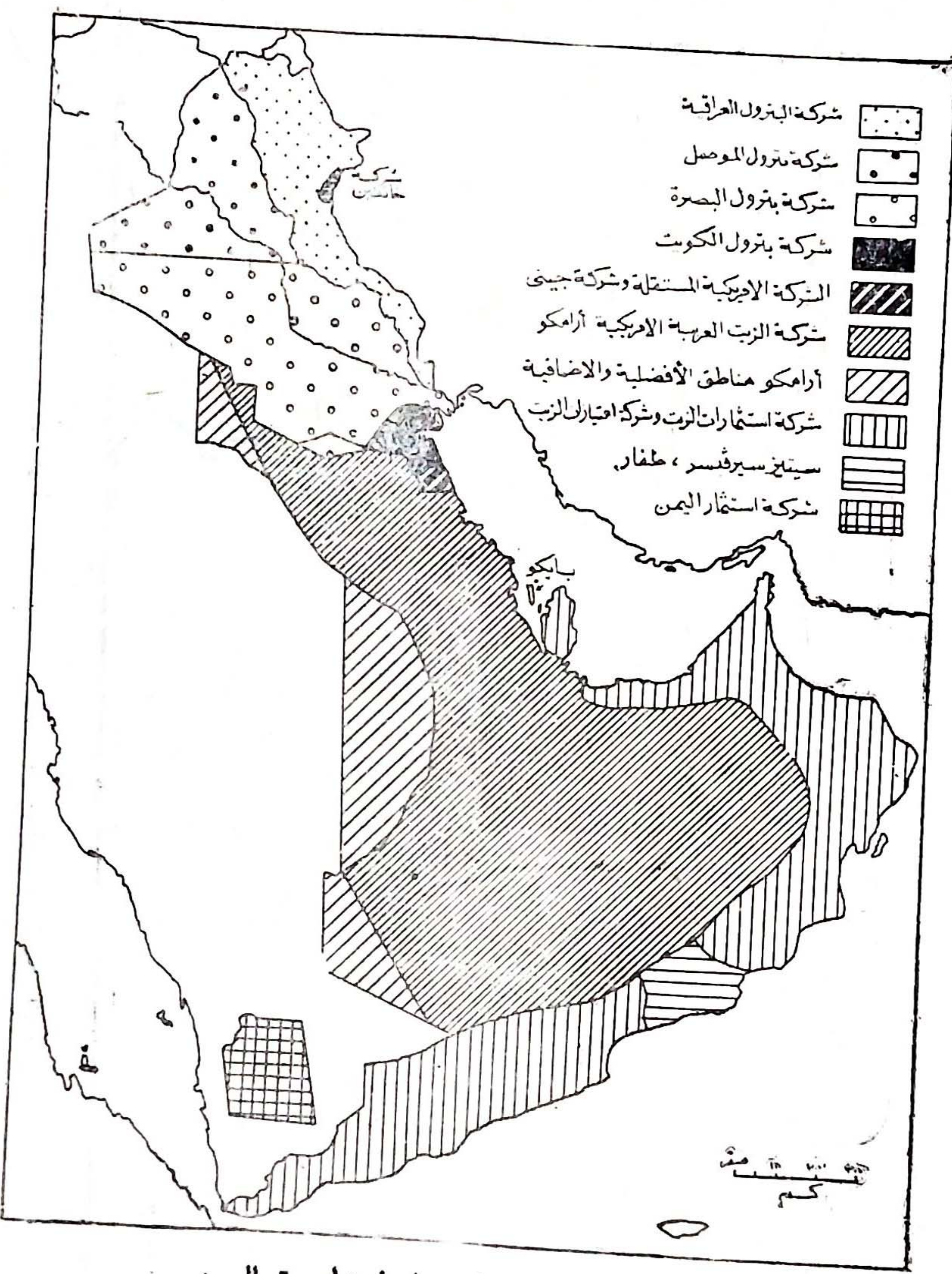
---

(١) جاسم الخلف ، محاضرات فى جغرافية العراق . القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨١ ، العبوسى ص ١٥٦ وبعدها ؛ انظر أيضا :

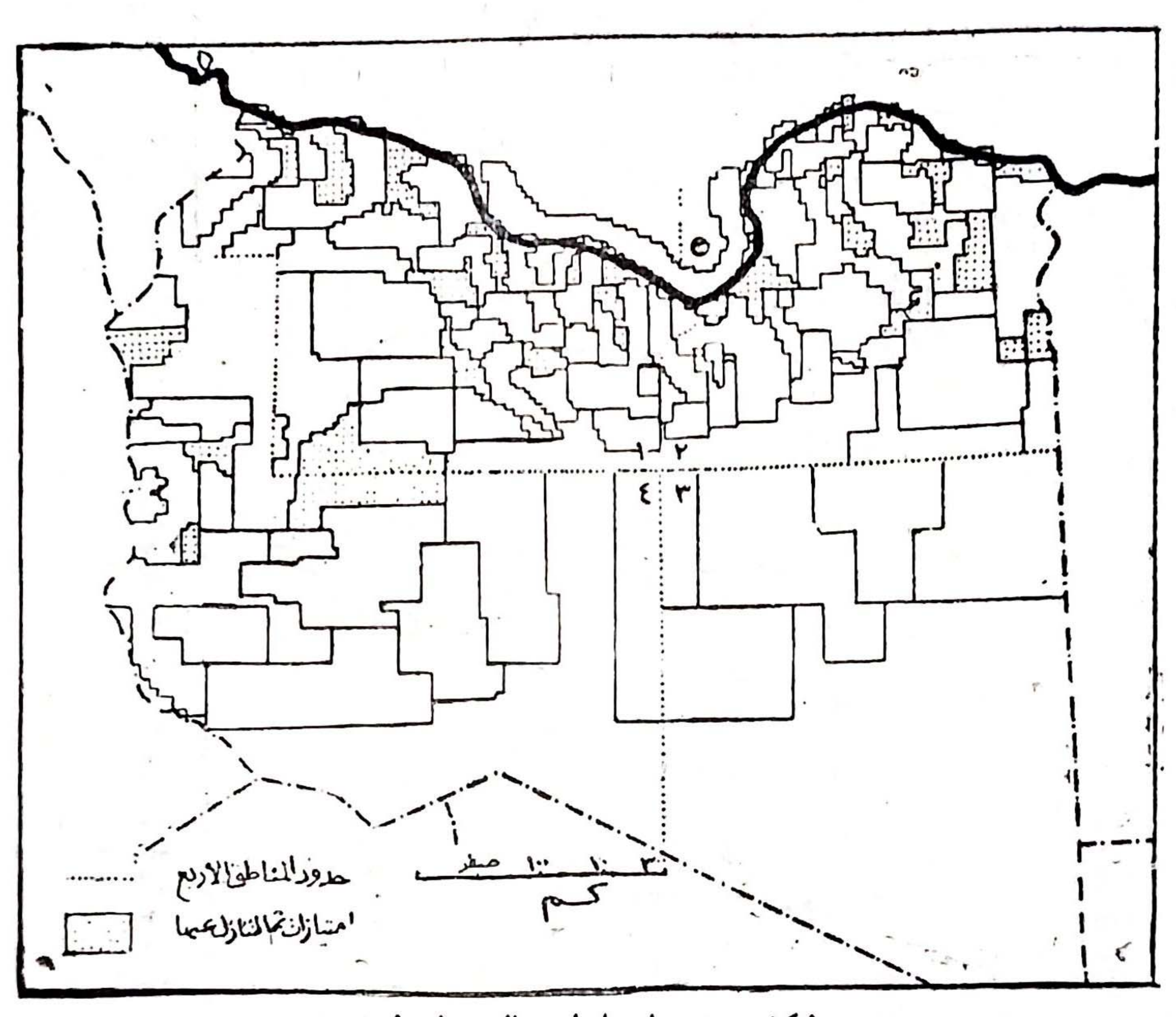
P. Birot & J. Dresch, La Mediterranée et le Moyen-Orient, t. II, Paris. 1956, p. 439,



شكل ١ — الاحواض الرسوبية ، مهد البترول ، فى العالم العربى ،
لاحظ التوزيع الساحلى . (عن الجمعية الجغرافية الأمريكية وستامب)

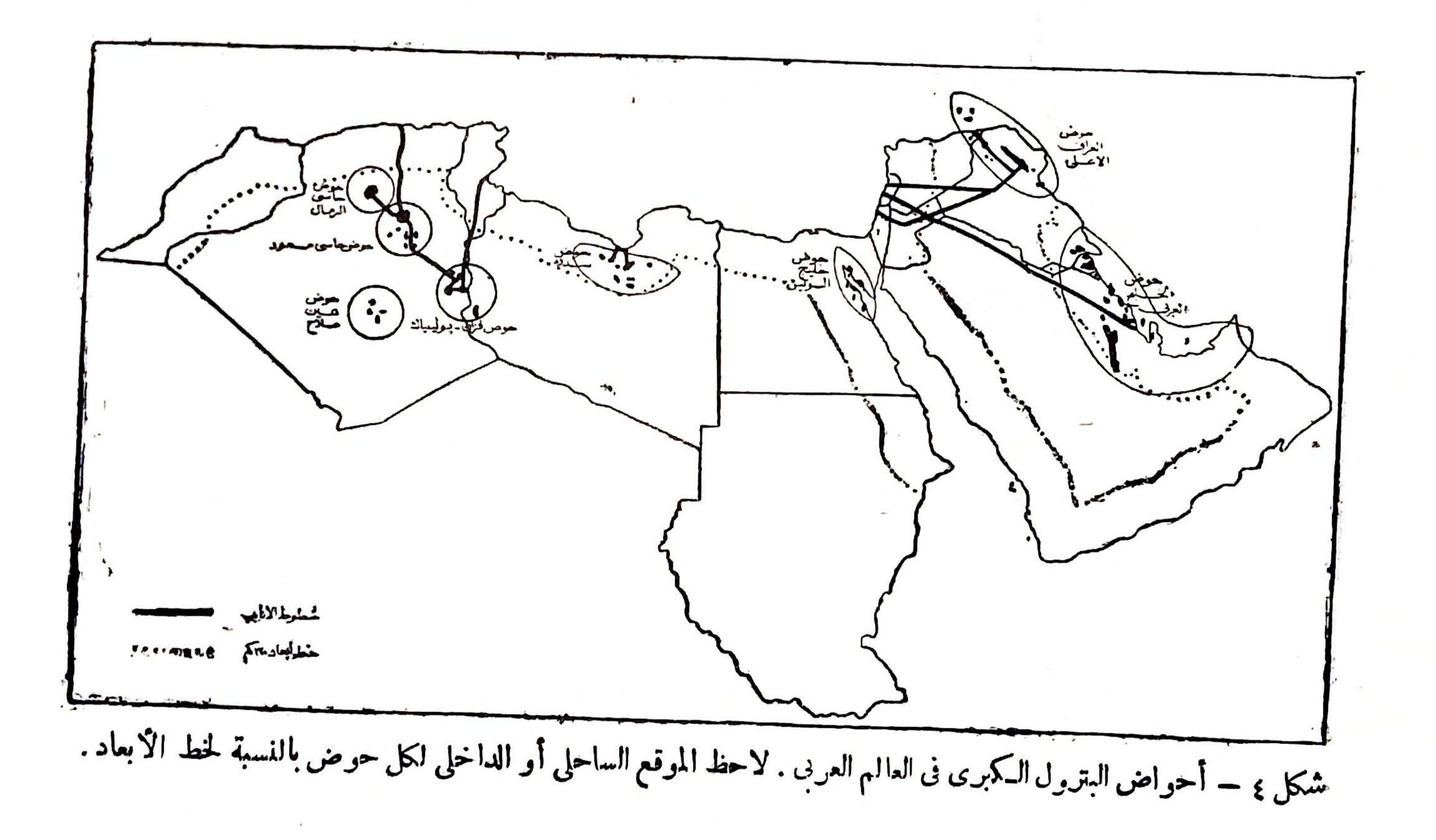


شكل ٢ — امتيازات البترول فى المشرق العربى .
لاحظ ظاهرة « الامتيازات الغطائية » الشاملة .



شكل ٣ — امتيازات البترول فى ليبيا .

نموذج مثالى للامتيازات الرقعية المبعثرة. قارن بالمشرق العربى لاحظ أثرها على توزيع الحقول



شكل ٤ — أحواض البترول الكبرى فى العالم العربى . لاحظ الموقع الساحلى أو الداخلى لكل حوض بالنسبة لخط الأبعاد .

البترول فى البحرين مغزى خطير : فقد أثبت أن البترول يكمن على الساحل الجنوبى للخليج العربى كما يكمن فى ساحله الشمالى . بل إنه من البحرين شوهدت قبة الدمام Dammam Dome التى أوحت بوجود خزان للبترول تحتها (١) . فبدأ الكشف عنه فى السعودية فى ١٩٣٣ ولكن دون نجاح حتى كاد يتوقف يأسا حين تفجر الزيت فجأة فى ١٩٣٨ فى تلك القبة . وبدأ الإنتاج التجارى منذ ١٩٣٩ ولكنه لم يبدأ جديا إلا بعد الحرب فى ١٩٤٦ (٢) . ويكاد يتعاصر بدء تاريخ البترول فى كل من الكويت وقطر . ففى الكويت بدأ الكشف فى ١٩٣٦ وظهر فى ١٩٣٨ ، إلا أن الإنتاج لم يبدأ إلا بعد الحرب فى ١٩٤٥ . وفى قطر ظهرت أول بئر فى ١٩٣٨ ثم تفجر فى ١٩٣٩ ، إلا أن الإنتاج لم يبدأ إلا بعد الحرب أيضا ولكن متأخرا نوعا — فى ١٩٤٩ .

وهنا سيلاحظ أن البحرين والسعودية كانتا أسعد حظاً من الكويت وقطر من حيث أن الأوليين كانتا من البلاد المنتجة والمصدرة للزيت أثناء الحرب ، بينما لم يبدأ الإنتاج فى الثانيتين إلا بعد الحرب . والسبب أن معدات الإنتاج والنقل والتكرير والشحن كانت قد اكتملت فى البحرين والسعودية قبل بدء الحرب مباشرة ولهذا أمكنهما أن تستمر فى الإنتاج . أما الكويت وقطر فقد دهمتهما الحرب قبل أن تتوفر هذه الوسائل ثم استحال إيجادها أثناء الحرب فقضى عليهما بالانتظار بلا إنتاج حتى نهايتها . كذلك يرتبط هذا الفارق فى الواقع بالفارق فى النفوذ السياسى والإقتصادى لكل من الولايات المتحدة وبريطانيا ، فقد كانت الأولى أقدر على التغلب

---

(1) Hoskins P. 205

(٢) كارل تويتشل . المملكة العربية السعودية . مترجم . القاهرة ١٩٥٥ ص ١٧١ — ١٨٨ .

على مصاعب ظروف الحرب من الثانية . ولهذا يلاحظ أن كل المناطق التى تحتكرها أو تشارك فيها الشركات الأمريكية كانت أسرع وأسبق فى تنميته من المناطق التى تسيطر عليها الشركات الإنجليزية البحتة (١) .

ولقد كانت المنطقة المحايدة هى آخر الكشوف — لاشك بحكم وضعها السياسى المشترك فلم يبدأ البحث إلا فى ١٩٤٩ ، ولم يظهر إلا فى ١٩٥٣ . وقد كان غريبا حقا أن تقع المنطقة بين قطبى الانتاج فى الكويت والسعودية ثم يتأخر فيها كشف الزيت إلى هذا الحد . وقد ظهر فى ليبيا بعد الحرب الثانية مباشرة أن تحت سطح فزان بحيرة من الزيت . ولكن البحث لم يبدأ إلا فى أواخر الخمسينات ، وفيها أيضا تفجر البترول وخرجت أول شحنة من التصدير فى ١٩٦١ . وقد تعاصر البحث فى الجزائر معه فى ليبيا ، وتفجر البترول فيها لأول مرة ١٩٥٤ ، وبدأ الإنتاج فى ١٩٥٨ . وقد كانت سوريا آخر وحدة تدخل الميدان ففى حوالى ١٩٦٠ كشف البترول ولو أن الإنتاج لم يبدأ بعد جديا . وكانت أبو ظبى آخر ماأضيف إلى القائمة الدسمة ، وإن كان الانتاج لايزال فى مراحله الأولى .

من هذا العرض التاريخى لبداية البترول فى وحدات العالم العربى المختلفة نرى عدة حقائق . فأولا كان العالم العربى من أولى المناطق التى عرف فيها البترول وبدأ البحث عنه فيها . فترتيبه فى هذا يأتى الثانى بعد الولايات المتحدة التى كان تفجر أول بئر فيها فى ١٨٥٩ بينما عثر عليه فى مصر لأول مرة فى ١٨٦٩ . وهنا سنلاحظ أن مصر كانت مبكرة بالنسبة للعالم كله فى

---

(1) Longrigg pp. 136 — 7 .

دخول عدة ميادين من عناصر الاقتصاد الحديث كمد السكك الحديديةمن قبل وكشف البترول من بعد . إذن فتاريخ البترول فى العالم العربى فى أقدم صوره يزحف الآن حثيثا نحو القرن . ولكن تاريخ الانتاج لايزيد فى أقدم حالاته مصر عن نصف قرن ، فالإنتاج لم يبدأ إلا بعد الكشف بنحو ٤٠ سنة ، ولم يبدأ الإنتاج التجارى نسبيا إلا بعد أسابيع من كشف حقل مسجد سليمان الهام فى إيران فى ١٩٠٨ (١). وفيما يلى عمر الإنتاج بالسنوات منذ بدأ فى كل وحدة حتى نهاية ١٩٦٢ :

مصر	العراق	البحرين	السعودية	الكويت	قطر	المحايدة
٥٢	٣٦	٢٩	٢٤	١٧	١٤	٩

الجزائر	ليبيا .
٥	١

ثانيا لقد ظهر البترول فى دولتين من العالم العربى فى القرن الماضى وهما مصر فالعراق ، ولكن الانتاج فى الأولى بدأ حوالى الحرب الأولى وفى الثانية بين الحربين . أما وحدات الخليج العربى ـ عدا المحايدة ـ فتاريخه يبدأ حول الحرب الثانية : الكشف قبل الحرب مباشرة والإنتاج بعدها مباشرة . أما فى المحايدة والمغرب فيرتبط بالخمسينات . كذلك سنرى أنه حتى ١٩٥٣ كان البترول العربى يعنى فقط المشرق العربى ، وإن كان من قبل إفريقيا وأسيويا ، ولكن بعد هذا التاريخ امتد نطاق البترول إلى المغرب العربى .

---

(1) The Middle East. A Political & Economic Survey. Royal Institute of International Affairs, Lond., 1958, p. 58.

ثالثا سيلاحظ فى المشرق العربى أن ظهور البترول فى قوسه الشرقى قد أخذ خطا أو اتجاها واضحا فى حركته التاريخية ، خطاً يبدأ عامة من الشمال ويتجه إلى الجنوب . فقد ظهر البترول أول ماظهر فى شمال العراق ثم انبثق فى الخليج فى السعودية والبحرين وقطر . وإذا كان البندول قد عاد فارتد إلى الشمال إلى الكويت ثم جنوب العراق ، فهذه الحركة الراجعة العكسية ثانوية لاتنفى الاتجاه العام الذى عاد فتأكد ثانية بتفجر الزيت فى أبو ظبى واحتمالاته فى البوريمى وبقية شياخات ساحل المعاهدات . وإذا صح التنبؤ على هذا الأساس فأمام سواحل عمان مستقبل بترولى . ولسنا نعرف أين سيقف زحف البترول جنوبا . وبالمثل فى المغرب هناك خط حركى محدد وإن كان عرضيا . فقد بدأ البترول فى الجزائر ثم امتد ليظهر فى ليبيا ، وإذا كشف البحث كما يؤمل عن بترول فى صحراء مصر الغربية لتأكد سهم الحركه . وفى كلا الحالين سيرى أن امتداد محور البترول يتفق مع امتداد محور كل من المشرق والمغرب على الترتيب .

تطور الانتاج وضوابطه

فى الجدول الآتى نتتبع نمو إنتاج البترول فى العالم العربى ككل ونسبته من الانتاج العالمى — بملايين الأطنان(١) .

السنة	الانتاج العربى	الانتاج العالمى	النسبة المئوية
١٩٣٩	٦	٣٤٨	٢ر٣
١٩٤٤	٧	٣٥٦	٢ر١
١٩٤٥	١٠	٣٧١	٢ر٤
١٩٤٧	٢١	٤١٥	٥ر٤

(١) لونجريج : ص ٣٤٩

١٩٤٨	٣٢	٤٦٥	٦ر٨
١٩٤٩	٤٣	٤٦٥	٩ر٧
١٩٥٠	٥٠	٥١٨	٩ر٦
١٩٥١	٧٨	٥٨٣	١٣ر٤
١٩٥٢	١٠٣	٦٠٥	١٧ر٠
١٩٥٣	١٢٠	٦٥٠	١٨ر٢
١٩٥٤	١٣١	٦٧٩	١٩ر٣
١٩٥٥	١٤٦	٧٦٣	١٩ر١
١٩٥٦	١٢٠	٨٣٠	١٦ر٨
١٩٥٧	١٣٥	٨٧٥	١٥ر٤
١٩٥٨	١٧١	٩٠٠	١٩ر٠
١٩٥٩	١٨٣	٩٦٤	١٨ر٨
١٩٦٠	٢٢٣	١٠٨٠	٢١ر٥
١٩٦١	٢٤٠	؟	؟
١٩٦٢	٢٧٢	١١٨٤	٢٣ر٠

لئن كان تاريخ البترول العربى قد أوشك الآن أن يكون قرنيا ، فإن الإنتاج الحقيق ظاهرة حديثة للغاية . فحتى فى ١٩٣٩ لم يزد مجموع الإنتاج عن ٦ مليون طن ، وهو لم يصل إلى علامة العشرة مليون بالكاد إلا فى ١٩٤٥ ثم ارتفع إلى ١٥ مليون فى ١٩٤٦ ، ثم قفز إلى ٢١ مليون فى ١٩٤٧ أى ضعف ما كان عليه فى ١٩٤٥ . ومنذئذ أخذ يسجل كل عام زيادة قدرها ١٠ مليون طن حتى ١٩٥٠ حيث وصل إلى علامة الـ ٥٠ مليون طن وقارب ١/٢

إنتاج العالم ، وفى ١٩٥٢ تعدى علامة الـ ١٠٠ مليون طن (١٠٣) . أى أنه ضاعف نفسه بين ١٩٥٠ و ١٩٥٥ ثلاث مرات وبين ١٩٤٥ و ١٩٥٥ خمس عشرة مرة . ثم قفز إلى ١٢٠ ثم ١٣١ ثم ١٤٦ فى الأعوام التالية أى اقترب من علامة الـ ١٥٠ تقريباً فى ١٩٥٥ كما اقترب من ⅕ الإنتاج العالمى . ولكن سنتى ١٩٥٦ - ١٩٥٧ تمثل نقطة اهتزاز فى خط سير الانتاج العربى ، فقد انخفض فيها الانتاج الفعلى حوالى ١٠ مليون طن عما كان عليه فى ١٩٥٥ كما انحدرت نسبته إلى الانتاج العالمى من أقل قليلا من ٢٠ ٪ إلى أكثر قليلا من ١٥ ٪ . والسبب فى هذا هو العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ الذى خفض الإنتاج فى كل من العراق ومصر دون بقية العالم العربى . ولكن منذ ١٩٥٧ كان الانتاج يقفز إلى آفاق جديدة ، ولو أن نسبة الانتاج إلى العالم قد تراخت قليلا . على أن معدل زيادة الانتاج فى العالم العربى فى السنوات الأخيرة يعد أعلى منه فى العالم الآن رغم أن العالم حالياً يمر بفترة من إفراط الانتاج وزيادة العرض على الطلب overproduction . ولهذا بلغ مجموع إنتاج العالم العربى فى ١٩٥٩ نحو ١٨٢ مليون (١٨٫٨ ٪ من العالم) فقفزت فى ١٩٦٠ إلى ٢٢٢ مليونا أى نحو ٢١ ٪ من العالم البالغ ١٠٨٠ مليون طن. وبهذا أصبح العالم العربى ثانى منتج فى العالم بعد الولايات المتحدة وقبل الكاريبى . وقد سجل الانتاج فى ١٩٦٢ نحو ٢٧٢ مليون طن تتراوح حول ٢٣ ٪ من العالم أى نحو ربعه .

مرحلتان من الانتاج

من هنا لا بد أن نميز بين مرحلتين فى تاريخ البترول العربى : الأولى مرحلة تدريجية استمرت حتى ١٩٤٦ . وطوال هذه الفترة كان كل إنتاج العالم العربى أقل بدرجات متفاوتة من إنتاج دولة مثل ايران ، ولم يزد عن ٢ ٪

من الانتاج العالمى . كما لم يزد مجموع الانتاج العربى طوال هذه المدة (١٩١١ إلى ١٩٤٦) عن ٨٧ مليون طن ، كما كان معدل نمو الانتاج العربى بعامة أقل من مثيله العالمى . أما منذ ١٩٤٧ فتبدأ مرحلة من التطور الانفجارى ، تبدأ « الثورة البترولية » . ففى أولها تساوى الانتاج العربى مع إيران ثم تضاءلت هذه بجانبه تماماً ، وأصبح الانتاج العربى يمثل نحو ٢٠٪ من العالم فى ١٩٥٥ . وفى هذه المرحلة التى لا تزيد عن ١٤ سنة جاوز مجموع الانتاج ١٠ أمثال مجموع المرحلة التدريجية ، وأصبح معدل نمو الانتاج العربى يفوق المعدل العالمى كثيرا . ومعنى هذا أن الثورة البترولية الحقيقية هنا هى بنت الحرب الأخيرة وأن تاريخ البترول العربى الحقيقى لا يزال فى دور المراهقة .

لماذا مرحلتان ؟

علينا الآن أن نتساءل عن تفسير لهذا النمط الخاص لمنحنى تطور الإنتاج العربى لماذا ينقسم المنحنى إلى مرحلة طويلة من الإنتاج الضئيل البطىء الذى ظل حبيسا يود أن ينطلق ، فلما انطلق بدأ مرحلة حديثة من الإنتاج الإنفجارى المريد ؟ بمعنى آخر ما هى ضوابط الإنتاج العربى الحقيقية . ؟

هى بوضوح مصلحة الإنتاج — أى سياسة الشركات كما تحددها السوق الاقتصادية والسياسيه . فليس من تعليل معقول لتعطيل الإنتاج طويلا فى العراق مثلا إلا أن شركه الامتياز كانت هى نفس صاحبة الامتياز فى إيران المضطربة حيث كانت قد بدأت من قبل الإنتاج الكبير ، فكانت لا تريد الإنتاج العراقى تأخيراً للتكاليف الابتدائية initial costs الباهظة من ناحية ، ومنعاً لإغراق السوق حفظا للأسعار من ناحية أخرى ، ولأنها كانت مطمئنة على وضعها السياسى فى العراق من ناحية ثالثة . وقد تكون

ظروف الحرب الثانية مسئولة جزئيا عن غلق الآبار الجديدة فى منطقة الخليج حيث نجد دائما فترة طويلة بين تاريخ الكشف وتاريخ الإنتاج الفعلى، ولكن من الثابت أنه حماية لسوق البترول الأمريكى فى أوربا من المنافسة حدد الإنتاج عمداً فى هذا المناطق(١).

وعلى العكس من ذلك فى المرحلة الثانية . فحين بدى شبح مجاعة بترولية على الأفق الأمريكى وبدأت سياسة صيانة مـوارده البترولية وتخلت عن السوق الأوربية بل بدأت تصبح مستوردة بترول ، أفرجت الشركات عن الإنتاج العربى الحبيس . وحين « ضاعت » إيران من الشركة البريطانية بدأت ترفع الإنتاج العراقى . وأكثر من هذا لما أحست شركات الامتياز ودولها بعدم الاستقرار فى وضعها السياسى فى المنطقة وخشيت أن تكون أيامها معدودة فيها أسرعت بدفع الإنتاج إلى مرتبة الاستنزاف حتى غمرت السوق إلى ما فوق التشبع حتى انخفضت الأسعار وبدأت الدول العربية التى كانت فى المرحلة الأولى تطالب فى إلحاح بزيادة الإنتاج ، بدأت تطالب بتحديده . ولو كان البترول قابلا للتخزين بكميات ضخمة لجاء الاستنزاف أشد وأعتى بالتأكيد . ومن الملاحظ أن دفعة الإنتاج جاءت أقوى ما تكون فى تلك الوحدات « الآمنة » سياسيا من وجهة نظر الشركات ودولها بينما كانت أقل فى الوحدات الأخرى . . . قارن الكويت والمحايدة وقطر والسعودية بالعراق فى المشرق ، وقارن ليبيا بالجزائر فى المغرب ، فالأولى طفر فيها الإنتاج بسرعة نادرة ، والثانية توضع عليها كل القيود والسدود . . بل إن البعض يتهم الشركات بأنها تتلاعب فى نتائج أبحاثها الجيولوجية فتخفى أو تهون نتائجها الإيجابية فى حالة بعض الدول غير المستقرة سياسياً . . الخ

---

(١) العبوسى . ص ٤ — ٨٥

وعدا هذا فإن من المحقق أن العامل السياسى كان من بواعث انتشار البحث عن البترول وانتاجه فى العالم العربى وخارجه . فمع ازدياد الوعى والتيار القومى فى المشرق العربى وتخوف الدول المسيطرة على مستقبلها البترولى فيها لجأت إلى البحث عن منابع جديدة مضمونة وآمنة نسبياً . وكان هذا هو السبب فى الإندفاع الفجائى على بترول المغرب سواء فى الجزائر أو فى ليبيا حيث كان الاستعمار يظن نفسه أكثر استقرارا . وليس صدفة أن بدء الانتاج فى المغرب تلى أزمة السويس . وهنا لا نملك إلا أن نلاحظ أن هذه نفس قصة القطن من قبل حين رأى الاستعمار البريطانى أن يقلل من اعتماده على القطن المصرى فراح ينشر زراعته فى السودان وأوغندة ونيجيريا . . . الخ .

ومن هذا كله يتضح أن الضابط الحقيقى خلف تطور الانتاج العربى لم يكن الرصيد أو غيره من العوامل المحلية وإنما المصالح السياسية والاقتصادية الخارجية لشركات الامتياز ودولها ، أى مصلحة المستثمر والسوق الأجنبية لا دول الانتاج المحلية . وقد ساعد على هذا الضبط عجز هذه الأخيرة من ناحية والطبيعة الاحتكارية العالمية للبترول من ناحية أخرى .

تطور الانتاج بالوحدات

كانت القيم النسبية لوحدات العالم العربى المختلفة دائما فى تطور وتغير من حيث الانتاج . فقد ظلت مصر الدولة العربية الوحيدة المنتجة حتى أضيف العراق فى سنة ١٩٢٧ . ولكن كان الانتاج المصرى لا يكاد يذكر فلم يتعد ½ مليون طن . ومع ذلك فالطريف أنه ظل أكبر من العراق حتى

١٩٣٣ . أى أن مصر هى أطول دولة احتلت المركز الأول فى الانتاج على رغم تفاهة هذه الميزة لأنها تكاد ترادف القول بأنمصر احتلت المركز الأول طالما لم يكن ثمة منتج غيرها !

فالواقع أن انتاج مصر كان يمثل أقصى إمكانيتها المعروفة حينئذ ، بينما كان انتاج العراق الهزيل لاعلاقة له مطلقا برصيده الهائل لأن كل تاريخ انتاج العراق كمنتج داخلى الموقع يتوقف على عامل خارجى هو النقل . فمنذ ظهور البترول فى ١٩٢٧ وحتىإنشاء الانبوب الناقل فى ١٩٢٤ لم يكن الانتاج التجارى ممكنا ، فلما أنشىء الأنبوب تغير الموقف تماما .

العراق

فمنذ ١٩٣٤ وصل الانتاج العراقى إلى علامة المليون وهى علامة لم يصلها الانتاج المصرى إلا فى ١٩٤١ . ومنذ ذلك الحين احتلت العراق المركز الأول حتى ١٩٥٦! ، وقفز الانتاج فيها فى ١٩٣٥ إلى نحو ٤ مليون وأصبحت الثامنة فى العالم ولكنه لم يلبث أن جمد على هذا المعدل حتى بداية الحرب . فلقد أصبحت طاقة الانتاج أسيرة لطاقة الأنبوب الثابتة . وقد كان الأنبوب على وشك أن يضاعف — ومعه الانتاج قبل الحرب ولكنه طبعا توقف . ولقد كانت الحرب فترة انقطاع فى الانتاج العربى سواء فى الدول القديمة أو الجديدة ، وذلك باستثناء مصر التى ظل يتزايد فيها ببطئه التقليدى والسبب فى شذوذ مصر أنها منتج مستهلك ، لامنتج مصدر كبقية الوحدات . فضوابط الانتاج فى مصر هى الرصيد المتاح ولكنها النقل أو السوق الخارجية فى الوحدات الغنية بالبترول . فى الدول القديمة تناقص

الانتاج كثيرا كما فى العراق . ففى أول الحرب لم يتأثر الانتاج ولكن مع دخول إيطاليا الحرب فى ١٩٤٠ وبدء خطر الملاحة فى البحر المتوسط ، ثم مع سقوط سوريا ولبنان فى أيدى الألمان وتوقف الأنبوب الشمالى ، ثم مع ثورة الكيلانى فى ١٩٤١ وتوقف الانتاج فترة فى كركوك — مع هذه العوامل بدأ الانتاج ينكمش بحيث هبط من معدله ٤ مليون طن إلى نحو المعدل المصرى تقريبا فى منتصف الحرب(١). هذا عن الدول القديمة . أما فى الدول الجديدة فقد أقفلت أغلب الآبار المكتشفة ولم يستأنف الانتاج — الذى لم يكن قد كاد أن يبدأ — إلا بعد الحرب . وقد يبدو هذا غريبا فى وقت تضاعفت فيه الحاجة إلى البترول ولكن السبب هو انصراف الخبرة ورأس المال إلى المجهود الحربى .

وكان انتهاء الحرب إيذانا بتفوق الدول الجديدة على القديمة . فانتزعت السعودية الصدارة من العراق فى ١٩٤٦ حيث كان إنتاجها نحو ضعف العراق التى عادت مرة أخرى محكومة بطاقة الأنبوب حتى ١٩٥٠ بل إنها تناقصت فى ١٩٤٨ بنحو الربع بسبب توقف حركة الأنبوب الجنوبى مع قيام إسرائيل . ولكن عوض هذا ازدواج الأنبوب الشمالى مما ظهر أثره فى ١٩٥١ حين أصبح انتاج العراق ٨٫٥ مليون طن أى ضعف معدله التقليدى . كذلك كانت السنة التالية ١٩٥٢ علامة جديده فى طريق الانتاج فقد تم إنشاء أنبوب ضخم جديد فبلغ الانتاج ١٨٫٥ مليون طن . ومرة أخرى كانت السنة التالية ١٩٥٣ علامة انفجارية ، فقد بلغ الانتاج ٢٧٫٥ مليون واستمر فى ارتفاع مطرد عاكسا فى ذلك زيادة فى طاقة

---

(١) لونجريج ص ١١٧ — ١١٨ .

الأنبوب الجديد ، إلى جانب الاستفادة من طارئ جديد جاء فى صالح لا العراق وحده ولكن كل الدول العربية وهو توقف انتاج إيران بعد أزمة التأميم . ولكن للمرة الثانية فى عقد واحد (منذ ١٩٤٨) يتعرض الانتاج فى العراق للانقطاع وذلك بتدمير الأنابيب فى ١٩٥٦ أثناء العدوان الثلاثى على مصر . ولهذا هبط الانتاج من ١ر٣٣ مليون طن فى ١٩٥٥ الى ٨ر٣٠ فى ١٩٥٦ الى ٥ر٢١ مليون طن فى ١٩٥٧ . ولكن عاد بعد ذلك إلى معدله السابق وزاد عليه. وكانت هذه الزيادة تعكس هذه المرة أثر اكتشاف آبار جديدة هامة فى الجنوب . وفى ١٩٥٩ كان الانتاج العراقى قد تعدى علامة الأربعين مليونا (١ر٤٢) وهذا يعادل عشرة أمثال معدله من عشر سنوات بالضبط أى فى ١٩٤٩ حين كان ١ر٤ مليون. اما فى ١٩٦٠ فقد قفز الانتاج الى ٥ر٤٧ مليون طن وفى ١٩٦٢ بلغ ٤٩ مليون طن.

هذه الحقائق تلخص كل تاريخ البترول فى العراق وتفسر لماذا ينفرد بوضع خاص بين الدول العربية . فهو امتاز بفترة طويلة جدا من الانتاج الضئيل أو بالأحرى من تفريط الانتاج under-production ، ثم بفترة انفجارية قصيرة للغاية فى الخمسينيات . ويكفى أن نذكر أن الانتاج فى ربع القرن ٢٧-١٩٥٢ يعادل انتاج الأربع سنوات التالية. وفى كلا المرحلتين يمتاز انتاج العراق بالتعرض للذبذبات الطارئة والانقطاع - أساسا بسبب الموقع الداخلى الذى يتركه تحت رحمة الأنابيب التى تخضع بدورها للعوامل السياسية الخارجية . وسيلاحظ فى كل هذا التاريخ أن العراق لم يحتل مكان الصدارة فى الانتاج العربى إلا فترة قصيرة نسبيا من ١٩٣٤ إلى ١٩٤٥ أى ١٢ سنة ، والسبب أن انفجار الدول الجديدة كان قد بدأ .

السعودية

فمنذ ١٩٣٩ كان انتاج السعودية قد بدأ متواضعا ولكن سرعان ما أصبح ضعف العراق فى ١٩٤٦ حين بلغ (٨ مليون) ضعف معدل العراق التقليدى حينئذ . وانتزع منها الصدارة ،واستمر الفرق بينهما بعد ذلك يتسع باطراد لمصلحة السعودية التى تعدت علامة العشرين مليون طن بعد عقد واحد من بدء الانتاج ، وكانت أول دولة عربية تضرب الرقم القياسى لإيران (وهو ٣١٫٧ مليون فى ١٩٥٠) حين حققت ٣٦٫٩ فى ١٩٥١ . كما كانت أول دولة عربية تتعدى علامة الـ ٤٠ مليون فى ١٩٥٢ (٤١) وذلك بفضل أزمة إيران وهو معدل لم يصله العراق إلا فى ١٩٥٩ حين كانت السعودية قد تعدت علامة الـ ٥٠ مليون طن (٥٢٫٨) محققة بذلك لأول مرة فى العالم العربى مليون برميل يوميا . وقد بلغ الإنتاج ٦٢٫١ مليون طن فى ١٩٦٠ ، وسجل ٧٥ مليونا فى ١٩٦٢ .

الكويت

على أن فترة أولوية السعودية كانت أقصر عمرا من أولوية العراق إذ لم تدم إلا سبع سنوات . ففى ١٩٥٣ وبعد ٧ سنوات فقط من بدء الإنتاج كانت الكويت قد قفزت إلى صدارة العالم العربى فى البترول محققة الطفرة المذهلة ٤٢٫٦ مليون طن ، وبعد سنتين تعدت الـ ٥٠ مليون (٥٣٫٩) فى ١٩٥٥ ، وكانت بذلك أول دولة عربية تحقق هذا الهدف . وسيلاحظ أن طفرة الكويت هذه تتعاصر مع قفزة كل من السعودية والعراق حوالى

١٩٥٢ومابعدها ، كنتيجة للفراغ الذى أحدثه توقف إنتاج إيران بعد التأميم.
ولقد كان الكويت أول بلد عربى يسجل الرقم القياسى ٧٠ مليونا فى ١٩٥٨
(٦٩٫١) أى أكثر من السعودية (٤٩٫٣) فى نفس السنة بنحو ٢٠ مليون
طنا ، وفى ١٩٥٩ كان الإنتاج يعادل ١٠ أمثال الإنتاج منذ عشر سنوات
أى فى ١٩٤٦ أو يعادل ٣٠ مرة الانتاج فى أولى سنيه ١٩٤٧ . وفى ١٩٦٠
كان الانتاج ٨٢ مليون طن أى بواقع ١٫٥ مليون برميل يوميا ، أو أقل
قليلا من ضعف العراق . وفى ١٩٦٢ أخرجت الكويت ٩١ مليون طن من
أكثر من بئر ٤٠٠ منتجة وأصبحت بذلك على عتبة المائة مليون . وهذا
يعادل ٣٣٫٦ ٪ من إنتاج العرب : إن الكويت ثلث العرب بتروليا .
ومن المؤكد الآن أن الانتاج الحالى يمكن أن يزاد بنسبة ٥٠ ٪ أو
١٠٠ ٪ فى أقصر فترة إذا ما طلب السوق ذلك . كما أن معدلات الإنتاج
النهائية يمكن أن تتعدى كل هذه النسب بمراحل .

المنتجون الصغار

وإذا تركنا هذا السباق بين الثلاثة الكبار فى العالم العربى ، وجدنا أن
مصر ، أقدم المنتجين ، بعد أن فقدت انفرادها - أكثر منه تفردها —
للعراق ، لم تلبث أن تفوقت عليها البحرين عدة سنوات قبل الحرب الثانية .
ولكن توقف الإنتاج فى الأقطار الجديدة واستمراره فى القديمة أثناء الحرب
أعاد إلى مصر تفوقها الضئيل الذى احتفظت به على البحرين بعد ذلك حتى
الآن . وفى ١٩٥٢ كان ترتيب مصر السابعة عشر بين منتجى العالم . ويستثنى
من تفوق مصر على البحرين عام ١٩٥٦ حين انخفض انتاج مصر بسبب
العدوان الثلاثى وتوقف حقول سيناء . وفى ١٩٥٨ تعدى الإنتاج المصرى

لأول مرة علامة ٣ مليون و بلغ في ١٩٦٠ ٣ر٣ مقابل ٣ر٢ للبحرين. وللدلالة على نمو الانتاج المصرى المطرد نرى أن الانتاج التراكمى فى بضعة السنوات الأخيرة يرجح الانتاج التراكمى لعقود برمتها قبله . فمثلا تنفرد السنوات الثمان من ١٩٥٢ - ١٩٦٠ بنحو ٧٥ ٪ من الانتاج التراكى فى الاثنتين والأربعين سنة من ١٩١٠ - ١٩٥٢ وفى ٦٢ — ١٩٦٣ تخطى الانتاج المصرى لأول مرة علامة الملايين الخمسة حيث سجل ٤ر٥ مليون طن (٦ مليون متر). والهدف المأمول فى ١٩٧٠ يتطلع إلى إنتاج قدره ٥ر١٠ مليون متر .

هذا إذن تطور مصر الذى وضعها أمام البحرين ، بينما لا ينتظر للبحرين أن يزداد انتاجها أكثر بعد الآن . على أنه منذ ظهرت قطر فى ميدان الانتاج فى ١٩٤٩ وهى تتقدم بخطى سريعة نسبيا حتى تعادلت مع مصر فى ١٩٥١ وتخطتها بعد ذلك كثيرا حتى بلغت فى ١٩٥٨ نحو ٨ مليون طن وحافظت على هذا المستوى بعد ذلك مسجلة ٨ر٨ مليون طن فى ١٩٦٢ . أى أنها الآن نحو ضعف مصر . على أنه ينتظر أن يزداد معدل مصر بينما لا ينتظر ذلك لقطر . وقد كانت المنطقة المحايدة هى آخر منتج يظهر فى المشرق العربى (١٩٥٥) ولكنه لم يلبث أن تتفوق على كل من مصر والبحرين حيث وصل إلى ٥ر٩ فى ١٩٥٩ ، ٧ر٣ فى ١٩٦٠ ، وقفز إلى ١٢ مليون طن فى ١٩٦٣ . أى أنه الآن أكثر من ضعف مصر ، وينتظر له نمو مطرد كبير .

ولكن لم يلبث أن دخل المغرب العربى ميدان الانتاج ، واكتسحت الجزائر بدورها كل المنتجين الصغار فى المشرق . فبدأت فى ١٩٥١ بنحو ٣ر١ مليون طن ارتفعت فى ١٩٦٠ إلى ٥ر٨ ثم إلى ١٦ مليونا فى ١٩٦١ ،

وقدر أن تعطى ١٩٦٢ من ١٩ إلى ٢٣ مليونا (١)، وبالفعل حقق الانتاج نحواً من ٢٠ر٥ مليون طن . أى أنها بدأت من المنتجين الصغار ولم تلبث أن أصبحت من المنتجين المتوسطين بل الكبار ، واحتلت المرتبة الرابعة فى العالم العربى . وفى ١٩٦٣ بلغ الإنتاج اليومى ٤٩٠ر٠٠٠ برميلا أو حوالى ٢٥ر٥ مليون طن . والمقدر لعام ١٩٦٤ متوسط يومى يتراوح بين ٥٤٠ الفاً ، ٥٢٥ ألفاً من البراميل .

أما ليبيا فلم تبدأ الانتاج إلا فى ١٩٦١ حيث صدرت نحو نصف مليون طن فقط ، ارتفعت فى ١٩٦٢ إلى نحو ٩ مليونا فيما يقدر(١) . ثم ارتفع الإنتاج إلى ٩ مليون طن أى مثل قطر فى ١٩٦٢ . كذلك أعلن أخيراً أن إنتاج ١٩٦٣ قد وصل إلى ٢٣ مليون طن . أو بمتوسط إنتاج يومى قدره نحو ٤٥٢ ألف برميل . وبهذا قفزت ليبيا إلى مرتبة المنتجين الكبار مرة واحدة ، وهى طفرة لم تسجل دولة عربية مثلها فى السرعة إلا الكويت . فإن هذا الرقم ٢٣ مليونا لم يحققه العراق إلا بعد أكثر من ربع قرن من الانتاج ، وحتى السعودية لم تحققه إلا فى أكثر من عقد .

وعند هذا الحد سنلاحظ ظاهرة غريبة ، وهى أن ليبيا تقترب جداً من مستوى الجزائر فى ١٩٦٣ ، بينما يقدر لها أنها ستتفوق بالقطع فى ١٩٦٤ . فمتوسط الإنتاج اليومى المقدر لها بالبرميل فى هذا العام هو ٦٦٠ ألفاً (مقابل ٥٤٠ ألفاً للجزائر) . إن ليبيا أحدث كثيراً فى بدء الإنتاج من الجزائر ، ورصيدها لا يزيد على رصيد الجزائر ، ولكنها تنطلق لتتفوق عليها . فلماذا؟

---

(١) Clarke "Oil in Libya...", P. 45.

هى مرة أخرى قصة الفرق بين الوحدات السياسية « الآمنة » والخطرة من وجهة نظر الشركات ودولها . فالجزائر بوعيها الثورى وتحررها الإقتصادى تعاقب من الشركات بتحديد الإنتاج ، بينما يدفع هذا دفعاً فى ليبيا السلسلة المضمونة ، والجزائر تضارب بهذا بليبيا . إن الجزائر فى هذا المعنى كما هى فى معانى أخرى سنراها فيما بعدهى « عراق المغرب » ، بينما أن ليبيا هى بكل جدارة « سعوديته » . .

وإذا استمرت هذه الاتجاهات الانقلابية فسيكون من الضرورى أن نعيد النظر فى تقديرنا لأوزان المنتجين فى المشرق والغرب . فقـــد خرج منتجاً المغرب من قبل من طبقة صغار المنتجين إلى طبقة الكبار ، ولما يشبا عن الطوق زمنياً . كذلك كانت أبو ظبى آخر من طرق باب الانتاج فبدأت فى ١٩٦٢ بنحو مليون طن (٨ر٠ مليونا على التحديد) . ويبدو من هذا جميعاً أن ترتيب أولويات الانتاج بين المنتجين الكبار أقرب إلى الاستقرار والثبات بينما يشهد المنتجون الصغار سباقاً مليئاً بالمفاجآت الأولوية فيه أبعد شىء عن الثبات . هذا ويظل المغرب العربى كله تذييلا متواضعاً للانتاج فى المشرق العربى فهو لم يعد ٦ — ٧ ٪ عن مجموع إنتاج المغرب فى ١٩٦٠ ، ارتفع إلى نحو ٨ر١٠ ٪ فى ١٩٦٢ (٦ر٢٩ مليونا مقابل ٧ر٢٤٢) .

أما عن نسب الانتاج للدول العربية فى الإطار العالمى فهى فى تطور بعضه طفيف وبعضه ملموس . ففى ١٩٥٨ كانت النسب كالآتى (١) : الكويت ٧٦ر٧ ٪ أى الرابعة بعد أمريكا وفنزويلا فالروسيا ، السعودية ٦٤ر٥ ٪ الخامسة فى العالم ، العراق ٠٥ر٤ ٪ أى السابعة بعد إيران ، قطر ٩٧ر٠ ٪ ، مصر ٣٣ر٠ ٪ ، البحرين ٢٣ر٠ ٪ ، المحايدة ٤٥ر٠ ٪ . أما فى ١٩٦٣ فقد

أصبحت النسب كالآتى : الكويت ٦ر٧ ٪ ، السعودية ٣ر٦ ٪ ، العراق ار٤ ٪ ، الجزائر ٨ر١ ٪ ، المحايدة ٠ر١ ٪ ، قطر ٨ر٠ ٪ ، ليبيا ٧ر٠ ٪ مصر ٤ر٠ ٪ ، البحرين ٢ر٠ ٪ ، أبو ظبي ١ر٠ ٪ .

ويمكننا الآن نلخص المواقف النسبية للانتاج فى الوحدات العربية بالتصنيف الآتى مقارنا أرقام ١٩٦٠ ، ١٩٦٢ .

دول الانتاج الكبير (+ ٤٠ مليون طن) :

الكويت	٨٢ر٩	٩١ر٠
السعودية	٦٢ر١	٧٥ر٠
العراق	٤٧ر٥	٤٨ر٢

دول الانتاج الصغير — المتوسط (+ ١٠ مليون طن) :

الجزائر	١٦	٢٠ر٥
قطر	٨ر٢	٩ر٣
المحايدة	٧ر٣	١٢ر٠
ليبيا	—	٩ر٠

دول الانتاج الصغير (— ١٠ مليون طن) :

مصر	٣ر٣	٥ر٤
البحرين	٢ر٣	٢ر٢
أبو ظبي	—	٠ر٨

(١) مجلة بترول الشرق الأوسط نوفمبر ديسمبر ١٩٥٩ — ص ٧

ومن الطريف فى التطور التاريخى للبترول فى المشرق العربى أن تاريخه وعمره يكاد يتناسب تناسبا عكسيا مع كميته وانتاجه . فباستثناء البحرين وقطر نجد الترتيب التاريخى كالآتى : مصر ثم العراق ثم السعوديه فالكويت . وهذا ايضا هو الترتيب التصاعدى لكمية الانتاج اليوم . وفى الخليج نجد أن البحرين هى أقدم المنتجين وهى أقل المنتجين . وإذا كان حجم الانتاج يتناسب بصورة عامة تناسبا عكسيا مع تاريخه ، فإنه على العكس يتناسب طرديا مع الرصيد . فالعلاقة بين حجم الرصيد وحجم الانتاج وثيقة وملفته للنظر بحيث إذا رتبنا كلا من تقديرات الاحتياطى وأرقام الانتاج فى أى من السنوات الأخيرة فى المشرق العربى ترتيبا تنازليا فإنهما يتواكبان جملة وتفصيلا :

١٩٥٨

	الرصيد بمليون طن	الانتاج بمليون طن	الانتاج بمليون برميل[1]
الكويت	٨٥٧١	٦٩٫١	٥٠٩٫٣٨٣٫٠٠٠
السعودية	٦٢٢٩	٤٩٫٣	٣٧٠٫٤٨٦٫٠٠٠
العراق	٣٥٧١	٣٥٫١	٢٦٦٫١٠٢٫٠٠٠
قطر	٢٥٠	٨٫١	٦٣٫٦١٠٫٠٠٠
مصر	٣٩	٣٫١	٢١٫٩٩٨٫٠٠٠
البحرين	٢٩	٢٫٠	١٤٫٨٧٣٫٠٠٠

١٩٦٠

	الرصيد بمليون طن	الانتاج بمليون طن
الكويت	٧٩٦٦	٨١٫٦
السعودية	٥٢٠٩	٦٢٫١

(١) مجلة بترول الشرق الأوسط . نوفمبر — ديسمبر ١٩٥٩ . ص ١٠ .

العراق	٢٣٥٢	٤٧ر٥
قطر	٣٢٤	٨ر٢
مصر	١٠٦	٣ر٣
البحرين	٣٠	٢ر٣

١٩٦٢ [(١)]

	الرصيد بمليون برميل	الانتاج بمليون برميل
الكويت	٦٧ر٠٠٠	٦٦٩
السعودية	٥٧ر ٠٠	٥٥٥
العراق	٢٤ر٠٠٠	٣٦٦
المحايدة	٧ر٠٠٠	٨٩
قطر	٣ر٠٠٠	٦٨
مصر	٠ر٥٦٤	٣٢
البحرين	٠ر٢٤٠	١٦

مستقبل الإنتاج

هل ثمة خطر على مستقبل إنتاج البترول فى العالم العربى ؟ هل يمكن أن يفقد البترول قيمته كوقود وقوة حتى قبل أن يفقد رصيده كاحتياطى ؟ تلك قضايا حرجة أثيرت دون أن تحسم تماما وهى لا تخص بترول العرب وحده ولهذا نناقشها بايجاز من زاويتين : مستقبل السوق ، ومستقبل البترول .

يمر الإنتاج العالمى بمرحلة إفراط يشارك فيها الإنتاج العربى بوضوح ،

---

(١) World Oil, August, 1963, P. 65.

بينما وصلت السوق العالمية إلى درجة التشبع . والأسباب الرئيسية وراء هذا هى طفرة الإنتاج فى الشرق الأوسط ، وظهور منتجين جـــدد فى المغرب العربى ، ثم دخول مصدرين جدد أهمها الاتحاد السوفييتى فى السوق العـالمية عامة والأوربية خاصة . والغريب أن هذا الوضع أدى إلى مزيد من الإنتاج فى الشرق الأوسط . فمع زيادة العرض عن الطلب ، انخفض السعر وقلت بذلك عائدات الدول المنتجة ، فتعويضا لها زيد الإنتاج بما يحفظ عليها معدل دخلها ! ومع هذا فمن المرجح ألا يدوم هذا الوضع الشاذ طويلا ، ومن المحتمل أن الاستهلاك العالمى سوف يزداد قريباً بمعدل أسرع من الإنتاج .

فأولا طاقة أوربا الاستهلاكية لم تستنفد بعد والتوسع الصناعى فيها لا يزال مطرداً وفى نفس الوقت لازال البترول فيها يزيغ الفحم كوقود الطاقة . وقدقدر أن استهلاك أوربا السنوى سيرتفع من حوالى ١٥٠ مليون طن فى ١٩٦٠ إلى ٣٤٠ مليوناً فى ١٩٧٥ ، كما يقدر أن يتضاعف استهلاك العالم فى نفس التاريخ فيرتفع من بليون إلى بليونى طن . كذلك لا تزال نسبة اعتماد أوربا على الشرق الأوسط فى ازدياد . هناك الولايات المتحدة بعد هذا . رصيدها فى تناقص مستمر وإنتاجها كذلك ، بينما من ناحية أخرى استهلاكها فى ارتفاع وتتحول بتزايد إلى دولة مستوردة . وهناك أخيراً الضلع الثالث فى المثلث وهو العالم الثالث Le Tiers Monde : الدول المتخلفة والنامية فى أفريقاسيا ، بما فيها العالم العربى نفسه ، والتى تقف على عتبة التنمية والتصنيع . وهى حتى الآن مستهلكة لا وزن لها تقريبا ، ولكن هذا سيتغير على وجه اليقين بأسرع مما قد يتصور .

لكل هذا يتنبأ البعض بأن لا خطر على السوق من الإنكماش ولا على الإنتاج من الإنتكاس ، بينما يحدس البعض الآخر أن صيحات التحذير من مستقبل السوق قد لا تكون إلا مناورات للشركات تساوم بها الدول

المنتجة . والأرجح أن أرقام الإنتاج فى العالم العربى ستظل فى ارتفاع وسترتفع نسبة مساهمة المنطقة باطراد من الإنتاج العالمى . وينتظر بعد فترة قصيرة أن يصبح العالم العربى أول منتج فى العالم بدل الولايات المتحدة .

لكن قضية مستقبل البترول نفسه أخطر من قضية سوقه ، والإشارة هنا هى بطبيعة الحال إلى الطاقة الذرية . فقد ساد الإعتقاد لفترة أن الذرة ستزيغ البترول كمصدر جوهرى للطاقة فى الصناعة والمواصلات والإنتاج.. ألخ . ومن المؤكد أن الذرة ستدخل المجال السلمى إن آجلا أو عاجلا ، ومع ذلك فقد انتهى الإعتقاد أخيراً إلى أن ذلك إنما سيحدث آجلا — بعد عقدين ربما حين يصبح ترويضها اقتصادياً . وحينئذ لن يكون ذلك إلا على نطاق محدود وبنسبة ضئيلة من جملة مصادر الطاقة فى العالم . وبعدها لن تزيغ البترول كما أن البترول والكهرباء لم تزغ الفحم من قبل . لا ولن تكون الذرة بديلا مطلقا لكل استعمالات البترول . وعلى هذا فإن البترول لا زال «ملكا» ، ولا ينتظر أن يفقد عرشه فى المدى القريب على الأقل . ومع هذا كله فلا يمكن تماماً تجاهل احتمالات المستقبل سواء من جانب السوق أو منافسى البترول . وإذا كان للبلاد المنتجة ألا تسرف فى التشاؤم فعليها أيضاً ألا تسرف فى التفاؤل [١] .

الإنتاج والرصيد

الانتاج للتراكمى

الجدول الآتى يوضح مجموع الانتاج فى كل وحدة منذ بدأ حتى نهاية ١٩٦٠ بملايين الأطنان .

---

(١) راجع فى هذا كله : محمد لبيب شقير . التنظيم الاحتكارى للسوق العالمية للبترول . القاهره ١٩٦١ . ص ٣٩ — ٣٤ .

	الكويت	السعودية	العراق	قطر	مصر	البحرين	المحايدة
كمية الانتاج	٥٧٦ر٧	٥٧٥ر٢	٣٧٠ر٦	٥٧ر٧	٤٩ر٣	٣٣ر٢	٢٤ر٥
عمر الإنتاج بالسنة	١٥	٢٢	٣٤	١٢	٥٠	٢٧	٧
المتوسط السنوى	٣٨ر٥	٢٦	١١	٥	١	١ر٣	٣ر٥

ومن الواضح أن مجموع ماالستخرج حتى الآن من كل من الكويت والسعودية يكاد يتساوى تماما برغم أن السعودية أقدم انتاجاً . وهما البلدان الوحيدان فى العالم العربى اللذان تعديا علامة ال ٥٠٠ مليون طن . ولقد كانت السعودية أول من قارب علامة ال ٤٠٠ مليون طن فى نهاية ١٩٥٧ ، أى كانت أول قطر عربى أتم انتاج البليون الثالث من البراميل منذ بدء الانتاج، وكانت بهذا خامس دولة فى العالم تضرب هذا الرقم القياسى بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وفنزويلا وإيران . وفى آخر ١٩٥٨ كانت الكويت قد ضربت هذا الرقم أيضا حيث كان مجموع انتاجها التراكمى حتى أوائل ١٩٥٩ هو ٣ر١٤٩ بليون برميل . بينما كان انتاج السعودية قد ارتفع إلى ٣ر٤٠٠ر٠٠٠(١) أى ظلت متفوقة . ولكن تفوق الانتاج السنوى للكويت ساواها أخيرا بالسعودية من حيث التراكمى . أما العراق فيقترب الآن من هذا الهدف .

أما صغار المنتجين فلا يقارنون مطلقا بالثلاثة الكبار . فكل ما أنتجته قطر فى تاريخها البترولى لا يعادل ما تنتجه السعودية اليوم فى السنة الواحدة إلا بالكاد ، بينما لا يزيد انتاج مصر فى نصف قرن كامل عن إنتاج العراق الحالى فى سنة واحدة ! - حتى منتصف ١٩٦٣ بلغ

---

(١) مجلة بترول الشرق الأوسط ، نوفبر ديسمبر ١٩٥٩ ص ٢٧ .

انتاج مصر التراكمى ٦٤ مليون متر مكعب . وإذا أضفنا إنتاج مصر والبحرين التراكمى وجدناه يعادل انتاج الكويت السنوى حاليا... وإذا كانت الكويت تحتل الصدارة من حيث متوسط الانتاج السنوى طوال فترة تاريخها البترولى، فإن مصر تأتى فى المؤخرة : ففى ٥٠ سنة لم تنتج إلا ٥٠ مليون طن أى بواقع مليون طن كل سنة ! وليست البحرين أفضل منها فى هذا الصدد كثيراً .

أما عن العالم العربى ككل، فحتى نهاية ١٩٥٥ كان مجموع ما استخرج من من باطنه هو ٨٠٨ مليون طن . فإذا ذكرنا أن مجموع الانتاج التراكمى حتى نهايه ١٩٦٠ كان ١٦٨٨ عرفنا أن الخمس سنوات الأخيرة تعادل وحدها كل ماسبقها من سنى الانتاج فى المنطقة برمتها . وإذا ما أضفنا الانتاج القليل حتى الآن للمغرب العربى أمكن أن نقول إن نحو ١٧٠٠ مليون طنا من البترول قد استخرج حتى ذلك اليوم من العالم العربى. وحتى أول ١٩٥٩ كانت القيم النسبية للانتاج التراكمى كالآتى مقدرة بملايين البراميل .

		النسبة من إنتاج العالم العربى ٪
السعودية	٣٤٠٠	٣٥٫٧
الكويت	٣١٤٩	٣٣٫١
العراق	٢٠٦١	٢١٫٧
مصر	٢٨٠	٣٫٠
قطر	٣٢٨	٣٫٤
البحرين	٢١٣	٢٫٢
المحايدة	٧٨	٠٫٨
المجموع	٥٠٩	١٠٠٫٠[١]

(١) المرجع السابق .

ومن هذا ترى أن ٩٠ر٥ من مجموع انتاج العالم العربى التراكمى كان قدأتى من الثلاثة الكبار وحدهم . كذلك نرى أنه كان قد استخرج من العالم العربى كله نحو ١٠ بليون برميل . ولما كان مجموع ما قد استخرج من العالم كله طوال تاريخه البترولى حتى ذلك التاريخ هو ١٠٩٫٠٢٩ر٣٦٥ر٠٠٠ برميلا(١) ، فإن العالم العربى يكون قد ساهم بنحو ١٠٪ من مجموع انتاج العالم التراكمى .

نسبة الانتاج إلى الرصيد

الجدول الآتى يرسم صورة للإنتاج التراكمى فى العالم العربى أى منذ بدء الإنتاج فى كل وحدة من وحداته حتى نهاية ١٩٦٠ ، مقارنا بالرصيد المقدر فى ١٩٦٠ بالطن .

	عمر الإنتاج	الرصيد ١٩٦٠	الانتاج التراكمى حتى ١٩٦٠	الانتاج التراكمى ٪ من الرصيد
الكويت	١٥	٧٩٦٩	٥٧٦ر٧	١ر٦
السعودية	٢٢	٥٢٠٩	٥٧٥ر٢	١١ر٠
العراق	٣٤	٣،٥٢	٣٧٠ر٦	١١ر٠
قطر	١٢	٣٢٤	٥٧ر٧	١٧ر٠
المحايدة	٧	٩٣٠ (١٩٥٩)	٢٤ر٥	٢ر٦
مصر	٥٠	١٠٦	٤٩ر٣	٤٦ر٠
البحرين	٢٧	٣٠	٣٣ر٧	١١٠ر٠
المجموع	—	١٧ر٩٢٠	١٦٨٨ر٠	٩ر٤

(١) المرجع السابق ص ٨

وسنرى من هذا أن نسبة ما استخرج حتى الآن من رصيد البلاد العربية ، كما هو مقدر فى ١٩٦٠ ، تختلف من بلد إلى بلد اختلافا كبيرا . فرصيد المحايدة لم يكد يمس لحداثة الانتاج وتواضعه . وكذلك لم يؤخذ من الكويت ، على ضخامة ما أخذ منها ، إلا ٦٪ من رصيدها وذلك لعظمه الشديد . وبينما استخرج من السعودية قدر ما استخرج من الكويت ، إلا أنه يمثل نحو ضعف نسبة الاستنزاف إذا قورن بالكويت. ومعدل الاستنزاف فى العراق لا يختلف عنه كثيراً فى السعودية . وكلما زادت النسبة المئوية فى النهر الأخير كلما دل ذلك على سوء موقف الرصيد بالنسبة للإنتاج مهما تضاءل هذا الأخير . ففى مصر يكاد يبلغ ما استخرج حتى الآن نصف ماتبقى حالياً من رصيد . بل إن آخر الأرقام تعد أقل تفاؤلا : ففى منتصف ١٩٦٣ كان الإنتاج التراكمى ٦٤ مليون متر ٣ ، بينما قدر الاحتياطى المتبقى بنحو ٩٠ مليوناً فقط. أما البحرين فهى الوحيدة التى استخرج منها أكثر مما تبقى لها. وذلك رغم ضآلة ما استخرج فعلا . والعالم العربى فى مجموعه لم يستنزف من باطنه أكثر من $\frac{1}{10}$ ما هو كامن به الآن .

السؤال يصبح الآن : ما هو العمر المنتظر إذن لبترول العرب ؟ إذا افترضنا ثبات معدل الانتاج السنوى الحالى — وهو فرض خاطىء لأن الانتاج فى ازدياد مستمر — يمكن أن نرسم صورة تقريبية للمستقبل .

	الرصيد المقدر ١٩٦٠	الانتاج السنوى ١٩٦٠	العمر المنتظر بالتقريب
الكويت	٧٩٦٩	٨١٫٩	٩٧
السعودية	٥٣٠٩	٦٢٫١	٨٤
العراق	٣٣٥٣	٤٧٫٥	٧١
قطر	٣٢٤	٨٫٢	٤٠
مصر(١)	١٠٦	٣٫٣	٣٢
البحرين	٣٠	٢٫٣	١٣
المحايدة	٩٣٠	٧٫٣	١٢٧
الجزائر	٣٧٨	٨٫٥	٤٧
المجموع	١٨٢٩٨	٢٢١٫١	٨٠

واضح أن مستقبل البترول فى أحسن حالاته لا يزيد عن جيلين أو ثلاثة والبحرين هى أسوأ الجميع حظاً ، فالجيل الحالى سيرى نهاية تاريخها البترولى . ولما كانت معدلات الانتاج ستستمر فى الزيادة ، فمن المؤكد أن هذه التقديرات ستنكمش مالم ترتفع تقديرات الرصيد . وعلى العموم فالصورة فى العالم العربى خير منها كثيرا فى مناطق الانتاج الأخرى لاسيما فى العالم الجديد سواء فى فنزويلا أو الولايات المتحدة حيث يقدر أن أمل الحياة للبترول فى الأخيرة لا يزيد عن عقد أو عقدين . فمعدل الاستخراج السنوى فى العالم العربى نحو ١٪ من الرصيد مقابل ١٠٪ فى الولايات المتحدة(٢) ومع ذلك فكل زيادة فى معدل الانتاج السنوى فى منطقتنا تقصر عمر البترول

---

(١) فى ١٩٦٣ جاءت الأرقام على الترتيب ٩٠، ٦ مليون مترا مكعبا، بعمر منتظر قدره ١٥ عاما فقط.

(2) Birot & Dresch, op. cit,, p. 345 ·

فيها وتدنيه من نهايته . وإذا أريد تأجيل هذه النهاية ، فلا مفر من تخطيط الانتاج وربما لزم فرض « نظام الحصص » الذى يضع « سقفا » للانتاج فى كل وحدة من وحدات المنطقة .

وهنا يرى البعض تعارضاً جذرياً بين مصالح الشعوب من ناحية والحكام والشركات من ناحية أخرى. فالجانب الأخير تجتمع مصالحه فى دفع الانتاج إلى درجة الاستنزاف : الحكام للحصول على أضخم عائدات لحظية ، والشركات لاستخراج أكبر قدر ممكن قبل أن تحدث تطورات غير منظورة . بينما مصلحة الشعوب هى تخطيط الانتاج الموقوت باعتبار الحاضر والمستقبل معا ، وباعتبار هذا الجيل والأجيال القادمة على السواء . ولهذا فإن الدول التى يضع الاستعمار العراقيل فى سبيل سرعة الإنتاج بها قد تكون أسعد حظا فى الحقيقة مما يبدو لأول وهلة .

الفصل الثالث

جغرافية الحقول

تتألف النواة البترولية للعالم القديم من عدة « أحواض بترولية » هي من الشمال حوض بحر قزوين ثم حوض القوقاز ، ثم حوض العراق الأعلى ثم حوض الخليج العربي . وكل حوض نقصد به هنا وحدة جيولوجية أو جغرافية كبرى تشمل عدة حقول بترولية بالمعنى المألوف . ويقتطع العالم العربي لنفسه من هذه النواة القطاع الأخطر ، فهو الشريك الأكبر في الحوضين الأخيرين اللذين إذا كانا أحدث عهداً من الحوضين السابقين فإنهما بلا شك مركز الثقل في المحور البترولي كله . ولعل أبرز معنى لهذا التوزيع هو أن نطاق البترول الرئيسي في العالم العربي يتركز بلا هوادة في القوس الشرقي من المشرق العربي .

وبعد هذا فهناك حوض بترولي صغير منعزل هو حوض خليج السويس يمثل همزة وصل — Stepping Stone — إلى أحواض المغرب العربي . ويتألف جناح البترول الغربي هذا من ٥ أحواض : حوض سيرت، طرابلس ، فزان، حاسي مسعود ، عين صلاح . ولكن يظل — وسيظل — المشرق العربي مركز الثقل البترولي في العالم العربي . وسيلاحظ أن العالم العربي بشقيه هو أغنى قطاع في أفريقيا وآسيا في البترول : فالمشرق العربي أغنى أجزاء آسيا بالبترول رصيداً وإنتاجاً ، أما المغرب العربي فيوشك أن يكون نطاق البترول الوحيد الهام في القارة الإفريقية . على أن هناك بعض آبار - نقط بحتة - تنتثر خارج هذه الأحواض الكبرى كما في فلسطين المحتلة وكذلك في ثنايا وتضاعيف أو أطراف إلتواء الأطلس .

ويمكن على المستوى الإقليمى العريض أن نميز بين الجناح الشرقى والغربى من العالم العربى ، يضاف إليهما وبينهما حلقة وسطى متواضعة تشمل دائرة مصر وفلسطين ويدخل فيها الحقول التى أعلن عن كشفها أخيراً جداً فى شمال غرب الحجاز (١) . وإذا كانت هذه الحلقة هى قلب أحواض العالم العربى جغرافيا وموقعا ، فهى فى الحقيقة « قلب ميت » جيولوجيا وبتروليا . والواقع أن أحواض البترول العربية بتوزيعها . أحجامها تشبه الإعصار الضخم أو دوامة البحر التى ترتفع فيها أطرافها كالحوائط الشاهقة من يمين وشمال بينما عين الإعصار أو قلب الدوامة تمثل منطقة القاع أو هوة الحضيض .

الجناح الشرقى

حوض العراق الأعلى

فى خطوط عرض بغداد تبرز من الضلوع الغربية لجبال زاجروس سلسلة جبلية توازى محور النظام العام من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى . هذه السلسلة هى جبال پوشتى كوه . وهى إلتواء محدب طوله ٢٠٠ ميلا مرتفع شديد الانحدار فى وسطه ولكنه منخفض لطيف الانحدار عند طرفيه . وتتصل السلسلة فى وسطها بجبال زاجروس ولكنها تنفصل عنها عند طرفيها فى الشمال والجنوب تاركة بينها وبين زاجروس « خليجين » سهليين . Embayments يحتل كل منهما مجموعة من التلال المنخفضة . هناك فى تلك التلال حيث الانتقال من السهل إلى الجبال تدريجى نجد أن

---

(١) المصدر الأساسى لدراستنا لهذه الحقول هو لونجريج مبعثرا فى مئات الصفحات . ولهذا آثرنا غالبا عدم تحديد الصفحات فى الهوامش ، باستثناء المصادر الأخرى المكملة .

حركة الالتواء لم تكن عنيفة بل معقولة بدرجة تسمح بوجود الزيت ، وهنا نجد التكوينات القبابية التي تحوى الزيت . فنجد أن الجيب الشمالى هو حوض بترول العراق الأعلى ، بينما يتناظر معه فى الجيب الجنوبى حوض بترول خوزستان (أو عربستان) جنوب غرب إيران . ويبلغ اتساع خليج التلال فى الجيب العراقى نحو ٥٠ — ٨٠ ميلا بينما تتألف صخور البترول من الحجر الجيرى الإيوسينى والميوسينى . وهذه الصورة تشبه كثيرا ما فى الحوض الإيرانى إلا أن طبقات الحوض العراقى البترولية أكبر سمكا وتكويناته أقل تعقيداً (١) .

هذا إذن هو حوض بترول العراق الأعلى . نواته هى حقول كركوك وجسمه يقع فى العراق بين زاجروس والدجلة ، ولكن أطرافه تقع عبر الحدود السياسية فى إيران وتركيا وسوريا . وهذا هو الحوض الذى ظهر فيه البترول فى العراق لأول مرة . فكان يستخرج ويصفى بطرق بسيطة منذ القرن ١٩ فى مندلى ، طوز ، القيارة ، باباجرجر . وبدأ الألمان فى تنمية الإنتاج فى القيارة أثناء الحرب الأولى وفكروا فى مد أنابيب لنقله إلى البحر المتوسط . ولكن أول إنتاج حقيقى لم يبدأ إلا فى حقل كركوك النووى .

ويتألف حقل كركوك من محدب منفرد ضيق يمتد ٥٠ — ٦٠ ميلا يتعامد عليه وينصفه الزاب الأصغر — وهذا حجم هائل بالنسبة لقبة زيتية . وطبقاته من الحجر الجيرى الإيوسينى والميوسينى المسامى المنفذ الذى يمتاز

---

(1) Fisher'pp .224—5.

بكثرة الشقوق ، ولهذا وكما فى خوزستان (عربستان) يمتاز البترول فى داخل هذه القبة بالإتصال الحر بين أجزائه مما يسمح له بالحركة الباطنية حتى أن ٦ آبار فقط كانت كافية لتستدق كل هذا المحدب الطويل . ويتألف محدب كركوك من ثلاث قباب تفصل بينها انخفاضات بسيطة وتتدرج هذه القباب فى الإرتفاع من الجنوب إلى الشمال على الترتيب الآتى : بابا جرجر ، أفانا ، خور مالا Khurmala . ومنذ القدم منذ بختنصر كان الزيت والغاز يتسرب من قمة هذا المحدب فى قبة باباجرجر .

وقد كشف البترول أول ما كشف هنا فى باباجرجر فى ١٩٢٧ حيث تدفق بغزارة نادرة (١٥٠٠ طن فى اليوم) حتى تعذرت السيطرة عليه قبل مدة. ويعتبر حقل كركوك بجميع مميزاته مثالا نموذجياً حياً للتراكيب البترولية ، وقد عد فتحاً جديداً فى تاريخ البترول فى حينه . ولا يزال بابا جرجر يعد أغزر بئر بترولية فى العالم إذ ينتج يومياً ٦٠ ألف برميل . ولازال كركوك ينتج الجزء الأكبر من إنتاج العراق(١) . وفى ١٩٥٣ كان إنتاجه التراكمى قد وصل علامة المائة مليون طن ، وفى ١٩٥٨ وصل علامة الـ ٢٠٠ مليون ، وهو أمر نادر بين حقول العالم . وقبل نسف أنبوب كركوك فى ١٩٥٦ كان إنتاج الحقل قد وصل ٢٩ مليون طن سنوياً ، ولكنه انحدر كثيراً ولم يستعد هذا المعدل إلا فى ١٩٥٨ . وفى ١٩٥٩ ارتفع إلى ٢٨ ، ووضع هدف قدره ٣٥ لسنة ١٩٦٠ ، تحقق على كل حال فى ١٩٦٢ وهذا يعادل نحو ثلاثة أرباع إنتاج العراق أو حصيلة حقل الغوار السعودى . ولسنا بحاجة إلى أن نذكر أن كل زيادة فى إنتاجية كركوك متوقفة على ومرتبطة بزيادة فى قدرة الأنابيب الناقله . وقد بدأت أعراض انخفاض الضغط فى الحقل تظهر أخيراً

---

(١) عبد الرحمن الجليلى . اقتصاديات العراق . القاهرة ١٩٥٥ . ص ١٤٥ .

وبدأ حقنه بالغاز فى قبة أفانا (من بى حسن) وبالماء فى باباجرجر (من الزاب الأصغر)(١). ونوع البترول هنا ممتاز ولا تزيد نسبة الكبريت فيه عن ٢٪ . وحقل كركوك هو العمود الفقرى فى الإنتاج التجارى فى العراق.

ويقع قريباً جداً غرب حقل كركوك بينه وبين الزاب الأصغر حقل غاز عالى الضغط هو بى حسن، بدأ يعطى بترولا فى السنوات الأخيرة فقط ولكن بكميات متواضعة نسبياً لا للتصدير وإنما للاستهلاك المحلى . وقد بلغ محصول بى حسن فى ١٦٦٢ نحو ٢ر٢ مليون طن . وإلى الجنوب الشرقى من كركوك بمسافة ٣٥ ميلا عثر على حقل صغير فى جامبور بدأ الإنتاج للتصدير فى ١٩٥٩ بمعدل ٦ر٠ مليون طن ، ووصل فى ١٩٦٢ إلى ٨ر٠ مليون طن (٢) . ورصيده فى النهاية ضئيل يأتى من عمق ٥٧٠٠ قدما .

وعلى أطراف حوض العراق يقع حقل صغير فى الجنوب الشرقى هو حقل نفط خانه الذى يستمر امتداده عبر الحدود السياسية فى إيران تحت إسم حقل نفطى شاه ولكنهما فى الحقيقة توأمان — سياميان! — فى حقل واحد : واحد فى العراق العربى والثانى فى « العراق العجمى » . وكل منهما يخصص للاستهلاك المحلى فى بلده . وقد كان نفط خانة هو أول حقل ينتج تجارياً فى العراق ١٩٢٥ . والمحدب البترولى الذى يقوم عليه هو محدب جيرى كالهور . هذا وقرب الحدود الإيرانية شمال نفط خانة حقل صغير آخر هو Chia Surkh . وفى ١٩٦١ بلغ إنتاج نفط خانة نحو ٥ر١ مليون طن .

وعلى الجانب الآخر من الحوض وعبر دجلة تقع مجموعة من الحقول

---

(١) لونجريج . ص ١٦٧

(٢) الموارد الاقتصادية فى الوطن العربى . ص ٣٣٠ .

الصغيرة تشمل من الجنوب إلى الشمال القيارة ونجمة وجوان وقصب. وقد كانت هذه أول حقول تكشف بعد عناء غرب الدجلة ١٩٣٤ لكنها جاءت مخيبة للآمال، فالموارد هنا غزيرة لكن يعيبها نوع البترول الردىء، فهو من النوع الثقيل الغروى Viscous لدرجة يتعذر معها ضخه من الباطن، كما أن نسبة الكبريت فيه مرتفعة أكثر مما ينبغى فتصل إلى ٥—١٠٪. ولهذا فاستغلاله لا يمكن أن يكون اقتصادياً فى الظروف الفنية الحالية، ومن ثم أهملت هذه الحقول ولم تبدأ الاستفادة منها إلا أخيراً فى القيارة لا للتصدير ولكن لصناعة البيتومين (القار) (١).

وإذا أتممنا دورتنا حول الحوض وجدنا شماله حقلا هاما هو حقل عين زاله على الضفة الغربية للدجلة شمال مدينة الموصل. وقد كشف هذا الحقل حديثا فى ١٩٣٩ قبل الحرب بأيام، ولكن خطر الغزو منع استثماره حتى نهاية الحرب. وهو محدب من حجر الجير الكريتاسى عمق موارده ٥٠٠٠-٦٠٠٠ قدم. ونوع البترول فيه جيد مثل كركوك ولكن رصيده قليل لا يقارن مطلقا بكركوك ولا بحقول الشرق الأوسط المعروفة، ومتوسط الإنتاج السنوى وصل إلى المليون طن فقط. ومع هذا فتعد عين زالة أهم آبار غرب الدجلة. وعلى مسافة ٨ ميل إلى الجنوب يقع حقل صغير هو بطمة Butma كشف فى ١٩٥٢. وكان لا يزيد إنتاجه عن خمس عين زالة، ولا يزيد الآن عن ثلثه. بل إن ضغطه فى انخفاض، ولهذا لابد من حقنه بالغاز المستمد من عين زالة.

هذا وقد قدمت كل الحقول العراقية فى هذا الحوض منذ بدأت الإنتاج فى ١٩٢٧ نحو ٢٠٠ مليون طن حتى ١٩٥٧ أو نحو ٨٦٪ من كل إنتاج العراق التراكمى البالغ ٢٣٣٫٣ مليون طن (١). وكان قد وضع هدف الانتاج قدره

---

(١) لونجريج ص ٧٩.

(٢) جاسم الخلف، ص ٢٨٨

٤٨ مليون طن من حوض شمال العراق فى ١٩٦٢ ولـكن هذا لم يتحقق فذلك كان إنتاج العراق جميعا فى ذلك العام .

وتستمر أطراف حوض بترول العراق الأعلى عبر الحدود فنجد حقل قرة تشوك داغ فى أقصى شمال شرق سوريا غرب الدجلة مباشرة . ويتكون الحقل من حجر جيرى كريتاسى ويقع البترول على عمق ٦٥٠٠ قدم ولـكن النوع ثقيل غروى ترتفع فيه نسبة الـكبريت . وقدر الاحتياطى بنحو ١٥٠ مليون طن ، وضع هدف إنتاجى لها قدره ٢ مليون طن سنويا . وعلى بعد ١٥ كم من قرة تشوك كشف حقل صغير فى السويدية عمقه ٥٥٠٠ قدم - ٦٥٠٠ . والرصيد قليل ولـكنه تجارى . وسيلاحظ أن الحقلين يقعان فى محيط واحد هو اللسان الضيق الذى يسمى « لسان البط» Bec de Cānard . وحتى الآن تؤكد هذه الـكشوف فى شمال شرق سوريا ، رغم وفرة الرواسب فيه ووقوعه على الضلوع الغربية لحوض شمال العراق البترولى ، أن سوريا لا تقارن بتروليا بعمالقة الشرق الأوسط . وأخيرا وعبر الحدود العراقية والسوريه نجد امتداداً آخر للحوض فى تركيا يتمثل فى حقل رامان داغ وجارزان Garzan على الضفة الشرقية للدجلة وعلى مسافة من قرة تشوك لا تزيد كثيرا عن المسافة بين قرة تشوك وعين زالة .

حوض بترول الخليج العربى

يشمل هذا الحوض جانبى الخليج فى إيران وفى الجزيرة العربية . وهو فى مجموعه أعظم حوض بترولى فى العالم من حيث الاحتياطى . وهو يستمد وحدته فقط من الجغرافيا والموقع المركز حول الخليج ، ولـكنه جيولوجياً يتألف من جناحين ، الجناح الإيرانى وطبقاته الجيولوجية رسوبية حديثة

شديدة الإلتواء ، مضرسة مرتفعة ، وتعتبر نظيراً وتتمة لحوض العراق الأعلى . والجناح العربى : وهو يختلف تماماً عن الإيرانى والعراقى فى أن سطحه مستو منخفض ، وأن طبقاته أقدم بكثير ، تتراوح بين الجوراسى إلى الكريتاسى ، وأنه لا يتألف من صخور رسوبيه فقط بل ورملية مسطحة . وأخيراً فنظراً لوجود رصيف جنداونا الصلب أسفل طبقاته البترولية فإن هذه الطبقات لم تصب بالتواءات شديدة ، وتسودها المحدبات العريضة جداً المكشوفة ، وقد يمكن رؤية هذه التكاوين القبابية المحدبة بالعين على السطح كما فى قبة الدمام .

والجناح العربى هو مركز الثقل فى البترول فى العالم العربى بل فى العالم كله . وينفرد هذا الحوض بأنه أكثر أحواض البترول فى العالم العربى تمزيقاً وتقسيما سياسياً ، فتشترك فيه عدا إيران ٦ وحدات سياسية عربية . وبينما نجد حوض العراق الأعلى حوضاً داخلياً قارياً ، يمتاز حوض الخليج العربى بأنه ساحلى بحرى . وفى الجناح العربى بالذات نجد فيه ثلاثة أنواع من الحقول : حقول برية داخلية بحتة ، حقول بحرية بحتة ، وحقول أمفيبية تمتد فى اليابس والماء . ويمتاز هذا القطاع كذلك بوجود موارد المياه الارتوازية فى الطبقات المسامية التى تعلو طبقات البترول . ولما كان للماء هنا قيمته الحيوية الكبرى فإن كل جهد يبذل لمنع تلوث هذه الطبقات حين حفر آبار البترول . هذا وتتركز نواة الجناح العربى من هذا الحوض البترولى فى الكويت ـ الحسا أو فى حقل البرقان ـ الغوار ، ويمتد جسمه على شكل هلال أو قوس ، تصل أطرافه إلى جنوب العراق ، وإلى ساحل المعاهدات والبحرين .

العراق

فإذا بدأنا من الشمال وجدنا أن حقول جنوب العراق هي جغرافيا من هذا الحوض . ويلاحظ أن أكثر من ٥٠٠ كم تفصل بين حقول العراق الشمالية والجنوبية فكل منهما ينتمى بالقطع إلى حوض منفصل . وقد اتجهت الانظار إلى منطقة البصرة بعد كشوف البحرين والحسا الهامة منذ ١٩٣٢ ، حتى إذا ظهر حقل البرقان فى الكويت لم يكن هناك مجال للتردد . إلا أن الحرب قللت نشاط البحث الذى يزيد من صعوبته أن رواسب الطمى والرمل الحديثة السطحية مستوية تماما وتخفى كل تركيبات قبابية قد توجد . وفى ١٩٤٨ ظهر البترول فى الزبير على بعد ١٥ ميلا جنوب غرب البصرة من أعماق ١٠ – ١١ الف قدم ، وفى نهر عمر ٣٠ ميلا أعلى النهر من أعماق ٨ – ٦ الف قدم . ويعد بترول الزبير أعمق بترول وجد فى الشرق الأوسط حتى الآن . والزبير أغنى الحقلين . وكلاهما يتكون من محدبات مفلطحة من الحجر الرملى الكريتاسى التى تغطيها رواسب الطمى أو الرمل المستوية تماما . ورغم أن نهر عمر أعطى بترولا من أجود ماعرفه الشرق الأوسط نوعا إلا أنه جاء مخيبا للآمال كمية فأغلق .

وقد بدأ الانتاج فى الزبير فى ١٩٥١ وبلغ فى ١٩٥٢ $2\frac{1}{4}$ مليون طن وصلت إلى ٥ر٤ فى ١٩٥٤ وفى ١٩٥٤ كشف حقل جديد هام غرب الزبير بنحو ٢٠ ميلا هو الرميلة ولكنه عميق أيضا (٥–١٠ الف قدم) . وقد بدأ انتاجه فى ١٩٥٤ ولكنه لم يلبث أن تفوق على الزبير فى ١٩٤٧ (٩ر٤ مليون) . ولا شك أن رصيده أكبر من الزبير ، بل قدر أنه سيبلغ ٦ أضعافه أو أكثر فى منتصف الستينات. وفى الزبير اليوم ٣٨ بئرا منتجة مقابل ٣٠ بئرا فى الرميلة . وقد قفز الإنتاج هنا بسرعة فبلغ مجموع إنتاجهما فى ١٩٥٩ نحو ٣ر١٢ مليون طن أى أكثر

من ثلث إنتاج العراق . وقد وضع هدف للانتاج منهما قدره ٢٢ مليون طن فى ١٩٦١ . والواقع أن إمكانيات هذه المنطقة ضخمة وقد تتكشف عن رصيد زاخر . إلا أن إنتاج ١٩٦١ الفعلى لم يزد عن ٨٫٨ مليون طن ، ٥٫٥ منها من الرميلة ، ٣٫٣ من الزبير ، والكل يؤلف خمس الإنتاج العراقى .

ويلاحظ أن إضافة حقول البصرة إلى حقول العراق قد خلق نمطا ثلاثيا لتوزيع حقول البترول يذكر بالنمط الثلاثى لتوزيع المدن الكبرى فى العراق . فكما تشكل المدن الكبرى ميزانا مركزه فى الوسط فى بغداد وكفته الموصل فى الشمال والبصرة فى الجنوب ، فكذلك أصبحت حقول البترول أيضا تشكل ميزانا مركز ثقله فى الوسط فى كركوك وكفته الخاسرة فى الشمال فى عين زالة وأخواتها ، والراجحة فى الجنوب فى الرميلة ـ الزبير . وإذا كان هذا التوزيع يلائم أغراض الاستهلاك المحلى ، فإنه ليس الأنسب لأغراض التصدير وهى أساس الإنتاج هنا .

الكويت

إذا انتقلنا إلى شمال الكويت وجدنا أننا لا زلنا على أطراف الحوض حتى إذا وصلنا جنوبها دخلنا إلى النواه النووية الكبرى لحوض بترول الخليج العربى . فحقول الكويت تتجمع اليوم فى كوكبتين ساحليتين : شمالية حديثة جدا وصغيرة نسبيا تقع شمال خليج الكويت ، وجنوبيه قديمة وغزيرة جداً وتقع جنوب خليج الكويت .

فأما الكوكبة الشمالية فتتألف من ٣ حقول تقع على محور واحد مواز للساحل . وقلبها حقل الروضتين الذى بدأ كشفه فى ١٩٥٥ وبدأ الإنتاج

الفعلى فى ١٩٦٠ . وهو لا يبعد عن حقل الرميلة بجنوب العراق إلا ٢٥ ميلا. وقد اتضح أنه حقل خطير للغاية فقد قدر رصيده بنحو ١٣٠٠ مليون طن ، وطبقاته الحاملة للبترول متعددة وسميكة ، وتقع على عمق ٧٧٠٠ قدم . وهو الآن يساهم بنحو ١٠ مليون طن فى الإنتاج . وللروضتين أهمية أخرى خاصة تتمثل فيما كشف حوله من موارد الماء الذى يكتسب هنا قيمة حدية أكبر من البترول ! ومنذ ١٩٥٦ اكتشف حقلان صغيران قرب الروضتين: الصبرية على بعد ١٠ ميلا جنوب شرق الروضتين ، وبحرة قرب الساحل الشمالى لخليج الكويت . ويرجح أن حقل الصبرية امتداد لحقل الروضتين وهو أهم من بحرة .

أما الكوكبة الجنوبية فلا تنتظم فى خط محورى واحد وإنما تتجمع فى دائرة ملمومة ، نواتها حقل البرقان العظيم . وقد كشف البترول هنا فى ١٩٣٨ بعد أن أوحى بوجوده الغاز المتسرب Seepage . والحقل يقع على بعد ٢٥ ميلا جنوب مدينة الكويت ويأخذ شكل كمثرى ويغطى ٣٠ ميلا ، فى محدب عريض محوره شمالى - جنوبى يمتد ١٥ — ٢٠ ميلا . والطبقات الحاملة للبترول هى من الحجر الرملى الكريتاسى وسمكها ١٠٠٠ قدما وتقع على عمق ٣٥٠٠ - ٤٥٠٠ قدما تغطيها طبقة صماء من الطفل السميك . ونوع البترول جيد لا تزيد فيه نسبه الكبريت عن ٢ ٪ . وفى الحقل الآن ٣١٩ بئراً تتباعد على مسافة ٦٠٠ فدانا لكل بئر ، يتجمع محصول كل مجموعة منها (٢٠ - ٣٠) بالأنابيب الداخلية فى مركز تجميع من ١٤ مركزا . والحقل يعد أغنى حقل منفرد فى العالم ، ويرى فيه مهندس البترول المثل النموذجى للتراكيب البترولية ، وهو وحده ينتج ٣/٤ الانتاج الكويتى . وفى ١٩٥٨ كان قد أتم انتاج البليون الثالث من البراميل . وقد بدأ الضغط فى الحقل يقل نوعا ولذا بدأ الحقن بالغاز للمحافظة على مستواه .

وفى ١٩٥١ تم كشف حقل المقوع (بجوة) إلى الشمال من حقل البرقان ثم ثبت أنه امتداد له . وقد بدأ الانتاج فى ١٩٥٢ وبه الآن ٤٤ بئراً . وعلى ظهر الأحمدى A ridge وإلى الجنوب الشرقى قليلا من المقوع ظهر حقل الأحمدى وبه الآن ٣٦ بئراً . ومن الواضح أن كلا من المقوع والأحمدى توابع satellites وامتداد للحقل الأكبر البرقان . والواقع أن الدراسة أثبتت أن ثلاثتها خزان بترولى واحد . وقد كشف أخيرا فى ١٩٥٩ حقل هامشى صغير يمثل أطراف الحوض فى المناجيش ، وهو يقع غرب البرقان بنحو ٣٠ ميلا قرب حدود المنطقة المحايدة وقد بدأ الانتاج أخيراً فى ١٩٦٠ وحتى منتصف ١٩٦١ كان بها ٥ — ٦ أبار منتجة .

المحايدة

وإذا انتقلنا إلى المنطقة المحايدة وجدنا سلسلة الحقول الكبيرة تستمر فى حقل الوفرة الذى لا يبعد عن حقل البرقان إلا ٢٠ ميلا وقد كشف ١٩٥٣ ، ويأتى زيته من طبقات ضحلة (١٢٠٠ قدما) وعميقة (٧٠٠٠ قدما) من الحجر الجيرى بينها على عمق ٣٦٠٠ قدما طبقة من الحجر الرملى الكريتاسى تشبه طبقات البرقان وتعتبر المصدر الأساسى للوفرة وزيتها أثقل وأكثر كبريتا من زيت البرقان . ويعد الحقل من الحقول الكبرى إذ يقدر رصيده بنحو ٩٥٠ مليون طن وكان به حتى ١٩٥٩ ١٥٠ بئراً منتجة ، ومعدل إنتاجه ٥ر٩ مليون طن وهو معدل يقل كثيراً عن إمكانيات الحقل .

ويتبع المنطقة المحايدة حقل بحرى تماما يقع خارج مياهها الاقليمية (٦ ميل) ولكن فى رصيفها القارى . ويمكن أن نعده من الحقول الصغرى على أطراف حوض بترول الخليج العربى . كشف الخافجى ـ هذا الحقل ـ فى

١٩٦٠ على بعد ٢٨ - ٣٠ ميلا من الساحل وعلى عمق يتراوح حول ١٠٠ قدم تحت سطح الماء . وأصابت الآبار الأولى غازا طبيعيا من طبقات ضحلة اشتعلت وأحرقت القاعدة العائمة ثم تفجر البترول بكميات غزيرة من أعماق تتراوح حول ٥٠٠ قدما . وقد وصل الحقل باليابس بأنبوب طوله ٢٧ ميلا ينتهى عند رأس الخانجى .

السعودية

تنتشر حقول السعودية فى مساحة واسعة فى الحسا تغطى ٤ درجات عرضية وأكثر من درجتين طوليتين . وتتألف من مجموعتين واضحتين من الحقول : مجموعة الحقول الصغرى على محور شمالى غربى - جنوبى شرقى ، وهى فى مجموعها حقول صغيرة منفصلة وأغلبها ساحلى . ومجموعة الحقول الكبرى على محور شمالى شرقى - جنوبى غربى قوامها عدد قليل من الحقول العظمى المتصلة وأغلبها داخلى الموقع . ويلتقى المحوران قرب الساحل على مجموعة انتقالية من الحقول المتوسطة .

ويبدأ الخط الساحلى غير بعيد عن حدود المنطقة المحايدة بحقل بحرى هو السفانية ، كشف فى ١٩٥١ . وهو يقع على بعد ٣ أميال من الساحل ، وتتميز طبقاته البترولية بأنها وحدها من بين كل حقول السعودية تتألف من الحجر الرملى لا الجيرى كما أن زيته أثقل منه فى الحقول الأخرى . ويعد حقل السفانية أكبر الحقول البحريه فى العالم . وقد بدأ الإنتاج فى ١٩٥٧ ، وكان به فى ١٩٥٩ نحو ٢١ بئرا تعطى ٦٧ الف برميل يوميا . ولكن الانتاج ارتفع فى ١٩٦٢ إلى ١٤,٥ مليون طن أتت من ٣٥ بئرا منتجة وذلك إنتاج

يمثل نحو ١٨ ٪ من إنتاج السعوديه . والحقل يتصل برأس تنوره بأنبوب أرضى طوله ٣٨ كم (١).

وإلى الجنوب من السفانية ، وعلى بعد ١٠ أميال من الساحل ، كشف حقل بحرى جديد فى ١٩٦٧ هو حقل منيفة وإلى الداخل قليلا يقع حقل أبو حدريه . وقد كان أول الحقول التى كشفت فى الحسا — فى ١٩٣٩ — ولكنه ظل بلا إنتاج حتى ١٩٥٩ وذلك لشدة عمق موارده (١٠ الف قدم) وبعده نسبيا عن الساحل . ويشبهه فى هذا الوضع حقل الفاضلى الذى يقع إلى الجنوب الغربى والذى كشف فى ١٩٤٩ . وفى منتصف المسافة بين هذين الحقلين ، ولكن قرب الساحل ، كشف حقل أمفيبى حديث كبير هو الخرسانية فى ١٩٥٦ ، وبدأ الانتاج ١٩٦٠ . وهو يمتد ١١ × ٧ كم . وفى ١٩٥٩ كان انتاجه اليومى ٦٧ الف برميل وبلغ إنتاجه فى ١٩٦٠ نحو ٢ مليون طن ، تضاعف بعد سنتين حيث أغل فى ١٩٦٢ نحو ٤ مليون طن أتت من ٧ آبار منتجة : وبذلك يكون الخرسانية رابع حقول السعودية إنتاجا . (٢)

وبعد فاصل كبير نسبيا نصل إلى حقول الزاوية أو الحقول الإنتقالية بين مجموعة الحقول الصغرى والكبرى فنجد غير بعيد من رأس التنورة حقل القطيف المتوسط الحجم الذى كان من أول الحقول انتاجا (١٩٤٥) وزيته على عمق ٧٠٠٠ قدم وكان به فى ١٩٥٩ نحو ٥٠ بئرا تغل ١٦ الف برميل يوميا فقط ، وهو الآن يعطى مليون طن فى ١٩٦٢ . ثم إلى الجنوب منه نجد حقل الدمام الذى كان أول الحقول السعودية إنتاجا ١٩٣٨ والذى كان يساهم بنسبة كبيرة فى الإنتاج فى أولى سنواته . وهو يتألف من قبة ضحلة

---

(١) الموارد الاقتصادية فى الوطن العربى . سبق ذكره . ص ٣١٥ — ٣١٧ .

(٢) المرجع السابق .

للغايه طولها ٤ ميل ولم يعد ينتج أكثر من ٧ ٪ من انتاج السعودية وبه الآن ٢٧ بئرا تنتج ٣٤ الف برميل يوميا وفى ١٩٦٢ أعطى ١٫٦ مليون طن . هذا ويتوسط الحقل مدينة الظهران المقر الرئيسى لأرامكو . ويرتبط بحقل الدمام بعض آبار من الغاز الصرف . وسيلاحظ أن الموقع الساحلى لهذين الحقلين الانقاليين هو السبب فى استثمارهما المبكر .

أما مجموعة الحقول الكبرى فتقع طبقات البترول فيها عامة على عمق ٧٠٠٠ قدم . وهى تبدأ بأبقيق . وكان معداً للإنتاج بعد الحرب مباشرة ١٩٤٦ . وفى ١٩٤٧ كشف فى بقة حقل يقع إلى الشمال من أبقيق ظن أنه منفصل عنه ولكن ثبت أنه جزء لايتجزأ منه . وفى تلك المراحل المبكرة كان أبقيق أعظم حقول السعودية وينتج ٣/٤ مجموع إنتاجها ، ولكنه الآن ثانى حقولها ولا يساهم إلا بنحو ١/٤ المجموع . فكان بالحقل ٥٦ بئرا (١٩٥٩) تنتج ٢٦٧ ألف برميل يوميا . وفى ١٩٦٢ ارتفع الانتاج إلى ١٨٫٢ مليون طن قدمتها ٦٢ بئرا منتجة . وقد بدأ حقنه بالماء للمحافظة على ضغطه . وإلى الجنوب الغربى يمتد حقل هائل تم كشفه على شكل سلسلة متتالية من الحقول التى كان يظن كل مرة أنها منفصلة ، ثم تثبت الدراسة أن كل عدد منها ليس إلا حقلا واحداً ثم أخيراً أنها جميعها حقل واحد هو حقل الغوار العظيم .

كان أول ما كشف الغوار من الشمال : فبدأ بحقل عين دار فى ١٩٤٨ على بعد ٢٥ ميلا إلى الجنوب الغربى من أبقيق ، وتبعه فى العام التالى نهايته من الجنوب وهى حقل الحرض على بعد ١٦٠ ميلا جنوب غرب الظهران . وفى ١٩٥١ كشف حقل العثمانية جنوب عين دار بنحو ٤٠ ميلا وإلى الغرب مباشرة من مدينة الهفوف . وفى السنة التالية ظهر شدقم شمال شرق العثمانية . واتضح أن هذه كلها عناصر فى مركب واحد . وظهر حقل جديد هو الحوية

يصل مابين الحرض والعثمانية . وأخيرا فى ١٩٥٧ ظهر لعين دار امتداد شمالى جديد وهو فزران أبعاده ٢٠ × ٣ كم . وهكذا أصبح حقل الغوار العظيم يمتد من فزران فى أقصى الشمال إلى الحرض فى أقصى الجنوب مسافة ٢٢٠ كم . وأصبح بذلك أعظم وأكبر حقل لا فى السعودية وإنما فى العالم أجمع ويعادل رصيده كل رصيد الولايات المتحدة . وكان بالحقل ٩١ بئرا (١٩٥٩) تنتج ٧٠٢ ألف برميل . وكان طبيعيا أن يركز الانتاج دائما فى القطاع الشمالى من الحقل لقربه من الساحل . ولهذا نجد توزيع الآبار كالاتى : ٤٤ عين دار ، ١٤ شدقم ، ٣٣ العثمانية . ولهذا أيضا بدأت الحاجة إلى الحقن بالغاز تظهر فى عين دار بينما لم يبدأ الانتاج بعد من الحوية والحرض . أما فى ١٩٦٢ فقد بلغ إنتاج الغوار نحو ٣٥ مليون طن أى أكثر من نصف حصيلة السعودية . من هذا الإنتاج أتى ١٧ مليونا من عين دار (٤٤ بئرا) ، ٣ر٥ مليونا من شدقم (١٤ بئرا) ، ١٢ر٧ مليونا من العثمانية (٣٦ بئرا) .

على أن كشفا جديدا ينفصل تماما عن جسم الغوار ويقع بعيدا على ضلوعه الغربية ظهر فى حقل الخريص ١٩٥٧ ، وهو بمساحته التى تبلغ ١٥ × ٣٠ كم يقع على بعد ٧٥ ميلا غير بعيد من حدود منطقة امتياز البترول وعلى مسافة ٩٠ ميلا فقط من الرياض . أى أنه أكثر حقول الجزيرة العربية تطرفا نحو الداخل ، وهذه نقطة ضعفه الواضحة ولذا لم يبدأ انتاجه بعد .

قطـر

هنا لا نجد إلا حقلا واحداً من النوع المتوسط بمقياس الشرق الأوسط . حقل دخان . وهو يقع قرب الساحل الغربى لشبه الجزيرة . وقد كشف

الحقل لأول مرة فى ١٩٣٨ ، ولكن آباره أغلقت — كحرمان للعدو المحتمل أثناء الحرب Denial Measure — ولم يبدأ الانتاج للتصدير إلا فى ١٩٤٩ . ويأتى البترول من طبقات جوراسية من الحجر الجيرى من عمق يتراوح حول ٦٠٠٠ قدما . والنوع خفيف ممتاز . وبالحقل نحو ٥٠ بئرا منتجة . ومنذ بدء الانتاج أغل دخان حتى نهاية ١٩٥٩ نحو ٥٠ مليون طنا ، وكان محصوله فى ١٩٦٠ نحو ٧٫٨ مليون طنا . أما رصيده فلا يزيد — ولا يحتمل أن يزيد فى المستقبل — عن ٣٠٠ — ٣٥٠ مليون طن . ويقدر أنه سينضب فى ١٩٧٩ . وقد أعتقد أن شبه الجزيرة كلها — التى تبرز من الساحل كالإبهام — هى برمتها محدب واحد عريض مسطح ، مما شجع على التنقيب . وكان آخر نشاطه فى أقصى شمال شرق شبه الجزيرة لم تظهر نتيجته بعد . كما بدأ التنقيب تحت مياه الرصيف القارى وقد ظهر الزيت فعلا فى ١٩٦٠ فى Id الشرقية على بعد ٥٠ ميلا من الساحل وشمال شرق الدوحة بنحو ٦٠ ميلا .

البحرين

كما فى قطر ليس ثمة حقل هنا إلا حقل عوالى . وهو حقل ضئيل مما يوضح أننا هنا على الأطراف الشرقية للحوض العربى . إلا أنه كان أول حقل يظهر فى الخليج العربى حيث ظهر فى ١٩٣٢ وبدأ الانتاج فى ١٩٣٤ . والحقل يكاد يتوسط الجزيرة الكبيرة (البحرين أو المنامة) . وهو محدب كبير بسيط ، موارده طبقات من الحجر الجيرى المتسامى الكريتاسى ، على عمق قليل . وقد بلغ الانتاج التراكمى للحقل حتى ١٩٥٦ نحو ٣٠ مليون طن بينما لم يزد انتاجه السنوى فى ١٩٥٩ عن ٢٫٢ مليون طن وهكذا ظل حتى ١٩٦٢ . ولا يزيد رصيده الآن عن ٣٠ — ٢٥ مليون طن .

ساحل المعاهدات

من الطبيعى أن يتجه البحث إلى هذه المنطقة . وقد استمر التنقيب منذ مدة ، لكن لم تظهر آثار للبترول إلا فى مربان Murban فى أبو ظبى حيث ظهر بعض الزيت والغاز من أعماق كبيرة بكميات غير اقتصادية بعد . وعلى العكس من الأبحاث البرية نجحت الأبحاث البحرية فى الرصيف القارى ، ففى منطقة الرصيف القارى لأبوظبى أيضا ظهر البترول بكميات اقتصادية فى أم شايف Shaif غير بعيد عن جزيرة داس Das التى تبعد عن الساحل ٨٠ ميلا وتتبع الشياخة . ولهذا بدأ مد أنبوب طوله ٢٠ ميلا من الحقل البحرى إلى الجزيرة التى ستكون مركز التجميع . وقدر أن يبدأ الانتاج فى١٩٦٢ . وهكذا كان ، ففى ١٩٦٢ كان هناك ٧ آبار منتجة أغلت نحو ٨ر٠ مليون طن . وبهذا تكون أبو ظبى أول منتج فى ساحل المعاهدات . هذا عدا أن رائحة الزيت ظهرت أيضا فى البوريمى على الحدود بين السعودية وساحل المعاهدات. على أن هذه المشارف كلها لايمكن إلا أن تعد الأطراف الجنوبية القصوى لحوض الخليج العربى ، ولازال ساحل القرصان القديم بعيداً عن أن يصبح ساحل الذهب الجديد .

ولعل مما يستلفت النظر فى هذه المنطقة أن تبخل الأرض بالبترول بينما يجود به البحر . ولكن هذا لا ينبغى أن يبدو غريبا فى منطقة كان حصاد البحر فيها تقليديا وقبل البترول أهم من محصول اليابس . أليس هنا فى صميم مياه الخليج العربى المالحة تتفجر ينابيع الماء العذب ؟ فلماذا لا تعود ينابيع البترول - كأنما هى « أحساء زيتية » - فتنبثق الآن من جوف الماء ؟

كذلك من المفيد والطريف أن نلاحظ هنا أن وصول البترول إلى ساحل المعاهدات ثم ظهوره فى عدن والجنوب اليمنى يعنى أنه يعبر - لأول مرة فى العالم العربى - مدار السرطان. فقبل ذلك، وحتى بعد أن وصل البترول إلى قلب الصحراء الكبرى فى المغرب العربى، كان بترول العرب لا يزال ظاهرة خارج مدارية. إن زحف البترول فى العالم العربى وانتشاره لم يكن فقط من الشرق إلى الغرب وإنما كذلك من الشمال إلى الجنوب.

الحلقة الوسطى

فلسطين المحتلة

على هوامش الكتلة العربية Shield وفى التكاوين الرسوبية لفلسطين، احتمالات قليلة لبعض البترول المحدود. وقد عثرت إسرائيل فى ١٩٥٥ على حقل صغير ضئيل هو هيليتز (حليتز) Heletz قرب رأس قطاع غزة. ولكن إنتاجه ضئيل للغاية لم يعد بعد ٥ سنوات ٢٠٠٠ برميلا فى اليوم من ٣٥ بئرا معظمها يحتاج إلى الضخ ولا يمثل إلا ١٠٪ من استهلاك إسرائيل. وفى ١٩٥٧ ظهرت بعض آثار للزيت فى برورحايل Bror--Hayil قرب حليتز ولكنها ضئيلة. لكن أهم الكشوف فى فلسطين المحتلة هى من الغاز الطبيعى لا البترول. ففى ١٩٥٩ ظهر الغاز فى Zohar فى النقب جنوب شرق بير سبع بنحو ٣٥ ميلا. ثم ظهر الحقل الكبير فى Kidod على بعد ٥ ميل من زوهار وأنتج ٧ مليون قدما^3 فى اليوم وقدر رصيده بنحو ٥٠٠ مليون قدما^3 (١)

---

(١) لونجريج، ص ١ — ٣٣٢.

حوض خليج السويس [1]

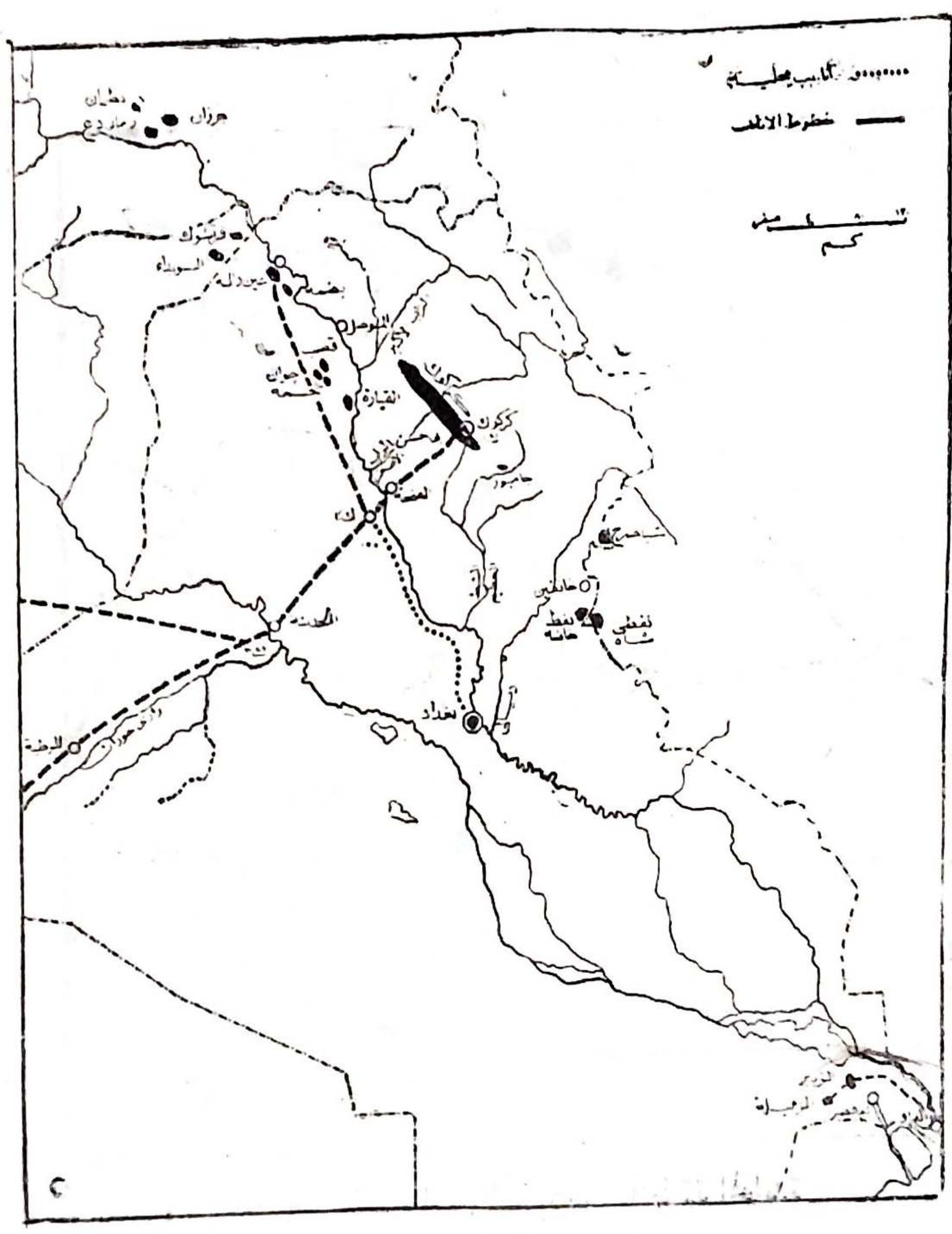
هذا أصغر أحواض البترول فى العالم العربى ولا يكاد يقارن بأى منها من حيث الحجم. ويمتاز بأن تكاوينه معقدة للغاية جيولوجيا وتجمع بين كل العصور ابتداء من الأركى حتى الحديث مما يجعله حيرة مهندس البترول. ولكنه فى مجموعه يرتبط ارتباطا وثيقا برواسب الميوسين البحرية السميكة التى تعد مهد البترول الحقيقى فى مصر. وبديهى أنه حوض يرتبط بالبحر تماما، ولذا فكل حقولنا ساحلية مباشرة بل بدأت تضع قدمها فى الماء أخيرا. والحوض بعد هذا ينفرد أيضا بعزلة موقعه التامة عن بقية الأحواض العربية. وهو وحده فى المشرق العربى الذى يقع برمته فى دولة واحدة، وبهذا يمثل النقيض المباشر لحوض الخليج العربى. وهو وحده أيضا الذى يمتاز بتكويناته الانكسارية التى ارتبطت بالأخدود وسببت قلقلات عنيفة فى طبقاته جعلت كل حقوله من الحجم الضئيل إن لم يكن القزمى. ولهذا فإن عملية البحث هنا كانت دائما عملية « صيد برى Wildcatting » شاقة مليئة بالآبار الجافة. ومن المفيد لنا فى دراستنا هنا أن نبدأ بتحليل الحقول واحدا واحدا، وبعدها نكون فى موضع يسمح لنا بأن نعمم فى مجالين: التطور التاريخى ثم الصورة الجغرافية.

الحقول تفصيلا

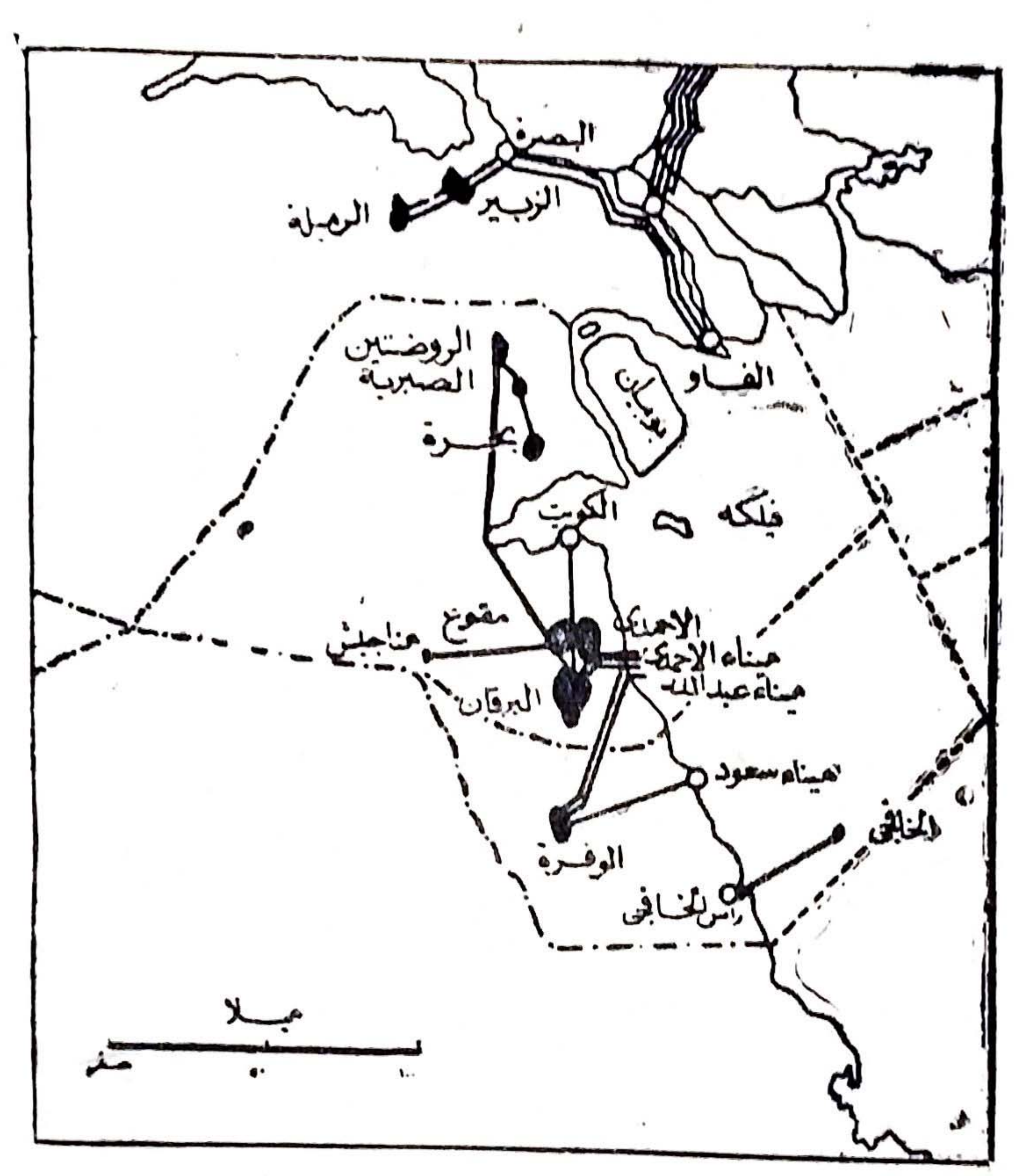
وأول الحقول المصرية هو حقل جمسة على بعد بضعة أميال جنوب جبل الزيت عند مدخل خليج السويس، فى حجر رملى ميوسينى على عمق ١٣٠٠

---

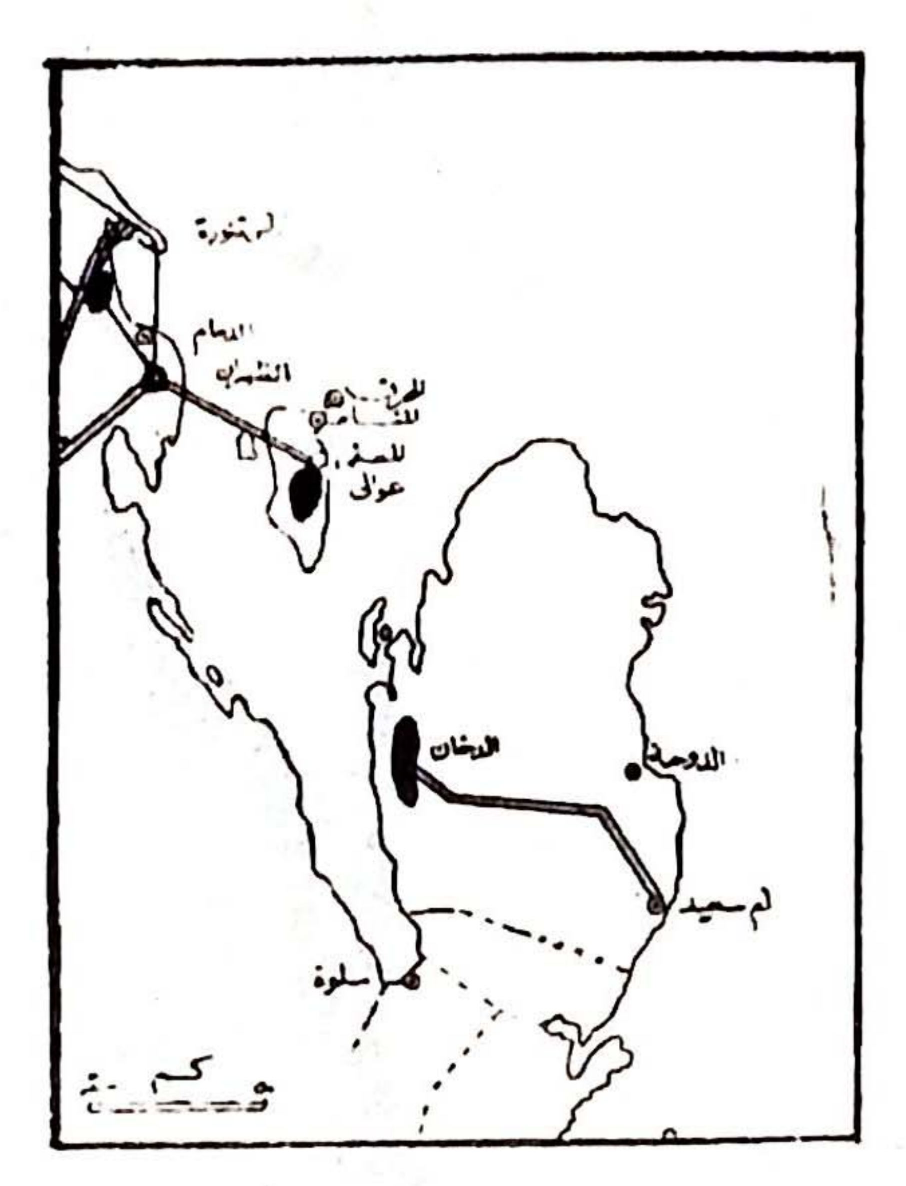
(١) راجع فى هذا: لونجريج، الهيئة العامة للبترول. القاهرة؛ تقرير اتحاد الصناعات، بالجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٢ ص١٥ — ٣٢، الكتاب السنوى لاتحاد الصناعات بالجمهورية العربية، ١٩٦٣، رشدى سعيد تطور صناعة البترول المصرى، سبق ذكره، ص ٦١ — ٧٠، محمد رياض، كوثر عبد الرسول، الاقتصاد الأفريقى، القاهره، ١٩٦٣ ص ٤٨٥ — ٤٩٠.



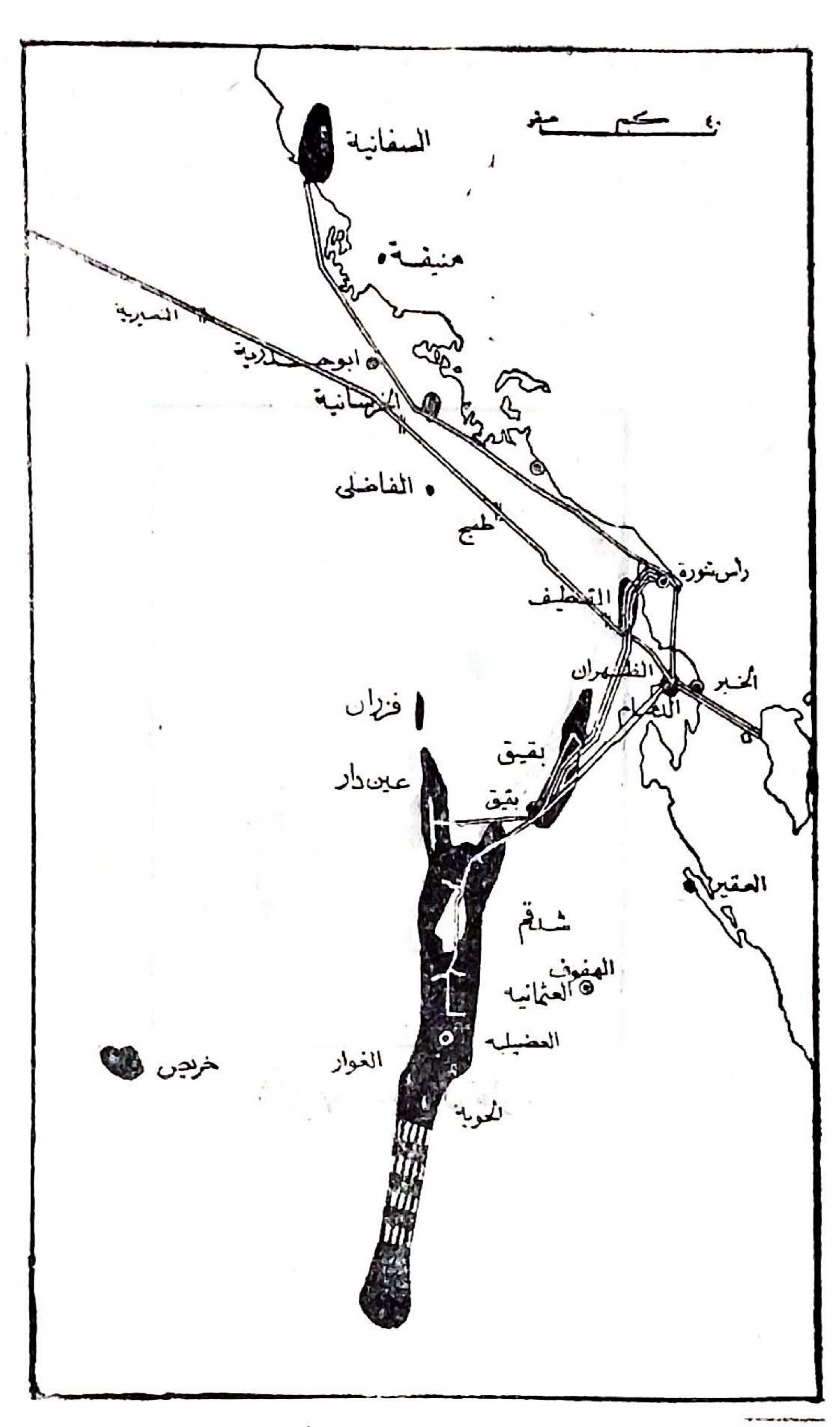
شكل ٥ - بترول العراق ·



شكل ٦ – البترول في الكويت والمنطقة المحايدة.



شكل ٧ — بترول قطر .



شكل ٨ — بترول الحسا
في السعودية

قدما(١) . كشف فى ١٩٠٨ وبدأ إنتاجه التجارى فى ١٩٠٩ ولكن بكميات متواضعة للغاية أخذت تزداد حتى وصل على عتبة الحرب الكبرى الأولى فى ١٩١٤ إلى ٩٢ ألف طن . ثم أخذت فى التناقص وعدم الانتظام سريعا حتى لم يكن يساهم أثناء الحرب الأولى وبعدها بأكثر من ١/١٠ الإنتاج القومى . إلى أن جف وهجر فى ١٩٢٩ . وكان بهذا قصير العمر بوضوح . وفى الفترة الأخيرة يغل فى بعض السنوات بضع مئات أو آلاف من الأطنان ولكنه منذ ١٩٥٧ توقف عن الإنتاج بعد أن أغل تراكميا نحو ١/٤ مليون متر٣ فى ٤٧ سنة . وكما كشف البترول صدفة فى جمسة من قبل كشف عرضا فى أبو دربة على ساحل سيناء فى ١٩١٨ ولكنه لفقره أهمل بعد إذ لم ينتج إلا بضع آلاف معدودة من الأطنان . وقد توقف تماما منذ ١٩٤٥، بعد حياة مجدبة أغلت نحو ١٢ ألف متر٣ فى نحو ١/٤ قرن ! ـ فكان أشد الحقول ضآلة فى كل تاريخنا البترولى : لا نقول بئرا جافة تماما ولكن بئرا كاذبة . . . وهكذا نرى أن أول حقل على كل من الجانبين الغربى والشرقى من الحوض كان فاشلا قصير العمر أو ولد ميتا . . .

أما الذى أنقذ الموقف الإستهلاكى أثناء الحرب الأولى فهو كشف حقل الغردقة ـ ٥٥ كم جنوب جمسة ـ قبل الحرب مباشرة حيث بدأ الإنتاج فى ١٩١٣ . من طبقات ميوسين وكريتاسى على عمق ١٦٠٠ ـ ٢٠٠٠ قدما . ورغم صعوبة ظروف التعدين لتعذر إستيراد آلات الإستخراج والخبراء، إلا أن الإنتاج وصل إلى ١/٤ المليون (٢٣٢ ألف طن) فى ١٩١٩ . وكانت قمة الإنتاج فى ١٩٣١ حين أنتج ٢٩١ ألف طن . وبعد أن كان يعطى ٤/٥ الإنتاج القومى فى أول حياته ، كان يعطى ال ١/٥ فى ١٩٣٩ ، هبطت إلى ال ١/٢٠

(١) لونجريج . ص ٢٠ . الهيئة العامة للبترول القاهرة .

فى ١٩٤٠ ، ثم إلى ½ م فى ١٩٤٥(١) . ولكن بعدها بدأ التناقص سريعا حتى بلغ ٤٠ ألف طن فى ١٩٥٢ ، ومتوسطه الآن يتأرجح حول ٣٠ ألفا . وبعيب الغردقة إرتفاع نسبة الكبريت ، كما بدأ الماء يظهر فى إنتاجه بالتدريج منذ وقت مبكر (١٩١٦) حتى إستعملت وحدات التجفيف الكهربائى dehydration plants بعد الحرب (١٩٢٦) . وهو الآن يعطى بترولا مختلطا بعشرة أمثاله من الماء . وهكذا نرى أن حقل الغردقة كان عماد الإنتاج المصرى أثناء الحرب الأولى وما بين الحربين وظل المورد الوحيد لمدة ٢٥ سنة . أى أنه من أطول الحقول المصرية عمراً حيث عمر نحو نصف قرن الآن ، وهو الوحيد الذى خضرم من بين حقول « الرعيل » الأول الذى ظهر حوالى الحرب الكبرى الأولى . وقد أنتج منذ بدأ حتى ١٩٥٢ نحو ¼٥ مليون طن ، وحتى ١٩٦٣ نحو ٥٫٦مليون متر٣ ، هو بذلك ثالث حقولنا من حيث إنتاجه التراكمى ، ولكنه الآن فى حكم النضوب .

ومرة أخرى أنقذ الموقف أثناء الحرب التالية كشف جديد : رأس غارب الذى كشف ـ فى موقع سبق الحفر فيه وترك دون جدوى ـ على عتبة الحرب فى ١٦٣٨ . وأعطى فى تلك السنه ٧٥ ألف طن . وهو يقع على بعد ٢٠٠ كم جنوب السويس أى نصف المسافة بينها وبين الغردقة . أما جيولوجيا فيتألف من محدب منفرد monocline إنكسارى سابق الميوسين ، ويأتى زيته من طبقات رملية ترجع إلى الزمن الفحمى تغطيها طبقات ميوسينية(٢) وأصبح هو أساس الإنتاج أثناء الحرب ، وبلغ ذروة إنتاجه بعد ١٠ سنوات من بدئه فبلغ ١٫٣٣٣٫٠٠٠ طن فى ١٩٥٢ ولم يزد عن

---

(١) المرجع السابق . ص ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ٩٦ .

١ ½ مليون فى ١٩٥٤ . وإنتاجه أخيراً يتراوح من سنة لأخرى بين مليون ومليون وربع مليون طن هبط فى ١٩٦٣ إلى ¾ مليون متر٣ . وقد كان حتى قريب أكبر الحقول المصرية وأغزرها إنتاجاً ولكنه فقد مكان الصدارة أخيراً . كما أن نسبته فى الإنتاج المصرى تقل بإطراد مع ظهور الآبار الأخرى . فبعد أن كانت نسبته ٥٢٪ فى ١٩٥٣ أصبحت ٤٧٪ فى ١٩٥٧ إنخفضت إلى ٢٧٫٤٪ فى ١٩٦٠ حين كان إنتاجه ٩٠٠ ألف طن إلى ١٢٫٤٪ (الثمن) فى ١٩٦٣ . ولكنه لا يزال الثانى بعد بلاعيم أرضى (بكثير جداً) وقبل بلاعيم بحرى (بقليل جداً) . وقد أدى رأس غارب وظيفته الكبرى أثناء الحرب الثانيه وظل أساس صناعة البترول الرئيسى فى مصر ١٠ سنوات . وهو أعظم حقل مصرى من حيث الإنتاج التراكمى فقد أعطى مصر نحو نصف (٤٦٫١ ٪) ما أستخرجت من بترول حتى الآن .

وبانتهاء الحرب الثانية يبدأ تاريخ البترول فى سيناء حين كشف حقل سدر فى ١٩٤٦ على بعد ٤٥ كم من السويس . وقد بدأ إنتاجه فى ١٩٤٨ ، وكان متوسط إنتاجه السنوى فى الغالب يتراوح حوالى ½ مليون طن أى نحو ١٢ — ١٣ ٪ من الإنتاج القومى . ولكنه الآن يعطى نصف ذلك الإنتاج تقريباً بينما هبطت نسبته المئوية إلى ٢٫٧ ٪ فقط . وقد أغل حتى ١٩٦٣ نحو ٥٫٥ مليون طن . وفى ١٩٤٨ كشف حقل آخر مجـــاور إلى الجنوب هو عسل . وبدأ الإنتاج ١٩٤٩ . وقد كان عسل يبشر بالكثير فوصل فى ١٩٥٣ إلى ٧٨٣ ألف طن أى ٢٣٪ من الإنتاج المصرى ولكنه تناقص سريعاً حتى أصبح ١٥٥ ألف طن فى ١٩٥٧ أى ٦٪ . أى أنه بعد أن كان ضعف سدر أصبح نصفه . وهو الآن يناهز سدر إنتاجاً ونسبةً كما أن كلا منهما أغل — تراكمياً — إنتاجاً متقارباً . وفى نفس السنة ظهر حقل صغير هو رأس مطارمة فى منتصف المسافة بين الحقلين . وبهذا أصبح

هناك كوكبة من الحقول قرب رأس خليج السويس ترجع فى تاريخها إلى أربعينات ما بعد الحرب. أما رأس مطارمة نفسه فلا يستحق الذكر وهو أضأل الحقول المنتجة حالياً. وتكاوين الكوكبة من الحجر الجيرى الإيوسينى والميوسينى تحددها انكسارات شاذة. وحقول الكوكبة خالية من الغاز. ولما كانت الطبقات الإيوسينية الحاملة للبترول منفذة جداً، فإن انسياب البترول فيها سهل، لكن لا بد سينتج ماء فى المستقبل فقد بدأت علاماته من قبل. ويلاحظ أن الآمال التى علقت على الكوكبة فى البداية كان مبالغاً فيها.(١) ولكن لها الفضل فى أن وجهت الأنظار إلى خطورة سيناء البترولية وإمكانياتها العظيمة.

وكانت الدفعة التالية فى الخمسينات، حيث ظهرت كوكبة أخرى من الحقول - أكثر أهمية - على بعد ١٥٠ كم من السويس، أى منتصف ساحل سيناء فى نفس الدائرة التى ظهر فيها أبو دربة المهجور من قبل، وإزاء راس غارب على الضفة الغربية. وتعرف هذه الدائرة فى مجموعها محلياً باسم البلاعيم ولو أن هذا الإسم أصبح يطلق فيما بعد على نقطة واحدة منها. فهنا ظهر فى ١٦٤٩ حقل وادى فيران وهو لا يزيد أهمية فى هذه الكوكبة عن مطارمة فى الكوكبة الشمالية كما لا يزيد عنه إنتاجاً تقريباً، ولكن أمل حياته الآن سنتان فقط بينما أمام مطارمة نحو ٢٠ عاماً باعتبار معدل الإنتاج الحالى. وبفيران ٤ آبار حالياً. ثم تلاه فى ١٩٥٥ حقل البلاعيم الكبير الذى يعد أخطر حدث فى كل تاريخ البترول فى مصر. سرعان ما قفز من ٥٠ ألفاً فى سنته الأولى إلى ربع مليون فى السنة الثانية إلى ٣/٤ مليون فى الثالثة حيث

---

(١) نفس المرجع، ص ٢٥٩.

أنتج ٦٦٠٫٠٠٠ طن أى ٢٨ ٪ من الإنتاج القومى ، وكان أخيراً ينتج ٤٥٫٧ ٪ من الإنتاج القومى قفزت إلى ٥٧٫٦ ٪ فى ١٩٦٣ . فهو لم يرث دور رأس غارب ويحتل الصدارة بين الحقول المصرية فحسب ، ولكنه أصبح قطب الانتاج فى مصر ـ تعدى النصف وزحف حثيثاً إلى الثلثين . ويكفيه أن قد أعطى فى سنوات إنتاجه الثمان حصيلة تراكمية لا تقل كثيراً عن نصف ما أعطى رأس غارب فى ربع قرن . وهو بهذا ثانى حقل من حيث الانتاج التراكمى ، ولكنه الأول من حيث الاحتياطى المتبقى ، بل هو أمل مصر المستقبل حيث يدخر لها نحو نصف كل رصيدها (٥٢٫٧ ٪) أى أن رصيده نحو ٢٠٫٧ مليون متراً مكعباً ـ وزيادة إذا أمكن استنزاف كل موارده. فهو إذن الحقل الوحيد الكبير فى الحوض المصرى ، وربما كان أقرب تشبيه له من حيث الرصيد حقل دخان فى قطر .

ولا تقتصر أهمية بلاعيم على إنتاجه البرى ، بل هناك امتداد أمفيبى له فى بلاعيم البحرى الذى تعقد عليه آمال كبيرة . وينتج بلاعيم من ٥ آفاق مختلفة وبه الآن ٩١ بئراً منتجة . وفى ١٩٦٠ وضع هدف لانتاجه يبلغ ٦ مليون طن أو أكثر فى السنة ـ وهو مالم يتحقق بالفعل . على أن بلاعيم أصبح مركز الثقل ليس فقط على الجانب الشرقى بمثل ما أن رأس غارب هو مركز الثقل على الجانب الغربى وإنما أصبح مركز الثقل فى كل الحوض المصرى . وبعد بلاعيم ظهر حقل أبو رديس وهو متوسط الأهمية قدره من قدر سدر وعسل تقريباً فى الوقت الحالى ، ولكنه أقل منهما جداً فى الإنتاج ويزيد عنهما كثيراً فى الرصيد . وآباره ست .

وفى ١٩٥٨ تذبذب البندول مرة ثانية إلى الجناح الغربى حيث ظهر حقل بكر وهو يقع شمال رأس غارب مباشرة . ويقدر أنه أغزر الآبار

الواقعة على الضفة الغربية للخليج . وهو الآن ينتج نحو نصف إنتاج رأس غارب سنوياً ، ويقع بهذا فى المرتبة الرابعة بين حقولنا . ولكن حين يكون غارب قد ولى غاربا سيكون أمام بكر حياة طويلة ، فبه الآن نحو ضعف رصيد غارب أى أنه ثالث حقولنا رصيداً (١٠٫٤ ٪) . وفى نفس الدائرة الجغرافية التى ظهر فيها بكر ، وفى نفس السنه ١٩٥٨ ، ظهر حقل كريم ، وفى نفس السنة التى بدأ فيها بكر الإنتاج بدأ . ولكن كريم ليس توأما لبكر ،وإنما هو شقيق أصغر جداً فهو يناهز ربع بكر إنتاجاً سنوياً وإنتاجاً تراكمياً ، ولكنه أقل من عشره رصيداً (٠٫٨ ٪) . كذلك ظهر حقل « غرب غارب » أيضاً فى نفس الدائرة بحيث تكونت هنا كوكبة متلاصقة من الحقول الغنية .

وفى ١٦٥٩ ظهر آخر حقول الخمسينات سدرى ـ وهو غير سدر ـ إلى الغرب من أبو رديس فى كوكبة بلاعيم . وهو حقل أقل من المتوسط إنتاجاً ورصيداً ، وبه بئران فقط .

أما حقول الستينات فاثنان حتى الآن ظهرا فى ١٩٦١ : أكما جنوب بلاعيم ، وبلاعيم بحرى الامتداد الأمفيبى لبلاعيم أرضى . ولكن بقدر ما هذا قزم بقدر ما ذاك عملاق. فأكما أضأل حقولنا بعد مطارمة ويكاد يشبهه إنتاجاً واحتياطياً ، وليس به إلا بئر واحدة منتجة .. أما بلاعيم بحرى ـ الأول والوحيد من نوعه فى مصر حتى الآن ـ فهو الآن منافس خطير لرأس غارب من حيث الإنتاج السنوى ، ومن المرجح أن يرجحه قريباً . وهو حالياً ثالث حقولنـــا إنتاجاً (١١٫٧ ٪) ، ولكن تفرده يأتى فى الرصيد . فهو بعد شقيقه على الأرض يأتى ثانى حقولنا ويكاد يبلغ فى ذلك نصفه (٣٣ ٪) . وأباره سبع وصلت الآن إلى ١١ يبشر آخرها بأن

يكون حدثا هاما . كذلك لبلاعيم بحرى الفضل فى أنه وجه الأنظار من اليابس إلى الخليج ، ولعله أن يكون بحيرة من الزيت تحت شبه بحيرة من الماء . والواقع أن آخر التطورات قد كشفت مبدئيا عن حقلين بحريين جديدين هما قارة وبكر بحرى ، ولو أن البحث لا زال فى مرحلته الجنينية

التطور التاريخى

من العرض السابق يمكن أن نخرج بعدد من الملاحظات العامة على الحركة التاريخية لحقولنا البترولية . فعدد الحقول يتزايد باطراد ، فقد ارتفع من ١ فى بداية القرن الحالى إلى ١٣ حالياً لا يدخل فيها حقلان نضبا الآن هما جمسة وأبو دربة . وقد كان ظهور هذه الحقول يتم فى موجات ست عدداً ، فالبداية كانت بداية القرن وكانت حقلا واحداً هو جمسة . والثانية فترة الحرب الكبرى الأولى وأظهرت الغردقة وأبو دربة . الثالثة فترة ما قبل الحرب الثانية وفيها ظهر رأس غارب . ثم كانت الرابعة أربعينات ما بعد الحرب الثانية وأخرجت لنا ٤ حقول هى سدر وعسل ومطارمة وفيران . ثم كانت الخمسينات هى الموجة الخامسة وأعطتنا ٥ حقول هى بلاعيم أرضى وأبو رديس وبكر وكريم وسدرى . وفى الستينات كانت آخر دفعة ضمت أكما وبلاعيم بحرى .

ثانياً : سنرى أن الآبار المصرية بمقياسها الصغير قصيرة العمر للغاية ، مما يجعل تاريخ البترول فى مصر تاريخ سلسلة متعاقبة من الحقول ، لا يلبث كل حقل منها أن ينضب فينتقل الإنتاج إلى حقل جديد ينتظره نفس المصير . أى ان تاريخ حقول البترول فى مصر يذكر بتاريخ أنواع القطن فيها ، حيث كان كل نوع لا يلبث أن يتدهور فيدخل نوع جديد وهكذا . إن تاريخ الحقول المصرية يحقق أكثر من أى حقول عربية أخرى التسمية

التقليدية للبترل بالمهاجر The Migraut . وسيلاحظ فى هذا التتابع أن توقيته كان لحسن الحظ موفقاً دائماً بالنسبة للأزمات العالمية ، فكان يأتى فى الوقت المناسب لإنقاذ الموقف أثناء الحروب العالمية خاصة .

ثالثاً : يترتب على هـــذا أن حركة انتقال داخلية shift حدثت بين الحقول المصرية . ويتفق أن هذه الحركة المهاجرة ترسم نمطاً جغرافياً شبه محدد . فقد بدأ الانتاج على الجانب الغربى على ساحل البحر الأحمر ثم تحرك بوجه عام شمالا إلى ساحل الخليج خليج السويس نفسه ، ثم بعدها تحرك إلى ساحل سيناء زاحفاً على طوله من الشمال إلى الجنوب . أى أن مسار الحركة هو بعامة مع عقارب الساعة . ولكن حدثت بعض حركات راجعة وذلك فى الفترة الخامسة حين اكتشف بكر وكريم فى اتجاه عكس عقارب الساعة ، ويتمم هذه الحركات كشف خطير يجرى حاليا فى جبل الزيت عند مدخل خليج السويس شمال جمسة بقليل . ولا تنس فى هذا أن جبل الزيت كان يعرف بذلك منذ الرومان Mons Petroleus[١] .

الصورة الجغرافية

لحقولنافى توزيعها الجغرافى نمط واضح بسيط يتخلص فى عدة أبعاد . فأولا أبرز ما يميز حوض بترول خليج السويس أنه ينقسم اليوم إلى جناحين . الجناح الإفريقى على « القارة » غربا ويمتد خارج الخليج إلى ساحل البحر الأحمر المفتوح ، والجناح الشرقى على الجانب الأسيوى فى سيناء . الأول أقدم زمنيا والثانى أحدث فى تاريخه التعدينى ، فالأول سابق فى معظمه للحرب الثانية والثانى لاحق برمته لها .

---

(١) لونجريج . ص ٦٠

ثانيا يتألف كل جناح من كوكبتين من الحقول . فعلى البر الغربى كوكبتا الغردقة ـ جمسة فى الجنوب ، وغارب وأخواتها فى الشمال. وعلى البر الشرقى كوكبتا سدر ـ عسل ـ مطارمة فى الشمال ، وبلاعيم وأخواتها فى الجنوب. وكما تتناظر كوكبة الغردقه ـ جمسة على نهاية الخليج جنوبا مع كوكبة سدر وأخواتها على رأسه شمالاً ، فكذلك تتقابل كوكبة غارب مع كوكبة بلاعيم الواحدة إزاء الأخرى توا أو تقريبا . ومعنى ذلك أن نطاق أو محور البر الغربى يقع برمته جنوب محور البر الشرقى ، فهذا يبدأ شمالاً حيث ينتهى هذا جنوبا . ويترتب على هذا أيضا أن يصبح لدينا فى الحوض ككل ثلاث دوائر : دائرة الشمال على رأس الخليج (شرقية) ، ودائرة الجنوب عند جذره (غربية) ، ودائرة الوسط فى منتصفه (مزدوجة) .

ثالثا منذ بدأ الجناح الشرقى من الحوض يظهر وهو يزحف بسرعة إلى الصدارة ليظهر على الجناح الغربى فى الإنتاج إلى أن أصبح اليوم مركز الثقل البترولى فى الانتاج وفى الرصيد معا ـ وبشكل حاسم ـ فى الحوض . فحتى ١٩٥٣ كان الجناح الغربى يقدم نحو ٥٤ ٪ من الإنتاج القومى مقابل ٤٦ ٪ لسيناء . وفى ١٩٥٥ عادت النسبة فى مصلحة الجناح الغربى (٧٠ ٪) . ولكن فى ١٩٥٦ توقف الإنتاج فى حقول سينا بسبب العدوان الثلاثى بينما تأثر نوعا على البر الغربى . ثم عادت النسبة بعد ذلك أقرب إلى التكافؤ فى ١٩٥٧ (٥٢ ٪ للصحراء ، ٤٨ ٪ لسيناء) . وبعدها تذبذب البندول نهائيا فى صالح سيناء . ففى ١٩٦٠ بلغ إنتاجها ٦٦٫٦ ٪ من الإنتاج القومى بينما كان نصيب الصحراء الشرقية ٣٣٫٤ ٪ فقط — أى بنسبة الثلثين ـ الثلث . وازداد التركيز فى سيناء باطراد حتى أصبحت النسبة هى الأربعة أخماس ـ الخمس على الترتيب فى ٦٢ ـ ١٩٦٣ (٧٩ ٪ ، ٢١ ٪ تقريبا) . ومن حيث الإنتاج التراكمى نجد أن محور سيناء على جدته وحداثته

يقترب الآن حثيثا من نطاق الصحراء الشرقية فى مجموع ما قدمه فى تاريخنا البترولى : نحو ٤١٫٥ ٪ ، ٥٨٫٥ ٪ على الترتيب . أما من حيث الإحتياطى المتبقى فسيناء هى أمل مصر وخزان المستقبل : فهى وحدها تحتكر نحو ٨٢ ٪ من مجموع الإحتياطى المتبقى مقابل نحو ١٨ ٪ للصحراء الشرقية . أى أن الثقل كله انتقل نهائيا وبلا عدالة إلى سيناء .

ومن المفيد لنا بعد هذا أن نقارن بين اوزان كوكبات الحقول المختلفة ودوائرها الثلاث . عندئذ سنرى أن دائرة الوسط أولا ثم كوكبة بلاعيم ثانيا هى قطب البترول المصرى وأمل المستقبل . فالنسب المئوية للإنتاج فى ٦٢ - ١٩٦٣ تعطى لدائرة الشمال ٥٫٣ ٪ فقط ، ومجرد ٠٫٥ ٪ لدائرة الجنوب ، فيتبقى ٩٣٫٨ ٪ لدائرة الوسط بلاعيم - غارب ! وتحتكر الكوكبة الشرقية وحدها ٧٣٫٤ ٪ من كل الإنتاج القومى . ومجموع آبار هـــذه الكوكبة الأخيرة ١١١ منتجة حاليا .

وقد كان وزن الكوكبة الشمالية أعظم مما هو الآن على الإطلاق والنسبة . فبعد ½ مليون طن فى ١٩٤٨ ارتفعت إلى مليون فى السنة التالية ، سجلت ١٫٢ مليون فى السنوات التالية . وبفضلها تضاعف الإنتاج القومى حينئذ . ولكن لم تلبث أن دخلت منحنى الهبوط فلم تغل أكثر من ٤٥٠ ألف طن فى ١٩٥٧ ، هبطت إلى ٣٢٠ ألف متر٣ فى ٦٢ - ١٩٦٣ . وفى تلك السنوات كانت كوكبة غارب هى أكبر منتج . ففى ١٩٥٧ حين كان إنتاج الكوكبة الشمالية ٤٥٠ ألف طن ، كان إنتاج كوكبة بلاعيم ٧٥٠ ألفا ، بينما سجلت كوكبة غارب ١٫١ مليون طنا . وهذا التطور يوضح انتقال مركز الثقل بانتظام وسرعة من كوكبة إلى أخرى مع عقارب الساعة .

وقد تكون الصورة أقل احتكارا من حيث الإنتاج التراكمى ، ولكنها ليست أقل إختلالا بكثير . فى هذا المجال قدمت دائرة الشمال ١٦٫٩ ٪

من كل المجموع ، وقدمت دائرة الجنوب ٣ر١٠ ٪ ، بينما خص الدائرة الوسطى ١ر٧٢ ٪ . ولـكن فى هذا المرة سنرى أن كوكبة غارب وأخواتها تتصدر القائمة وتتفوق كثيراً على كوكبة بلاعيم وأخواتها : ٨ر٤٧ ٪ مقابل ٣ر٢٤ ٪ على الترتيب . ماذا عن الإحتيـــاطى المتبقى ؟ هنا يعود الإختلال مرة أخرى إلى منتهاه : فتصبح الدائرة الوسطى هى كل شيء وما عداها لا شيء ، وتعود الغلبة المطلقة للشق الشرقى منها . فالأرقام تعطى للدائرة الشمالية ٩ر٢ ٪ فقط ، وتعطى للدائرة الجنوبية ٤ر٠ ٪ ليس إلا ، ثم تحتفظ بنحو ٩٦ ٪ للدائرة الوسطى : ٦ر٧٨ ٪ لبلاعيم وأخواتها ، ٤ر١٧ ٪ لغارب وأخواتها .

أخيراً فلننظر إلى العلاقات والارتباط بين معدلات الإنتاج السنوى والتراكمى والإحتياطى . هنا نلقى علاقات دالة وثيقة وملفتة للنظر . ولعل أوثقها ما يقوم بين الإنتاج السنوى والإحتياطى . فسواء أخـذنا إنتاج الحقول المنفردة أو الـكوكبات المجمعة ، فثمة يتبدى معامل إرتباط كامل نكاد نقول يبلغ الواحد الصحيح . فالنسب المئوية تتواكب صعودا وهبوطا بين الطرفين ، كأنما مدى السحب السنوى وظيفة بطريقة ما للرصيد الـكامن . وعلى العكس من ذلك تتناسب قيم الإنتاج التراكمى مع الرصيد المتبقى تناسبا عكسيا . فالحقول والـكوكبات التى أعطت أكثر ما أعطت هى التى أصبحت من أفقرها نسبيا . إلا أن معامل الارتباط هنا ليس بنفس القوة بين الإنتاج السنوى والإحتياطى . وبديهى بعد هـذا ألا تـكون علاقة واضحة محددة بين الإنتاج السنوى والإنتاج التراكمى .

ولنختتم دراستنا الآن بالأرقام التفصيلية للإنتاج السنوى ، وللإنتاج التراكمى ، وللإحتياطى المتبقى ـ محسوبة جميعها على أساس ٦٢ – ١٩٦٣ ومعطاة بالقيم المطلقة والنسبية ـ وذلك بالمتر المـكعب .

الانتاج السنوى ٦٢ – ١٩٦٣

سيناء – الحقول		٪	الكوكبة	٪	الصحراء – الحقول		٪	الكوكبة	٪
سدر	١٦٢,١٦٣	٢,٧							
عسل	١٤٠,٤١٦	٢,٣	٣١٩,٦٤١	٥,٣					
مطارمة	١٧,٠٦٢	٠,٣							
سدرى	٨٧,٥٩٣	١,٦			كريم	٩٧,٧٠٤	١,٦		
ابورديس	١٢٥,٠١٠	٢,١			بكر	٣٧٥,٨٨١	٦,٤	١٫٢٠٧٫٩٤٢	٢٠,٤
بلاعيم ارضى	٣,٤٠٠,٤٠٢	٥٧,٦			غارب	٧٣٤,٣٤٧	١٢,٤		
بلاعيم بحرى	٦٩٣,٩٤٦	١١,٧	٤,٣٤٨,٧٥٩						
أكا	٢٠,٧٠٧	٠,٣		٧٣,٤	الغردقة	٢٩,٢١١	٠,٥	٢٩٫٢١١	٠٫٥
فيران	٣١,١١١	٠,٣							
المجموع			٤٫٦٦٨٫٠٠٠	٨٧٫٧	المجموع			١٫٢٣٧٫١٤٣	٢٠٫٢

الانتاج التراكمى حتى ٦٢ – ١٩٦٣

سيناء					الصحراء				
الحقول		٪	الكوكبة	٪	الحقول		٪	الكوكبة	٪
سدر	٥,٦٨٣,٣٨٥	٨,٨							
عسل	٥,٠٩٨,٧٠٦	٧,٩	١٠,٩٣٩,٥٠٠	١٦,٩					
مطارمة	١٥٧,٤٠٩	٠,٢							
سدرى	٣٣٠,٦٤٦	٠,٥			كريم	٢١٨,٨٧٠	٠,٣		
أبورديس	١,٠٦٥,٥٨٨	٢,٤			بكر	٩٣٣,٥٨٦	١,٤	٣٠,٦٩٠,٠٠٧	٤٧,٨
بلاعيم ارضى	١٢,٧٨٦,٤٨٨	١٩,٩			غارب	٢٩,٥٣٧,٥٥١	٤٦,١		
بلاعيم بحرى	٧٢٤,٣٤٥	١,١	١٥,٦٢٨,٩٣٠	٢٤,٣					
أكما	٣٥,٨٣٣	٠,٠٦			الغردقة	٦,٤٣٠,١٨٢	١٠,٠		
فيران	١٧٣,٦١٦	٠,٣			جمسة	٢٣١,٨٥٨	٠,٣	٦,٦٦١,٩٤٠	١٠,٣
أبو دربة	١٢,٤١٤	٠,٠٢							
المجموع			٢٦,٥٦٨,٤٣٠	٤١,٢	المجموع			٣٧,٣٥١,٩٤٧	٥٨,١

الاحتياطى المتبقى بعد ٦٢ – ١٩٦٣

سيناء

الحقول		٪	الكوكبة	٪
سدر	١ر٤٣٢ر٠٠٠	١ر٦	٣ر٥٨١ر٠٠٠	٢ر٩
عسل	٨١١ر٠٠٠	٠ر٩		
مطارمة	٣٣٨ر٠٠٠	٠ر٤		
سدرى ؟		؟	٧٠ر١٨ ر٠٠	٧٨ر٦
ابورديس	٢ر٣٧٥ر٠٠٠	٢ر٦		
بلاعيم أرضى	٤٧ر٥٠٢ر٠٠٠	٥٢ر٧		
بلاعيم بحرى	٢٠ر٦٨١ر٠٠٠	٢٣ر٠		
أكما	٣٢٠ر٠٠٠	٠ر٣		
فيران	٤٠ر٠٠٠	٠ر٠٥		
المجموع			٧٣ر٤٩٩ر٠٠٠	٨١ر٥

الصحراء

الحقول		٪	الكوكبة	٪
كريم	٧٥٦ر٠٠٠	٠ر٨	١٥ر٨٠٠ر٠٠٠	١٧ر٤
بكر	٩ر٤٢٣ر٠٠٠	١٠ر٤		
غارب	٥ر٦٢١ر٠٠٠	٦ر٢		
الغردقة	٣٦٩ر٠٠٠	٠ر٤	٩٣٦ر٠٠٠	٠ر٤
المجموع			١٦ر١٦٩ر٠٠٠	١٧ر٨

الجناح الغربى

إذا قلنا الجناح الغربى فقد قلنا « بترول الصحراء » — بمعنى الصحراء الكبرى. ومع ذلك فلابدأن نميز ابتداء بين نوعين أو إقليمين من البترول فى المغرب العربى ، وإن كانا أبعد ما يمكن عن التكافؤ فى الأهمية . فهناك بترول أطلس ، وبترول الصحراء . ونقصد بالأول مجموعة نقط ـ نقط بحتة ـ منثورة فى المغرب البحرى وفى تضاعيف الالتواء الأطلسى ، ولا تزيد عن حواشى هامشية وحقول قزمية . ولكنها أقدم زمنياً من بترول الصحراء ، إذ يرجع أقدمها إلى ما بعد الحرب الأولى وبعضها إلى ما بين الحربين . ولا بأس أن نتتبعها قبل أن ندخل فى النطاق الحقيقى بترول الصحراء .

فثمة من قديم نسبيا حقل غاز جبل عبد الرحمن فى شبه جزيرة رأس بون (دخلة المعاوين) فى تونس . ومنه يخرج أنبوب طوله ٥٠ كم يحمل الغاز إلى تونس المدينة بطاقة قدرها ٦ مليون متر ٣ فى السنة . وفى الوقت الحالى يجرى البحث عن الزيت فى الهوامش الرسوبية من تونس وفى جزيرة جربة ، ولكن بغير نتيجة للآن . أما فى الجزائر فكانت أول بئر للبترول شيئاً رمزياً بحتا : بئر تلونت Tliouant قرب مستغانم شرقى وهران ، ظهرت فى ١٩١٣ واغلت حتى نضوبها فى ١٩٤٠ نحو ٣٠ ألف طن فقط ! وحقل وادى قطرينى قرب أومال Aumale جنوب شرق مدينة الجزائر بنحو ١٠٠ كم كان أكبر آبار جزائر ما قبل الصحراء ، بدأ فى ١٩٥٠ وبلغ قمة انتاجه فى ١٩٥٤ حين أغل ٨٥ ألف طن تراخى بعدها سريعاً وكثيراً حتى لم يزد عن ١٣ ألف طن فى ١٩٥٧ . وهناك بئر قرب جبل الضهرة هى عين الزفت ،

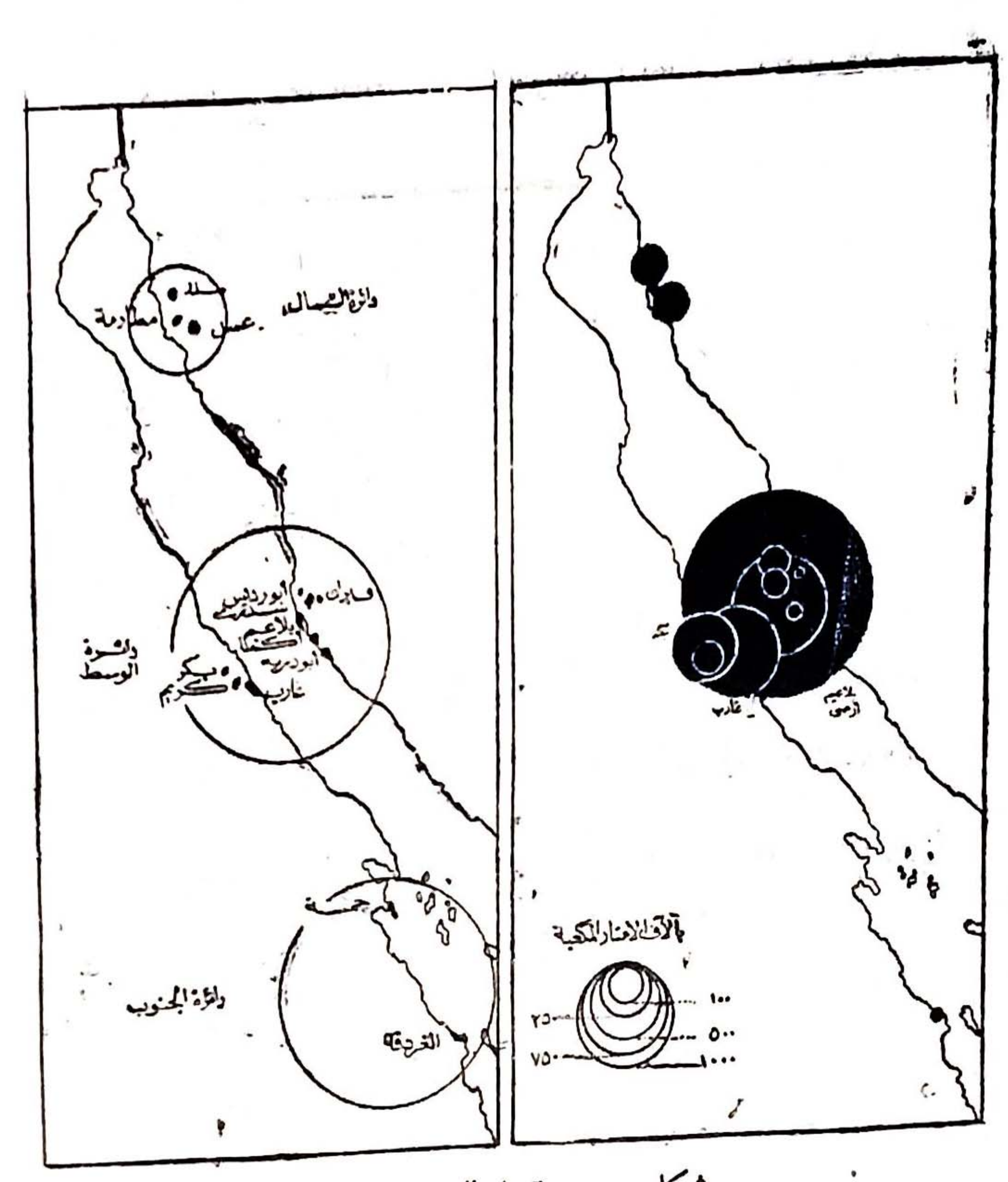
وأخرى جنوب جبل ديرا شمال بلدة سيدى عيسى (١) . وثمة حقل جزائرى آخر — عنك — قرب تبسة على الحدود الشرقية ، ولكنه كان كذلك سريع الهبوط .

أما في المغرب فهناك بعض حقول فى منطقة التحام مقدمة جبال الريف بسهل الغرب فى حوض نهر سبو الأوسط والأدنى أو ما يسمى Rbarb—Prè—Rif وهذه بطبيعتها حوض رسوبى معتدل الالتواء . وأهم هذه الحقول حقل حريشة قرب سيدى قاسم (بتى جان) إلى الشمال من مكناس ، يليه حقل صغير هو سيدى فيلى . وكل الأهمية الانتاجية النسبية تذهب لحقل حريشة حيث وصل بإنتاج المغرب فى ١٩٥٧ إلى ٧٥ ألف طن ارتفعت فى كل من ١٩٥٦ ، ١٩٦٠ إلى المائة ألف أو نحو ٠٫٠١ ٪ من الإنتاج العالمى . وهناك مستودع للغاز فى كشولة شرق الصويرة ، وآخر فى دهار - يديد قرب العرايش .

أما بترول الصحراء فإبن الخمسينات فقط ولكنه الذى نقصد حين نتكلم عن المغرب بتروليا . هو الشقيق الأصغر سناً وحجما للجناح الشرقى من بترول العرب . وإذا كان محور أحواض الجناح الشرقى يترامى من الشمال إلى الجنوب فهذا يأخذ محوره من الغرب إلى الشرق . ثم هو أكثر قارية وبعدا عن البحر بعامة من الجناح الشرقى . وكما يقترب هذا الأخير من البحر كلما مضى جنوباً نحو الخليج ، يقترب محور المغرب من البحر كلما تقدم شرقاً فى ليبيا . وأكثر من الجناح الشرقى ، يعد هذا الجناح صحراويا صرفا فى كل قطاعاته . وهو بعد هذا أكثر تشتتاً وتوزعا إذ ينتشر على رقعة أشد انسياحا وتراميا . وفى ليبيا بالذات سيلاحظ أن نمط الحقول شديد التبعثر والانتثار وتكثر فيه الحقول الضئيلة . وهذا ولا شك يعكس صورة الامتيازات الرقعية الضئيلة المفتتة التى تبدو كرقعة الشطرنج .

---

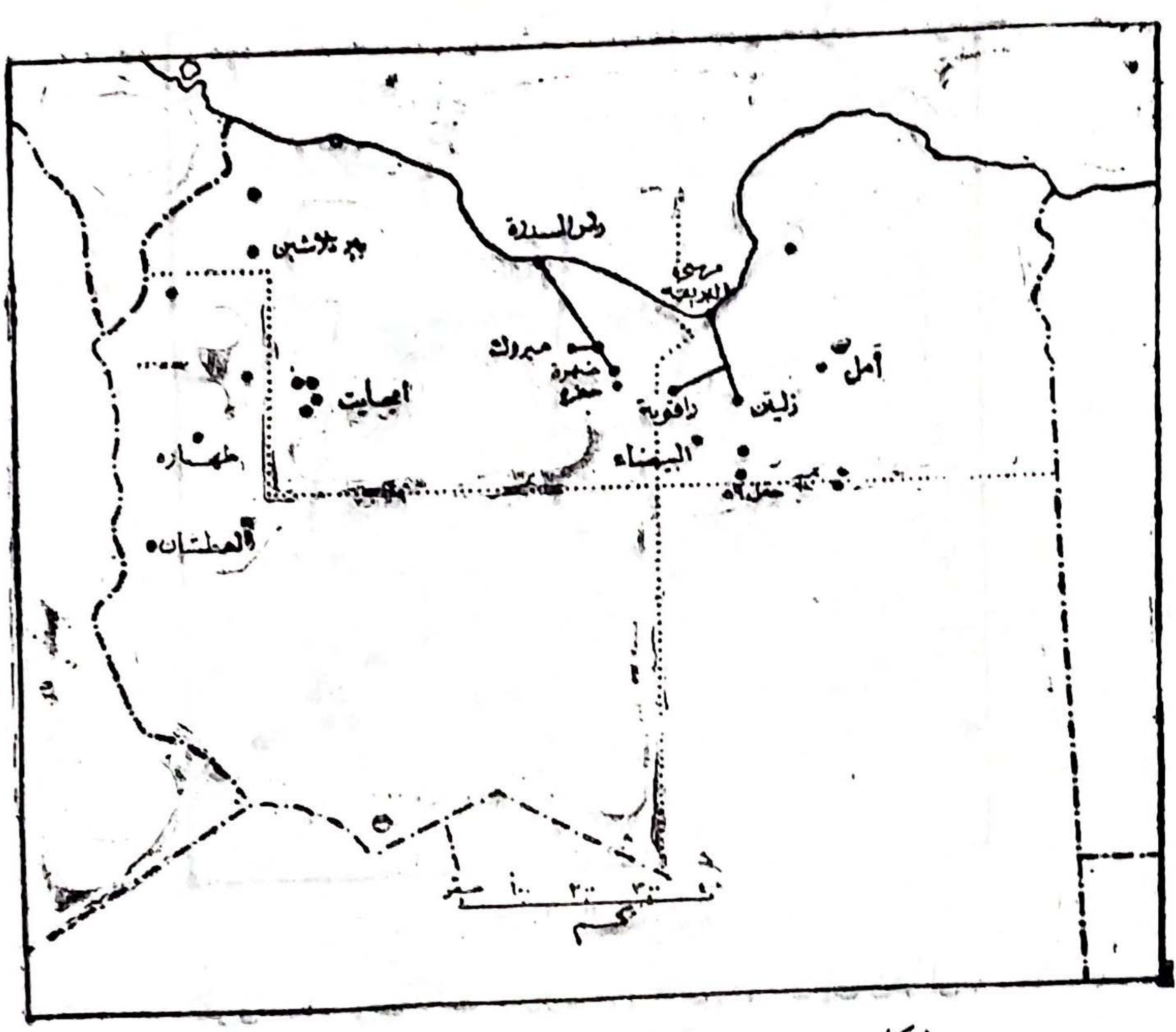
(١) أحمد توفيق المدنى . جغرافية القطر الجزائرى . الجزائر ١٩٥٢ ، ص ٧١ .



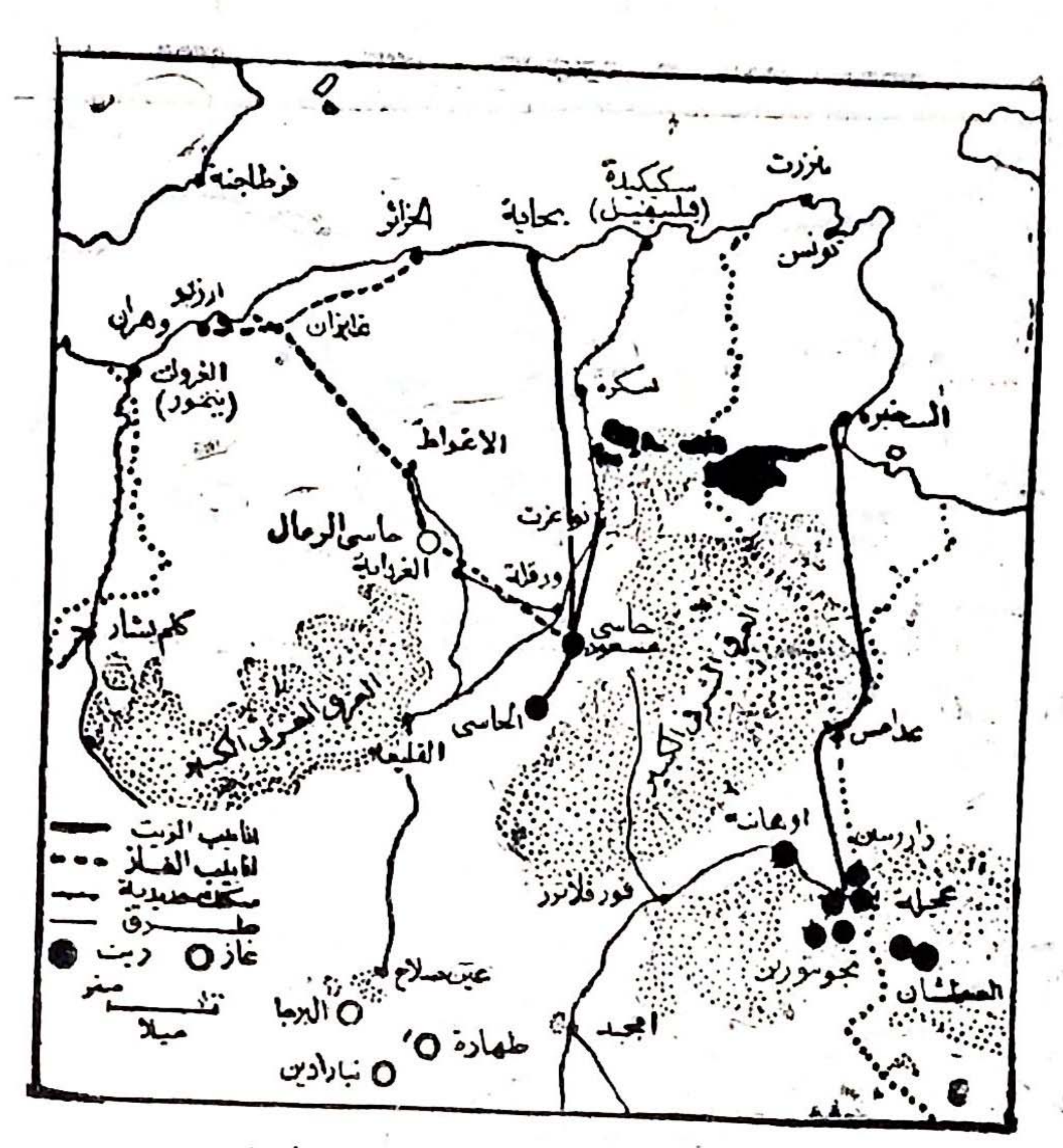
شكل ٩ - حقول البترول فى مصر

حجم الانتاج ٦٢ - ١٩٦٣ النمط الجغرافى

شكل ١٠ - حقول
البترول فى فلسطين
المحتلة (عن لونجريج)



شكل ١١ – حقول البترول فى ليبيا . (عن كلارك)



شكل ١٢ — بترول الصحراء فى الجزائر .

تقرر مد أنبوب ثالث للبترول من حاسى الرمال إلى وهران .

(عن كلارك)

والواقع أننا يمكن أن نقول إن النمط الجغرافى للحقول فى المشرق العربى هو من النوع « النووى nuclear » أى المركز أحواضاً وحقولا وآبارا ، بينما النمط أدنى فى المغرب العربى عامة – ولكن فى ليبيا خاصة – إلى النوع « السديمى nebular » المشتت ، المشتت حقولا فى الجزائر وآبارا فى ليبيا . ونقول حقولا فى الجزائر وآبارا فى ليبيا لأن أحواض الجزائر تتألف من حقول مكتملة وإن تباعدت بينما هى فى ليبيا تتألف من آبار بترول منفردة متباعدة أكثر منها فى حقول ملمومة .

وبديهى أن النمط الجغرافى للبترول فى المغرب لازال فى مرحلة التكوين ولم يتبلور بعد تماما ولم تتحدد بعد حدود التراكيب المنتجة . ولكنه مع ذلك واضح بدرجة تكفى للتمييز بين أحواض ستة ؛ أربعة بترولية هى حوض سدرة ، طرابلس ، فزان – فور بولنياك ، حاسى مسعود ، واثنان للغاز هما حاسى الرمال ، عين صلاح . ومعنى هذا أن لليبيا حوضين من البترول بينما تملك الجزائر حوضين من البترول وحوضين من الغاز . وسندرس فيما يلى هذه الأحواض تباعا .

حوض سدرة(١)

يقع هذا الحوض جنوب خليج سدرة (سيرت) فى ليبيا على جانبى الحدود الاقليمية بين برقة وطرابلس . وهو أهم أحواض ليبيا بغير منافس . وهو يأخذ شكل قطع بيضاوى ناقص محوره من الشرق إلى الغرب بعامة ، لعل مركزه حقل زليتين . ومن حسن الحظ أن هذا الحوض الصحراوى

---

(١) فى هذا الحوض راجع :

Clarke, « Changes in Sahara », pp. 114—6. « Oil in Libya ete " pp. 45—8.

البراوى . ثورة البترول . . . ص ١٤٠ — ١٤٩.

يخلو من الكثبان الرملية الشاسعة وتغلب فيه مسطحات الرمال الخشنة والحصى الممهد والرقع الملحية والتلال الصغيرة Mesas ، كما أن تقوس خليج سدرة المقعر يقربه من البحر كثيراً .

وأول وربما أهم حقول هذا الحوض البترولي هو زليتن . وقد كشف في ٨-١٩٥٩ على عمق ٦٠٠٠ قدماً انتج نصف مليون طن في ١٩٦١ . وفي آخر ١٩٦٢ كان به ٣٦ بئراً منتجة . ويقدر المستخرج والصادر منه في ١٩٦٢ بمتوسط ١٢٥ ألف برميلاً في اليوم بمجموع قدره ٦٫٣ مليون طن أو نحو ٧٠٪ من كل انتاج ليبيا في ذلك العام . ويمتد إليه الآن أنبوب من البحر لحقن الماء فيه لحفظ مستوى الضغط به ومضاعفة الإستخراج منه . وإلى الغرب من زليتين حقل أصغر هو راجوبة ، وكان به حتى أوائل ١٩٦٢ نحو ٢٠ بئراً منتجة قدر أنها ستغل في ١٩٦٣ بين ٤٠ ، ٦٠ ألف برميلا إن لم تصل إلى ٨٠ ألفا . إلى الجنوب من زليتين تم كشف حقل صغير هو واحة ، تم في ١٩٦٠ ، يستمد زيته من عمق ٦٠٠٠ قدماً . وكان به حتى قريب ٥ آبار موزعة في ٢٥ ميلا مربعا . وكانها تبشر بحقل إقتصادي وإن لم يكن قد تحدد حدودا بعد . ثم إلى الجنوب من واحة وغير بعيد عنه كشفت ١٩٦٠ عن حقل صغير آخر هو ضيفة ، وهو قريب الشبه حجما وإمكانيات بواحة . ثم ندور غربا لنجد حقل البيضاء إلى الشمال الغربي من واحة - ضيفة والجنوب الشرقي من زليتن - راجوبة .

ثم في أقصى الغرب يقع حقل باهي - ضهرة الذي تم فيه ٥٠ بئراً مع أواخر ١٩٦١ . وقد إرتفعت الآبار إلى ٧٢ في منتصف ١٩٦٢ ومقرر أن تصل إلى المائة قريباً . وقد بدأ الإنتاج في ضهرة في ١٩٦٢ بمحصول بلغ ٢٫٨ مليون طن أو نحو ٢٠ ٪ من إنتاج ليبيا . فهو بذلك ثاني حقول البلد

بعد زليتن . ويفصل بين شقى الحقل نحو ٢٥ ميلا ، ولكنهما فى الأغلب حقل واحد ساحته ١٠٠ ميلا مربعا . وهما يختلفان فى عمق الطبقة الحامله، فهى على عمق ٦٠٠٠ قدماً فى باهى ، ٣٠٠٠ فى ضهرة . والمقدر أن رصيد الحقل المزدوج نحو ١٠٠٠ مليون برميلا . وميزة الحقل الواضحة بعد هذا قربه من البحر فلا يفصله عنه إلا ٨٠ ميلا . وإلى الغرب من باهى كشف حقل صغير هو مبروك ، بينما إلى الجنوب من الضهرة كشف حقل آخر صغير هو الحفرة .

وننتقل إلى أقصى الشرق إلى واحة جالو لنجد واحدا من أحدث الإكتشافات حقل جالو (١٩٦٢) على بعد ٩٠ ميلا شمال شرق حقل واحة وفى خط عرض زليتن تقريباً . وقد تم حفر ٧ آبار فى الحقل حتى أواسط ١٩٦٢ فى رقعة مساحتها ٤٠ ميلاً . ولكن المقدر أن هذا ربما كان أغنى حقل فى حوض سدرة ، وإليه قد يتحرك قلب الحوض بعد أن يتم سبر كل أغواره . والطبقات الحاملة للزيت هنا أكثر من واحدة - ثلاث ربما - وكلها سميكة وكلها قريبة من السطح حيث لا يزيد أعمقها على ٦٠٠٠ قدماً ، مما يجعله حقلاً اقتصادياً بالكيف كما هو بالكم . وقريب من الحقل ظهر حقل أمل . فحول واحة — ضيفة ، وحول باهى — ضهرة ، وحول جالو ، وعلى مقربة جداً من ساحل خليج سدرة قرب الكوع ، تفجرت آبار منفصلة تكمل النمط السديمى الأصيل للحوض . وجدير بالذكر أن حوض سدرة يقع عبر الحدود الإقليمية بين برقة وطرابلس . فتقع حقول جالو ، أمل ، زليتن ، راجوبة ، واحة ، ضيفة ، البيضاء فى برقه ، ولا تقع فى طرابلس إلا حقول باهى - ضهرة ، مبروك ، الحفرة .

حوض طرابلس

ظل ظهور البترول فى ليبيا محصورا إلى حين فى منطقة خليج سدرة حتى ظن أن هذا موطنه الأساسى والأخير. ولكن البترول لم يلبث أن زحف وتوسع يمينا وشمالا. يمينا فى قلب برقة كما فى چالو، وشمالا فى قلب طرابلس حيث بدأت تتكون منطقة بترول فيما سمى «برصيف الصحراء الغربية Western Desert Platform» والذى يمتد من مرتفعات طرابلس الساحلية حتى حدود طرابلس ـ فزان. وقد حفرت بضعة عشر بئرا فى هذه المنطقة منها ما يقع توا على الحدود الليبية ـ التونسية ـ الجزائرية، ومنها مايقع قرب الجبل أو فى مرتفعات السودا. وكلها انتجت زيتا بكميات متفاوتة ومن أعماق مختلفة ولكنها ليست غائرة ولكن المحصول لم يكن فى أى منها إقتصاديا تماماً بحيث يبرر الإنتاج ولم يكن الموقع الداخلى المتطوح مما يبرر تكاليف النقل. ولكن إمكانيات هذه الآبار لازالت قيد الاختبار والتقدير. والأمل كبير فى أن تنجح منها حقول إنتاج فعال. وأهم هذه الآبار حتى الآن هى بير تلاشين جنوب جبال النفوسة ونالوت، ثم على الحدود الإقليمية بين طرابلس وفزان آبار Emgayat، طهارة Tahara.

حوض فزان ـ فور بولينياك [1]

يقع هذا الحوض الهام على جانبى الحدود السياسية الليبية ـ الجزائرية، ولكن أغلبه فى الجزائر. ولقد كان من المعروف منذ مابعد الحرب العالمية

---

(١) فى أحواض بترول الجزائر راجع : Changes in Sahara. opcit,,pp. 109—113 Clarke, وأنظر أيضا حليم جريس . بترول العرب فى شمال أفريقية . مجلة مرآة العلوم الاجتماعيه . ديسمبر ١٩٦١ ص ٤٦ — ٥٨ .

الأولى أن فزان « تطفو على بحيرة من الزيت » ، ولكن البحث لم يبدأ إلا في السنوات الأخيرة أو الخمسينات حيث كشف في ١٩٥٩ بئر العطشان الذى يمثل الامتداد الليبي للحوض ولا يبعد إلا ٥٠ ميلا عن حقل عجيلة بالجزائر. وهو يقع على بعد ٥٠٠ ميل جنوب طرابلس . وهو وإن كان لا يزيد عن ٢١٠٠ قدما فى عمقه فإن قدرته لا تزيد على ٧٠ طنا أو ٥٠٠ برميل يوميا مما لا يبرر النفقات . ولهذا أهمل رغم أنه كان أول ما كشف من آبار فى ليبيا . وقد كشف بعد ذلك الزيت والغاز فى تركيب قريب مماثل فى العمق إلى الجنوب الشرقى من العطشان ، ثم عثر على الغاز فى بئر أخرى أقل غورا إلى الشمال الشرقى منه بمسافة ١٢٠ ميلا . كذلك انبثق الزيت فى بئر وادى الصحراء على بعد ٨٦ ميلا فقط من الحدود مع الجزائر . ذلك هو القطاع الليبي من الحوض إذن : شريحة ضئيلة وغير منتجة حاليا .

أما فى وسط شرق الصحراء الجزائرية فيسمى الحوض بفور بولينياك Fort Polignac . وهو يقع إلى الجنوب من العرق (الإرج) الشرقى الكبير ، ويتألف من عدة حقول مبعثرة تقع على مسافة أميال قليلة من الحدود . وقد كانت حقول عجيلة على الحدود توا هى أول ما كشف (١٩٥٦) . وهى تمتد من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٠ كم وعلى عمق ١٤٠٠ قدما ، ويقدر رصيدها بنحو ٣٠ مليون طن . وتراكيب هذا الحقل من الحجر الرملى العصر الفحمى(١) وقد كان بها حتى بداية ١٩٦١ نحو ١٢٨ بئرا منتجة ، ولكن الإنتاج كان يتراوح حول ٣٠٠ برميلا يوميا ، ثم ارتفع عدد الآبار إلى نحو ١٦٠ وارتفع الانتاج حتى صار ١٫٨ مليون طن فى السنة فى ١٩٦٢ أو نحو ٨٫٨٪ من انتاج الجزائر . وبهذا يكون عجيلة ثالث حقول الجزائر أهمية .

---

(١) ريمون فيرون . الصحراء الكبرى (مترجم) القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٨٥ .

وإلى الغرب من عجيلة بنحو ٧٠ كم وفى نفس العام ١٩٥٦ ، كشف حقل تجونتورين . وهو يتكون من تراكيب جيولوجية تشبه تراكيب عجيلة أى من العصر الفحمى إلا أنها أكثر تعقيدا وأبعد غورا إذ تصل إلى ٢٠٠٠ متر . وهو فى النهاية أقل رصيدا فقد قدر احتياطيه بنحو ١٥ مليون طن قابلة للزيادة . وقد أعطى لأول مرة فى ١٩٦١ بضعة آلاف من الأطنان ثم فى ١٩٦٢ وصل إلى ٣و٠ مليون طن . فهو رصيدا وانتاجا من حقول الدرجة الثالثة .

ولكن بعد سنتين - ١٩٥٨ - اكتشف حقل قريب أكبر وأغنى على بعد ٣٥ ميلا شمال غرب عجيلة وهو حقل زارزيتين . ومساحته ٤٠ كم^٢ ، وجاء بتروله على عمق بسيط اقتصادى . وأهم من ذلك رصيده الذى قدر أولا بنحو ٣٠ مليون طن ثم ارتفع التقدير إلى ٨٠ مليونا . فهو إذن قلب هذا الحوض . كان به حتى ١٩٦١ نحو ٦٢ بئرا منتجة . وقد بلغ انتاج زارزيتين فى ١٩٦٠ نحو ٩ر٠ مليون طن ، وكان بذلك ثانى حقول الجزائر أهمية ، ومنذ ذلك الحين ظل محافظا على هذه المكانة . فأغل فى ١٩٦١ نحو ٢ر٥ مليون طن ارتفعت إلى ٢ر٧ فى ١٩٦٢ ، أى أنه الآن فى مرتبة زليتن فى ليبيا تقريبا . وهذا يعادل فى نفس الوقت ٣٥ ٪ من انتاج الجزائر فى ذلك العام .

بعد هذا يكمل الحوض على الأطراف عدة حقول أصغر هى هضب العرايش (عذب الأعراش ؟) Adeb Larache ، ثم وادى بركات ، وعلى بعد ٥٠ كم جنوب تجونتورين كشف فى ١٩٦١ حقول Ouan Taredert ، Ouan Taredjeli ، ووادى زنانى Zenani . كذلك عثر على الغاز والبترول معا فى موقع جنوب غربى عجيلة بنحو ٦٠ ميلا . وأهم من ذلك جميعا حقل أوهانيه Ohanet الذى كشف فى ١٩٦٠ على الأطراف الشمالية للحوض .

والذى كان ينتظر فى ١٩٦١ أن ينتج بمعدل ١٫٥ مليون طن سنويا من نحو ٣٠ – ٢٥ بئرا . ولكنه لم يعط فى تلك السنة إلا أقل من ٠٫٣ مليون طن ارتفعت فى ١٩٦٢ إلى نحو ٠٫٧ مليونا من ٢٦ بئرا . وبالحقل رصيد كبير من الغاز يقدر بنحو ١٠ آلاف مليون متر ٣ معظمه من الميثين . ويبلغ متوسط عمق الآبار به نحو ٧٥٠٠ قدما (١) .

وعند هذا الحد يحسن أن ننظر إلى الحوض ككل . فنجد أنه يشمل أربعة حقول رئيسية أعطت من أكثر من ٣٠٠ بئر نحو ١٠ مليون طن فى ١٩٦٢ أو حوالى ٥٠ ٪ من انتاج الجزائر ، أكثر من ٧٠ ٪ منها من زارزيتين وحده . وقد قدر أن الحوض يحوى ما لا يقل عن بليون برميلا من الاحتياطى القابل للاستخراج أو نحو ١٠٠ مليون طن (٢) . وأخيرا فسيلاحظ أن هذا الحوض فى مجموعة صحراوى هامشى داخلى . فهو لا يعانى من مواصلات الموقع فحسب ، وإنما من الوسط اللامعمور الجاف الذى ينقصه الماء والحياة البشرية . كما يلاحظ أن أعماق الطبقة المنتجة فيه ليست شديدة الغور ، كما يمتاز خامه الخفيف بالجودة وقلة الكبريت فيه . أما آباره فقل فيها ما جاء جافا ، والغالبية العظمى آبار منتجة ، وكثير منها يخرج الغاز مع الزيت .

حوض حاسى مسعود

يقع على بعد ٦٠ ميلا جنوب شرق واحة ورقلة وعلى بعد ٣٠٠ ميلا شمال غرب حوض فزان ـ بوليناك السابق . وقد كشف البترول هنا فى

---

(١) الراوى . ص ٧٢ .

(٢) مجلة بترول الشرق الأوسط . نوفمبر ديسمبر ١٩٥٩ . ص ٩ .

١٩٥٦ على عمق ١١ ألف قدم فى منطقة وادى المياه ، ونسب نسبة موفقة بالفعل إلى بئر قريبة هى حاسى مسعود التى تعنى البئر المباركة . وبعكس الحوض السابق لا يتألف هذا الحوض إلا من حقلين فقط . ولا شك أن حاسى مسعود هو قلب وصلب الحوض معا . فقد قدر رصيده أولا بنحو ٥٠٠ مليون طن ، بل قدر أنه قد يرتفع مع الكشف إلى ١٠٠٠ مليون طن ، وعد من أكبر سبعة حقول فى العالم . ولكن المتفق عليه الآن أن هذا مبالغة ، وأن الرصيد ربما كان ٣٠٠ مليون طن ، تمتد بسمك نادر (١٥٠ مترا) وعلى عمق ٣٠٠٠ مترا . (١) وعدا هذا العمق الغائر فإن الحقل يعانى من تفاوت المسامية ودرجة الإنفاذ . والطبقات الحاملة للبترول هنا ترجع إلى الترياسى ونوع البترول ممتاز (٢) . وقد بلغ الإنتاج فى ١٩٦٠ نحو ٦٫٥ مليون طن من ٥٠ بئراً منتجة ، وارتفع فى ١٩٦١ إلى ٨٫٢ مليوناً . وقد وصل عدد الآبار فى ١٩٦٢ إلى ١٢٤ بئراً أغلبها منتجة . وقد أعطى الحقل فى ١٩٦٢ حوالى ٩٫٣ مليون طن أى ٤٥ ٪ من انتاج الجزائر . وهو بهذا ليس أول حقول الجزائر فقط ولكنه وحده يعادل كل حوض فور بولينياك تقريبا . هذا وينتج الحقل الغاز الطبيعى إلى جانب البترول ، وأغلبه من الميثين والايثين كما يخرج منه البتيومين والبروبين . والواقع أن حاسى مسعود حقل غاز بقدر ما هو حقل بترول .

وإلى جانب هذا الحقل العملاق ، يكمل الحوض حقل قزمى ضئيل هو حقل الجاسى الأقرب El - Gassi El - Agreb على بعد ٧٥ ميلا جنوب غرب حاسى مسعود . وهو لا يزيد عن كوكب بل قمر كوكب يدور فى فلك

(1) Nevill Barbour, A Survey of North West Afriéa (The Maghrid) Lond., 1959, p. 259.

(٢) فيرون ، الصحراء الكبرى ، ص ٣٧٨

شمس عظمى . فقد بدأ الانتاج فى ١٩٦١ - من طبقات منتجة سمكها ٧٥ مترا وعلى عمق ١١ ألف قدم - بما لا يزيد عن ٥ر. مليون طن ارتفعت إلى ٧٥ر. مليونا فى ١٩٦٢ . وبهذا يصل بانتاج الحوض كله إلى ١٠ مليون طن أو ٥٠٪ من الجزائر . ومعنى هذا أن انتاج الجزائر يأتى الآن من حوضين اثنين ، ولكنهما إن تساوى فى الانتاج فهما يختلفان جدا فى الرصيد ، ولهذا فمن الممكن أن نتنبأ أن حصة حوض حاسى مسعود من الانتاج القومى لابد سترتفع فيما بعد .

هذا ويبدو أن الكشف والبحث المستمر بدأ يضيف نويات جديدة إلى حوض حاسى مسعود ، وبهذا بدأ يتحول إلى حوض متعدد النوايا . فإلى الغرب على بعد بضعة كيلو مترات فى شمال شرق فور فلاترز Fort Flatters كشف حقل هام فى ١٩٦٠ هو حقل تين فوى Tin Fouye عمقه ٥٥٠٠ قدماً . والمقول أنه من أغنى الحقول التى كشفت منذ زارزيتين . كذلك تم كشف حقل غرد الباقل Rhourd el-Baguel على بعد ٦٥ ميلا جنوب شرق حاسى مسعود ، من طبقات رملية على عمق ٨٦٠٠ قدماً . وقد أغلت فى بدايتها بمعدل ٥٥ برميلا فى الساعة . وفى أطراف أخرى من حاسى مسعود يستمر الكشف فى الآبار الاختبارية العديدة التى يبشر بعضها بالزيت . وأخيراً وإلى الجنوب من حاسى مسعود والجنوب الشرقى من الجاسى الأقرب تقع كوكبة من حقول الغاز هى حاسى الطوارق والجاسى الطويل ونزلة . ومجموعها يمثل الأطراف القصوى للحوض الكبير عامة .ومن الواضح بعد هذا أن حوض حاسى مسعود فى مجموعه يمثل حوضاً إنتقاليا بين حوضى بولينياك وحاسى الرمال ، وأعنى بذلك الموقع أولا فثلاثتهـا تقع تقريباً على محور واحد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى وبفواصل متقاربة إلى حد ما ، والنوع ثانيا حيث يجمع بين البترول والغاز ، والرصيد أخيرا حيث يزيد عن الأول ويقل عن الثانى .

وسيلاحظ عند هذا الحد أن حوضى بترول فور بولينياك وحاسى مسعود فى الجزائر يقعان خلف مناجم حديدها فى شرق الإلتواء الأطلسى خاصة فى ونزة وشرق تونس. وقد حدى هذا الموقع بالاستعمار الفرنسى قبل طرده إلى التفكير فى ربط هذا المعدن وتلك الطاقة معا فى مشروع صناعى ضخم على نحو ما كان يفكر فيه من ربط المعادن والقوى فى غرب الجزائر وشرق مراكش. وقد أطلق على هذا وذاك اسم منطقة التنظيم الصناعى والاستراتيجى رقم ١ ورقم ٢ على الترتيب (ZOIA 1& 11) Zone d'Organisation Industrielle & Stratégique لتكون كل منهما بؤرة صناعية وخلية عارمة على ضلعى المغرب الكبير. وكان المشروع الشرقى يتضمن الخروج إلى البحر عن طريق قناة عبر الشطوط التونسية إلى خليج قابس يستغل إنحدارها الداخلى فى توليد القوة للمشروع. وفى كلا الحالتين ستلاحظ متاعب الجزائر فى الخروج إلى البحر حيث أن طريق تونس أو مراكش أقصر دائماً. على أن المشروع الشرقى كنظيره الغربى كان يعتمد على وحدة الاستعمار السياسى فى الوحدات الثلاث، ولهذا أصبح مثله يحتاج إلى إعادة دراسة بعد الاستقلال (١).

حوض حاسى الرمال

هذا هو أعظم حقل للغاز الطبيعى فى الجزائر. كشف فى ١٩٥٦. ويقع شمال غرب الغرداية بنحو ٤٠ ميلا وجنوب مدينة الجزائر بنحو ٣٨٠ ميلا. أى أنه يحتل الجزء الشمالى من منطقة تيدكات. وهو بلا شك من أغنى

---

(١) محمد رياض، كوثر عبد الرسول. الاقتصاد الأفريقى القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٥٨ — ٣٥٩؛ ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، ص ٤٦٧ وما بعدها.

حقول الغاز فى العالم ، إذ يقدر رصيده الذى يمكن استثماره بنحو ٧٥٠٫٠٠٠ إلى ١٠٠٠٫٠٠٠ مليون متر٣ ، أى ما يعادل ١٠٠٠ مليون طن من الزيت . ويبلغ عمق خزان الغاز نحو ٢٤٠٠ مترا . وطبقاته السائدة هى الديفونى وما قبل السيلورى . وقد حفرت آبار عديدة ، وبدأ الإنتاج فى ١٩٦١ بمعدل مبدئى قدره ١٫٥ مليون متر٣ يوميا ، صدر أغلبه واستهلك أقله محليا . كما أنتج الحقل كمية كبيرة من الغاز الطبيعى السائل . ورغم أن حاسى الرمال حقل عملاق ، فهو يكاد يقوم وحده ، ولكنه وحده حقل كامل برمته .

حوض عين صلاح

هذا الحوض ليس جديدا نسبيا . فقد كان الاعتقاد أن هناك حوضين فقط فى الجزائر ، هما حقل الشمال حاسى مسعود والشرق پوليفياك ، ولكن تكشف أخيرا أن الصحراء الغربية غنية بالبترول . فظهر حقل للبترول قرب توات . ولكن الحقل الأهم هنا هو حقل الغاز الطبيعى فى جنوب تيدكات حول عين صلاح (١٩٥٦) فى جبل البرجا Berga ، جبل الطهارة Thara ، تبارادين Tibaradine . والواقع أن حقل البرجا كان أول كشف للغاز فى الصحراء الجزائرية (١٩٥٤) ، وكان بذلك حدثا كبيرا لأنه أثبت وجود الغاز فى طبقات الزمن الأول من الديفونى وما قبل السيلورى .

والحقل يقع على بعد ٦٠٠ ميلا من الساحل . وهذا الموقع السحيق هو العقبة الكبرى التى تمنع الإستثمار حتى الآن . ويقدر أن الرصيد ١٠٠٫٠٠٠ مليون متر٣ ، وهذا يعادل ١٠٠ مليون طن من الزيت ، كما يعادل ¼ رصيد حوض اللاك Lacq الفرنسى فى إقليم اللاند أو ضعف رصيد حوض البو فى إيطاليا(١) . وينفرد حقل غاز عين صلاح بوجود غاز الهليوم فيه ،

ذلك الغاز النادر الذى كانت تحتكر إنتاجه الولايات المتحدة . كما أن الغاز الطبيعى نقى للغاية تصل فيه نسبة الميثين إلى ٩٥٫٥٪ . هذا وكون حقل عين صلاح حقل غاز أساسا لا يستبعد وجود الزيت فيه. واخيرا فإذا جمعنا حوض حاسى الرمال إلى حوض عين صلاح فمعنى هذا أن تيدكات هى دائرة الغاز الكبرى فى الصحراء ، وهى تستطيع أن تقدم ٢ مليون متر مكعب من الغاز يوميا (١) .

---

(١) فيرون . ص ٣٨٢ ، ٤٣١

الفصل الرابع

التكرير والإستهلاك

التكرير

سندرس التكرير أولا دراسة إقليمية، منطقة منطقة على التتابع، ثم نختمها بدراسة مقارنة عامة تحدد الملامح المشتركة والإتجاهات الرئيسية.

دراسة إقليمية

مصر

أول مصفى لتكرير البترول فى العالم العربى أنشىء فى مصر فى السويس فى ١٩١٣ فى السنة التالية لإنشاء مصفى عبدان فى ١٩١٢. أى أن تاريخ البترول فى مصر وإيران لا يتعاصران فقط إنتاجا وإنما تصنيعا كذلك. وكان هذا المصفى نتيجة مباشرة لاكتشاف حقل الغردقة. ومنذ البداية لم يكن هذا المصفى يعتمد على الخام المحلى وحده، بل كان يستكمل طاقته بالخام المستورد من إيران. وفى ١٩٢٢ أقيم فى السويس أيضا مصفى آخر صغير - حكومى - لتكرير حصة الدولة العينية من امتيازات الشركة ولم يكن إنتاجه يزيد عن ١٠٠ طن يوميا. وفى نفس الوقت زيدت كفاءة مصفى الشركة الكبير. وبعد اكتشاف كل من رأس غارب ثم حقول سيناء زيدت كفاءة المصفيين إلى ٢ر٢٥ مليون طن سنويا، ٣ر١ مليون طن سنويا على الترتيب - قابلة للزيادة ويلاحظ أن خام البحر الأحمر وخام سينا يعالج كل منهما فى

التقطير على حدة نظرا لإختلاف الكثافة النوعية بينهما . وتواجه المصافى المصرية مشاكل فنية خاصة بسبب ارتفاع نسبة الماء والكبريت فى الخام المحلى . وقد تم ربط حقول البترول حول خليج السويس بأنابيب حقلية ، كما بدأت الصناعات البتروكيماوية ومصنع للكوك وأسود الكربون Carbon-Black حتى أصبحت السويس «عاصمة الزيت» فى مصر واستحقت المنطقة الصناعية فيها اسم ضاحية الزيتية . ويلاحظ أن السويس تمتاز بأنسب موقع بالنسبة لحقول سيناء والبحر الأحمر على السواء ، كما أنها همزة الوصل الطبيعية بين حقول الإنتاج وسوق الإستهلاك .

وقد أنشىء أثناء الحرب خط أنابيب لمشتقات البترول White Products line بين السويس (عجرود) والقاهرة (مسطرد) . ومن القاهرة يمتد إلى حلوان بمصانعها الثقيلة والخفيفة . وقد قفزت صناعة التكرير فى الخمسينات قفزات كبيرة وذلك بزيادة طاقة مصنى السويس حتى وصلت الآن إلى ٣٫٥ مليون طن . وفى ١٩٥٦ تم إنشاء مصنى ثالث جديد بالمكس فى الأسكندرية بكفاءة ٣٥٠ ألف طن فى السنة زيدت بعد ذلك إلى ثلاثة الأمثال ، ووصلت فى ١٩٦٢ إلى ١٫٣٥ مليون طن ، ينتظر أن ترتفع إلى ٢٫٥ مليون طن فى ١٩٦٧ .

وقد اختيرت الأسكندرية لأسباب تخطيطية استراتيجية منها تفادى تكديس كل رأسمالنا البترولى فى منطقة واحدة حرجة . وإذا كانت الأسكندرية تقع خارج Off-side حقول الإنتاج فإن حقول الإنتاج بدورها تقع على هامش سوق الاستهلاك . وإذا كان توقيع مصافى السويس توقيع مناطق إنتاج فإن توقيع مصافى الأسكندرية توقيع مناطق استهلاك . ولكنها بذلك تتفادى تكاليف نقل

المشتقات حتى كل أطراف الدلتا . كما أنها فى موقع أنسب من حيث تصدير الفائض المكرر بمثل ما هى من حيث تلقى الخام من الناقلات . وإذا نجح العثور على البترول فى مرمريكا مريوط والساحل الشمالى الغربى فينتظر لمكس الأسكندرية مستقبل بترولى هام قد يجعلها « زيتية » الشمال .

وقد ضوعف أنبوب السويس ـ القاهرة بأنبوب آخر لزيت الوقود fuel oil سعة ١٤ بوصة . وبدأ إنشاء أنبوب توزيع من الإسكندرية إلى كفر الدوار إلى طنطا ليصل أخيراً إلى المحلة وذلك لخفض تكاليف التوزيع بالطرق والسكة الحديدية . وهكذا كانت طاقة التكرير المصرية فى ١٩٦٠ نحو ٣ر٨ مليون طنا مقابل ٣ر٦ مليون طن إنتاج أى بنسبة ١٠٥ ٪ . أى أنها تعطى انتاج الخام المحلى مع زيادة طفيفة تستكملها بالاستيراد من الخليج العربى . والواقع أن طاقة التكرير فى مصر كانت أحياناً تسبق طاقة الانتاج وتفوقها .

وقد ارتفعت طاقة التكرير من ٢ر٤ مليون طن فى ١٩٥٢ إلى ٦ مليونا فى ٦٢ - ١٩٦٣ - أى أكثر من تضاعفت فى عقد . وهذه الطاقة الأخيرة قابلها إنتاج فى ١٩٦٣ قدره ٥ر٤ مليون طن ، ولكنها تغطى كل الاستهلاك المحلى (٤ر٧ مليون طن) وتترك فائضا للتصدير مكررا . ومعنى هذا أن طاقة التكرير الحالية بالنسبة لحجم الانتاج تبلغ نحو ١١٠ ٪ . أما طاقة نقل الأنابيب الداخلية فقد ارتفعت من ٦٥ مليون طن / كم فى ١٩٥٢ إلى ٨٠٠ مليون طن / كم فى ٦٢-١٩٦٣ . وأما أطوال شبكة الأنابيب المصرية فتصل حالياً إلى نحو ٢٥٠ كم[١] .

العراق

كما تأخر بدء الإنتاج فى العراق تأخر التكرير . فكان أول مصفى هو

(١) المرجع فى مصر لونجريج بلا تحديد ، والهيئة العامة للبترول .

ألوند فى ١٩٢٧ لتكرير خام نفط خانة بكفاءة ١٥٠ الف طن فى السنة . وكان يغطى شمال ووسط العراق ، أما جنوبه فكان يعتمد على إنتاج عبدان . وقد زيدت طاقة ألوند بعد هذا ببطء فلم تتعد ٣٧٥ الف طن حتى ١٩٥١ . وهنا نرى مرة أخرى أنه — بسبب وحدة الشركة فى كل من البلدين - كان لإيران أثر عكسى تحديدى restrictive على العراق ليس فقط انتاجاً بل وتصنيعا كذلك . فكانت صناعة التكرير فى العراق ضحية لطغيان مصفى عبدان . ومرة أخرى نرى أن أزمة التأميم فى إيران كانت إشارة الانطلاق للعراق — وغيره — فى التكرير كما فى الإنتاج . فمع الأزمة زيدت طاقة ألوند بسرعة إلى أقصاها ٥٠٠ الف طن . كما أنشىء فى ١٩٥٢ مصفى ثان لحقول البصرة فى المفتية على شط العرب بطاقة ١٥٠—٢٠٠ الف طن سنوياً .

وفى ١٩٥٥ تم إنشاء أكبر مصافى العراق فى دورة قرب بغداد وطاقته الآن ٢ر٥ مليون طن . وهو يستمد خامه من أنبوب خاص يأخذ من أنبوب كركوك عند محطة كركوك ٢ (K 2) ويسير ١٣٥ ميلا غرب الدجلة وموازيا له . ويهدف المصفى إلى التصدير بجانب الاستهلاك المحلى ، وهو ينتج من مشتقاته زيوت التشحيم والقار . وفى نفس الوقت ١٩٥٥ أنشىء مصفى صغير فى القيارة لإنتاج القار من خام القيارة الثقيل المهجور ، ولكنه الآن لا يعمل . كما يلاحظ أن مصفى ألوند لا يعمل الآن بكل كفاءته . ومع ذلك فهناك مشروع لإنشاء مصفى خامس ضخم فى مدينة البصرة يعالج خام الرميلة بطاقة ٢ مليون طن فى ١٩٦٥ تزيد بعد ذلك إلى ٥ر٦ مليون طن ... وتبلغ طاقة التكرير الفعلية فى العراق ٣ر٢ مليون طن أى بنسبة نحو ٨ ٪ من الإنتاج .

وسيلاحظ أن مصافى العراق الأربعة القائمة تتوزع بالتساوى بين الشمال والجنوب أى فى توزيع اقتصادى بالنسبة لنمط السكان والسوق المحلية . كما يلاحظ أن العراق لم يستطع أن يفكر فى التوسع الكبير فى التكرير إلا

بعد ظهور حقول البصرة حيث يمكنها تصدير الزيت المكرر مباشرة ، بينما طالما كانت حقولها الرئيسية أو الوحيدة داخلية الموقع فلم يكن ثمة مفر من أن يقتصر التكرير القومى على الاستهلاك المحلى وتتنازل عن التكرير الكبير لمصافى خارج الحدود ، لأنه لا يمكن نقل الزيت المكرر بالأنابيب إلا فى عدد من الأنابيب يعادل عدد مشتقاته ! أى أن الموقع الداخلى كان يشد صناعة التكرير الكبير إلا فى حدود الاستهلاك المحلى .

البحرين

كانت البحرين أولى مناطق الخليج تكريرا كما كانت أولاها انتاجاً . ففى ١٩٣٧ ، ولصعوبة تسويق الخام ، أنشىء مصفى عوالى فى موقع متوسط بين حقل عوالى وميناء سترة . وقد بدأ بطاقة متواضعة حوالى ½ مليون طن سنويا زيدت تدريجيا قبل الحرب مباشرة ثم أثناءها لتواجه حاجات قوى الحلفاء فى الشرق الأوسط والأقصى حتى وصلت عند نهاية الحرب إلى ٣ر٥ مليون طن . واستمرت الزيادة بعد الحرب تدريجيا ، ولكن الطفرة القوية أتت بعد ١٩٥١ مع طفرة الإنتاج السعودى وبعد أزمة إيران حتى أصبحت ثلاثة أمثال ما كانت عليه بعد الحرب . وطاقتها الآن ٥ر١٠ — ١١ مليون طن ، ولهذا كانت — مع أو بعد رأس تنورة — أضخم مصفى فى نصف الكرة الشرقى منذ إغلاق عبدان . فإذا ذكرنا أن انتاج البحرين الآن لا يتجاوز ٢و٣ مليون طن عرفنا أن نسبة طاقة التكرير إلى الانتاج هى ٥٠٠ ٪ تقريباً ، وهى نسبة لامثيل لها فى العالم العربى . ومعنى هذا أن البحرين ليست منتجا بقدر ماهى مكرر ، ليست بئرا بقدر ماهى مصفى ... وقد يجوز أن تشبه البحرين فى هذا الصدد باروبا وكوراساو فى الكاريبى :

فكل منهما جزيرة إزاء القارة ، وذلك فى بحر يطوق البترول شاطئيه ، وكل منهما يعمل أساسا كمعمل تكرير لمنتج على القارة . والواقع أن طاقة التكرير فى البحرين لم تتطور مع طاقتها الانتاجية المحلية ، بل مع طاقة السعودية بالذات . ففى ١٩٤٥ أنشىء أنبوب نصف غاطس half-submarine طوله ٣٥ ميلا من الظهران إلى البحرين لينقل الخام السعودى إلى مصفى البحرين ، ثم زيدت طاقته بالنقل بالصنادل والناقلات ، ثم ازدوج الأنبوب فى ١٩٥٢ للاستغناء عن النقل بالسفن . وفى الوقت الحالى يأتى ٧٢ ٪ من الخام الذى يعالجه المصفى من السعودية ، مع نسبة ضئيلة من الخارج . وبطبيعة الحال لا تصدر البحرين من إنتاجها أى خام . فدورها أقرب إلى « متعهد » تكرير خاص للسعودية منه إلى المنتج المكتفى ذاتيا .

السعودية

الضرورة الحربية أثناء الحرب الثانية هى وحدها التى دفعت فى البداية إلى إدخال مصفى التكرير فى السعودية ، حتى يغذى المجهود الحربى فى الشرق الأوسط والأقصى . ولهذا كانت الولايات المتحدة خلف إنشاء مصفى رأس تنورة فى ١٩٤٥ . وقد اختيرت رأس التنورة كميناء صالح على رأس بارز تترامى حقول الانتاج فى ظهيره مباشرة . وقد بدأ المصفى بطاقة متوسطة حوالى ٢ر٥ مليون طن استمرت فى الزيادة . ففى ١٩٤٦ عالجت ٤ مليون طن أضيف إليها تقريباً مليون طن كل عام بعد ذلك حتى وصلت طاقتها فى ١٩٥٢ — بعد إغلاق عبدان — إلى ١٠ر٥ مليون طن وتوقفت عند هذا الحد فترة طويلة . وهى الآن تتراوح حول ١١ ½ مليون طن . أى أنها أكبر مصفى عربى . وهذه الطاقة تعادل ⅙ — ⅐ الانتاج . وقد كان أكبر إنتاج لها فى ١٩٥٤ حين سجلت رقما لم تصله بعد ذلك . ومعنى هذا أنها لم تعمل أخيراً

بكل كفاءتها . ويرجع السبب فى هذا مباشرة إلى الأثر العكسى لنمو طاقة التكرير فى أسواق الاستهلاك . ويذهب أغلب ناتج رأس تنورة المكرر إلى أسواق ماشرق القنال فى آسيا واستراليا وافريقيا — وليس إلى أوربا .

الكويت

أقيم مصفى الأحمدى فى ١٩٤٩ بطاقة متواضعة هى ١ر٣٥ مليون طن زيدت إلى ٥ر١ فى ١٩٥٢ . وكانت تهدف فقط إلى خدمة الاستهلاك المحلى من غاز وكيروسين وديزل وقطران مع تموين الناقلات بالوقود (التفحيم و التزييت Bunkering) . ولكن لم تلبث أن أصبحت غير كافية ، خاصة بالنسبة لأغراض التفحيم ، فرفعت طاقتها فى ١٩٥٨ رفعة كبرى إلى ٩ مليون طن لتصبح ثالث مصافى العرب قوة . وتعتمد مشاريع الصناعة الكويتية القليلة على مشتقات هذه المصفى خاصة من الغاز الطبيعى والصناعات الكيماوية . ولكن طاقة التكرير الكويتية هذه تعد من أقل الطاقات نسبياً فى العالم العربى : فهى لاتعادل إلا $\frac{1}{8}$ — $\frac{1}{9}$ طاقتها الانتاجية .

قطر

مابين أم باب فى وسط حقل دخان فى شبه الجزيرة وميناء أم سعيد فى الشرق يتم فصل الغاز عن الزيت فى ثلاث محطات هى الخطية ، فحاحيل ، جلبهه Jaliha ، وذلك على أنبوب ذى ثلاث شعب يمتد ٤٩ ميلا(١) . وفى أم سعيد يقوم مصفى « الجيب » الذى أنشىء ١٩٥٥ والذى يعد من أصغر مصافى العالم العربى حيث لاتزيد طاقته عن ٣ر٠ مليون طن — لاشك تستهدف الاستهلاك المحلى والتفحيم ، ولاتتناسب مطلقاً مع الطاقة الانتاجية مما يترك قطر مصدر

(١) لونجريج . ص ٢١٥ .

خام أساسا وفقط من ٨ مليون . فهى فى هذا النقيض المباشر لجارتها فى الخليج العربى البحرين .

المحايدة

لها — ولكن ليس بها — مصفيان . فهى بحكم وضعها السياسى الثنائى تمثل شذوذاً خاصا فى الانتاج والتكرير . فقد أنشىء لها مصفيان فى ١٩٥٨ من أحدث مصافى الخليج العربى . فمصفى الجانب السعودى منها يقع داخل المنطقة فى ميناء سعود على رأس الزور ويربطها بالحقول أنبوبان ، وطاقته ٣ر٥ مليون طن . بينما يقع مصفى الجانب الكويتى فى الكويت فى ميناء عبدالله جنوب ميناء الأحمدى ، ويربطه بالحقول أنبوبان . وطاقته ١ر٥ مليون طن فالطاقه المشتركة تبلغ ٤ مليون طن أى تغطى حوالى ٦٧ ٪ من انتاج المنطقه البالغ ٩ر٥ مليون فى ١٩٦١ .

الشام

بدأ التكرير فى الشام بحكم أنه نهاية أنابيب العراق . فكان أول مصفى هو حيفا فى ١٩٣٦ الذى أفلت فى اللحظة الأخيرة من أثر الحرب التجميدى على كل الإنشاءات . وتقع المصفى فى موضع مجاور لنهر المقطع Kishon على خليج عكا وتمتد الأنابيب منها تحت البحر لمسافة تصل إلى السفن . وكانت كفاءته مليون طن لم يكن الاستهلاك المحلى يستوعب منها إلا جزءاً بسيطا . فلم يكن استهلاك فلسطين حينئذ يزيد على ٢٠٠ ألف طن سنويا بينما كان استهلاك كل من وحدات الشام الثلاث الأخرى أقل . وقد أثبتت الحرب أن المصفى جاء فى الوقت المناسب ليؤدى دوراً حاسما تفحيمياً فى البحر المتوسط وفى حرب شمال إفريقيا مما جعله هدفا للغارات الجوية . ولهذا زيدت كفاءته خلال الحرب تدريجيا حتى بلغت فى آخرها ٤ مليون طن . وبعد الحرب وضعت خطة لرفع الكفاءة إلى ٥ر٧ مليون طن ، لكن

ضياع فلسطين أوقف المشروع ثم لم يلبث أن شل المصفى السليب منذ ١٩٤٨ .

فمع توقف أنبوب العراق ، لجأت إسرائيل إلى استيراد الخام من جزر الهند الهولنديه ثم فنزويلا ، ولفترة ما من رومانيا وروسيا لتشغيل المصفى ولكن بنحو ربع طاقته . وكان الالتجاء إلى خامات العالم الجديد وكل مصدر بعيد وذلك على عتبة أعظم حوض بترولى فى العالم سخرية جغرافية وتحديا لكل منطق الاقتصاد والنقل (١) . وفى ١٩٥٨ تحول المصفى إلى ملكية إسرائيل التى أنشأت له أنبوبا من أيلات ليستقبل الخام الإيرانى ، وفى ١٩٥٥ مد أنبوب توزيع ضيق من المصفى إلى تل أبيب موازيا لانبوب أيلات والساحل . ويتراوح إنتاج المصفى الذى أصبح نواة لصناعات بترولية فى السنوات الأخيرة بين ١/٤ ١ ، ١ ٣/٤ مليون طن سنويا . وهو يكفل الكفاية الذاتية لإسرائيل التى يبلغ استهلاكها من مشتقات البترول ١٫٥ مليون طن .

ومصفى طرابلس على نهاية أنبوب العراق الشمالى هو الأخ الأصغر لمصفى حيفا . وهو يقع بالدقة فى الميناء شمال طرابلس بنحو ٤ ميلا . وقد تأخر ميلاده إلى ١٩٤١ حين أنشىء أساسا لتفحيم ناقلات خام كركوك ولتغطية الاستهلاك المحلى فى لبنان وسوريا . ولهذا كان صغير الطاقة من البداية: ٢٠٠ ألف طن سنويا ارتفعت، مع اتساع السوق اللبنانية والسورية إلى ٥٠٠ ألف واستقرت الآن على ٧٠٠ ألف ـ ولهذا سمى مصفى الجيب Raffinerie de Poche.

ولم يعد مصفى طرابلس المصفى الوحيد فى لبنان . ففى ١٩٥٥ تم إنشاء مصفى نهاية أنبوب آخر هو مصفى صيدا على نهاية التابلاين . وهو يقع فى الزهرانى جنوب صيدا بنحو ٤ ميل وطاقته تقل

(1) Hoskins, p. 217.

كثيرا عن طاقة مصفى طرابلس : ٤٠٠ ألف طن ، فهو من المصافى الصغرى فى العالم العربى . وهو يساهم فى الاستهلاك المحلى كما يغذى ناقلات التابلاين بالوقود . وسيرى أن طاقة المصفيين اللبنانيين معا تبلغ ١٫١٥٠٫٠٠٠ طن سنويا ، ولما كانت حاجة لبنان نفسه لا تزيد كثيرا عن نصف المليون فإن من الواضح أنهما يعتمدان كثيرا فى التسويق على الظهير الداخلى للشام فى سوريا والاردن ، ولهذا كان لا بد أن يشعرا بضياع هذه الأسواق حين ظهرت فيها مصافيها الخاصة . وبالفعل ظهر فى نهاية العقد مصفيان من نوع جديد هو مصافى نقط المراحل على خطوط الانابيب - المصافى الداخلية لا الساحلية - هما مصفى حمص ومصفى الزرقا .

فأما مصفى حمص فقد تم فى ١٩٥٩ بعد فترة صعبة تعقدت فيها مشكلة استيراد مشتقات البترول النقى من مصر وطرابلس والبحر الأسود . ويستمد المصفى خامه من أنبوب كركوك ، ويعمل بطاقة ٧٥٠ ألف طن فى السنة ، وهو ما يعادل الاستهلاك المحلى وما أوقف الاستيراد من طرابلس . وكان من المقرر إنشاء وحدة لزيوت التشحيم وصناعة السماد . وسيرى أن موقع المصفى أختير فى الداخل لا على الساحل لأن نواة سوق الاستهلاك هنا داخلية تتركز على محور حلب - دمشق . ولهذا يخرج من المصفى أنبوبان ضيقان للتوزيع - إلى حلب (١١٠ ميلا) ، وإلى دمشق (٩٥ ميلا) . ونظراً لانعزال الجزيرة وبعدها عن نواة سوريا مع ارتفاع استهلاكها للوقود فى الرى الميكانيكى ، ومع عدم إقتصادية مد أنبوب إليها من مصفى حمص ، فقد كان من المقرر إنشاء مصفى صغير محلى يعتمد على خام قرة تشوك وذلك بنقل وحدة تكرير طاقتها ٣٠٠ ألف طن من السويس .

أما مصفى الزرقا فهو أحدث وأصغر مصافى العرب . أنشىء فى ١٩٦٠

ليحل مشكلة تموين الأردن بالبترول النقى بعد أن زادت صعوبات استيراده من سوريا والعراق ، أو عن طريق ميناء العقبة . وكانت المفرق من المواضع المقترحة للمصفى ولكنه استقر نهائياً فى الزرقا . ويقع المصفى فى الزرقا على مسافة ١٥ ميلا شمال عمان . ويستمد خامه من التابلاين بأنبوب ضيق طوله ٣٠ ميلا . ولا تزيد طاقته عن ٣٥٠ ألف طن ولهذا فهو من أصغر مصافى العرب العاملة حالياً .

البحر الأحمر

مصفى عدن من « نسل » أزمة عبدان المباشر ، وهو أقصى مصافى العالم العربى جنوبية . أنشىء فى ١٩٥٤ بطاقة كبيرة قدرها ٥ مليون طن ، فى موقع استراتيجى هام . ويستمد خامه من الكويت ومن حقول البصرة . ولكنه لا يعمل دائماً بكل كفاءته . وهو يقوم فى عدن الصغرى Little Aden ، ويمتد منها أنبوب ضيق طوله ٣٠ ميلا ليغذى مدينة عدن بالغاز الطبيعى . وعدا تغذية منطقة عدن ، فالمصفى يغذى موانى البحر الأحمر وأكثر منها شرق إفريقيا وجنوب إفريقيا ، لكن التفحيم هو البند الأول فى استهلاكها . فهى تقدم ٣ مليون طن من الوقود — أى نحو نصف إنتاجه — لآلاف السفن التى تعبر المضيق بالضرورة .

وفى السودان آخر مصافى العالم العربى ، مصفى قيد الإنشاء فى بورسودان ويهدف إلى كفاية السودان ذاتياً من مشتقات البترول وتبلغ ½ مليون طن . وقد يصبح له نظير على الساحل الغربى المواجه عما قريب ، فهناك مشروع إنشاء مصفى طاقته مليون طن فى جدة .

المغرب العربى

منذ ١٩٥٨ أنشىء مصفى بجاية وهو من مصافى نهايات الأنابيب وطاقته ٣ مليون طن ، ليخدم الاستهلاك المحلى فى الجزائر ، ولكنه لا يستهلك إلا جزءاً ضئيلا من الإنتاج الجزائرى الذى يصدر أغلبه إلى فرنسا. وفى ١٩٦١ بدأ مصفى على بعد ٢٠ كم من مدينة الجزائر عند Gaé de Constantine (١)

وفى تونس بدأ أخيراً مشروع مصفى فى السخيرة على نهاية أنبوب قابس . بطاقة ١ مليون سنوياً ، أى ضعف استهلاك تونس الحالى (٢) ، وبهذا يغطى الاستهلاك المحلى ويصدر الباقى إلى الخارج .

أما فى المغرب فقد كان هناك منذ مدة مصفى سيدى قاسم تملكه الشركة الشريفية ، وطاقته ١٥٠ ألفاً فى السنة . وفى ١٩٦٢ أضيف مصفى آخر فى المهديه بطاقة يومية قدرها ٢٥ ألف برميلا .

الاستهلاك

لا تستهلك الدول العربية من بترولها إلا جزءاً ضئيلا وذلك لقلة السكان نسبياً وانخفاض المستوى الحضارى ثم تخلف التصنيع . ولقد زاد قطاع الاستهلاك باطراد منذ بدأ البترول بخطى سريعة ، ولكن نسبته من

---

(١) البراوى . ثورة البترول . ص ٩١ .

(2) Clarke " Economic & Political Changes in the Sahara " P, 113 .

جملة الإنتاج انخفضت باطراد أسرع . والجدول الآتى يتتبع بملايين الأطنان هذه الحركة بالنسبة للمشرق العربى منذ قبيل الحرب الأخيرة(١) .

	الاستهلاك	الإنتاج	النسبة المئوية للاستهلاك
١٩٣٧	٠٫٨٣	٥٫٥	١٥
١٩٥٠	٥	٥٦٫٣	٩
١٩٥١	٦	٨٠	٧٫٥
١٩٥٢	٦٫٦	١٠٢	٦٫٦

وقد قدر فى ١٩٥٠ أن معدل استهلاك الفرد من البترول فى الشرق الأوسط يعادل نصف معدله العالمى أو ٨٠ كيلو جراما مقابل ١٦٠. ويقدر أن معدل استهلاك الفرد فى إسرائيل هو أعلى ما فى الشرق الأوسط ، بينما تأتى مصر على رأس الدول العربية(٢) .

ويحسن أن نقف قليلا عند الاستهلاك فى مصر كنموذج لتطور الاستهلاك العربى . لقد كانت مصر من أولى الدول اتجاها إلى استعمال البترول . ولكنه بدأ أساساً وظل طويلا استهلاكا منزلياً ، ولم يخرج من المنزل إلا مع الحرب الثانية حين تعذر استهلاك الفحم وفاض إنتاج البترول المحلى فتحولت وسائل النقل من الفحم إلى البترول وانتشر النقل بالسيارات. ومع نمو التصنيع وجد استهلاك البترول مصباً رئيسياً ثالثاً . أى أن رحلة

---

(١) العبوسى ص ١٦١ .

(٢) لونجريج ص ٣٣٣ .

البترول فى مصر استهلاكياً تتلخص فى المتتالية الآتية : « من المنزل إلى الطريق إلى المصنع » . ومع هذه المتتالية تحرك التركيز من على الكيروسين إلى مجموعة البنزين والبتيومين إلى مجموعة الوقود الثقيل السولار والديزل والمازوت . والآن يمثل البترول بين ٨٠ ، ٩٠ ٪ من كل مصادر الطاقة فى مصر . والجدول الآتى يوضح هذا التطور بآلاف الأطنان .

النوع	١٩١٠	١٩٢٠	١٩٣٠	١٩٤٠	١٩٥٠
بنزين سيارات	١ر٧	٤ر٨	٥٨ر٦	٨٤ر٩	٢٤٤ر٢
كيروسين	١٦٦ر٠	١٢٤ر٦	٢٩٥ر٥	٢٧١ر٨	٥٦٣ر٩
ديزل وسولار	—	—	١٣٩ر٦	٢٢٧ر٨	٣٥٤ر٩
مازوت	—	—	٤٩ر٨	١٩٧ر١	١٦٢٦ر٩
غاز بيتومين	—	—	—	٠ر٢	٢ر٤
بنزين طيران	—	—	—	٣ر٠	٣٧ر٧
زيوت معدنية	—	—	١٦ر٤	٢٤ر٠	٣٦ر٥
أسفلت	—	—	١٧ر٨	٨٤ر١	٤٠ر٤
المجموع	١٦٧ر٧	١٢٩ر٤	٥٨٠ر٧	٨٩٢ر٦	٢٩٠٩ر٩

والجدول الآتى يوضح تطور النسبة المئوية لاستهلاك أنواع الوقود الرئيسية :

النوع	١٩٢٥	١٩٤٠	١٩٤٥	١٩٥٠
البنزين	١٠ر٦	٦ر٢	٦ر٦	٨ر٧
الكيروسين	٨٩ر٤	٣٤ر٨	١٩ر٣	٢٠ر٢
السولار والديزل	—	٢٩ر١	١٦ر٢	١٢ر٨
المازوت	—	٢٩ر٩	٥٧ر٩	٥٨ر٤

هل يكفى مصر انتاجها ؟ تكاد تكون مصر المنتج العربى الوحيد الذى يستهلك كل انتاجه تقريبا . ولايكاد يكفيه . أو هى بالأحرى المنتجة الوحيدة التى تصدر وتستورد معا ، خاما ومكررا معاً . والسبب نوعية الخام المصرى والطلب المصرى . فاستهلاك الكيروسين مرتفع واستهلاك البنزين وزيت الوقود منخفض ، بينما الخام المصرى فقير فى المقطرات الوسطى أى الكيروسين والسولار غنى بالبنزين والمازوت (أو كما علق البعض فقير فى مشتقات حرف السين غنى فى مشتقات حرف الزاى ! . . .) وقد كانت مصر تقليديا تعتمد على خامها المكرر ثم تستكمل عجز المقطرات الوسطى باستيرادها مكررة . ولكنها الآن إلى جانب خامها المكرر تستورد خاماً ترتفع فيه نسبة المقطرات الوسطى وتكرره لحساب استهلاكها كما تصدر بعض خامها بغير تكرير . كما أنها أخيراً تعمد إلى تحويل أنواعها الوفيرة إلى الأنواع غير الكافية ، وأعنى بهذا مشروع تفحيم المازوت الفائض للحصول منه على السولار والكيروسين عدا البنزين ذى الكفاءة العالية التى تسمح بالتصدير فى السوق العالمية . هذا وقد كان الوارد تقليدياً أكبر من الصادر ، ولكن فى ١٩٦٣ بلغ الإنتاج ٥ر٤ مليون طن بينما لم يتعد الاستهلاك المحلى ٧ر٤ مليوناً بفائض قدره نحو ٧٠٠ ألف طن . ويقدر أن الاستهلاك سيرتفع بشدة فى مصر فى المستقبل القريب إلى ٦ مليون طن فى ١٩٦٥ وربما الى ٥ر٧ فى ١٩٧٥ .

على أن أغلب الدول العربية البترولية لاتنتج من المشتقات نوعاًأو نوعين بصفة خاصة وهما وقود الطيران وزيوت التشحيم ، وتضطر لذلك إلى استيرادها . كذلك نلاحظ أن مجموع الاستهلاك المحلى فى العالم العربى لايذهب فى الحقيقة فى أغراض محلية بحتة ، بل ينصرف جزء هام منه ـ نحو النصف ـ إلى تموين السفن العابرة أو الناقلة (التفحيم) أو تشغيل المصافى . ففى الشرق

الأوسط عامة أى المشرق العربى وإيران حين كان مجموع الإستهلاك ٢٩ر. مليون طن فى ١٩٦٠ ، ذهب ١١ر٩ إلى التفحيم ، ٨ر٣ للمصافى ، ٧ر١٤ مليوناً للإستهلاك الداخلى العام (١) . وفى مصر مثلا يمتص التزييت مليون طن من مجموع الاستهلاك البالغ نحو ٤ مليون طن .

الخلاصة أن العالم العربى ليس منطقة استهلاك للبترول وليس منتجاً مستهلكا ، بل هو منتج مصدر أولا وقبل كل شىء فهو ينتج نحو ٢٣٪ من بترول العالم ، ولا يستهلك إلا نحو ٣٪ من بترول العالم، بينما يدخل الباقى التجارة الدولية . والمقدر الآن أن بترول العرب يمثل نحو ٥٠٪ من تجارة البترول الدولية . لقد أصبح البترول بحق هدية الصحراء الجديدة إلى العالم . . . وهنا نرى أن العالم العربى ـ والشرق الأوسط عامة ـ يحتل وضعاً يشبه وضع الهند الصينية فى سوق الأرز . فكل منهما ليس أكبر منتج فى العالم ، ولكن ضآلة الاستهلاك المحلى تتركه من أخطر مصدرى العالم . وكما تتوسط الهند الصينية موقعاً بين أعظم مستهلكين للأرز الصين والهند يكاد العالم العربى يتوسط بين أعظم مستهلكين للبترول أوربا والولايات المتحدة . من هنا أهمية العالم العربى الحرجة فى سوق البترول ، وبالأخص بالنسبة لأوربا .

وتتضاعف هذه الأهمية إذا اعتبرنا الموقع الجغرافى . فقد فجرت الطبيعة البترول العربى فى موقع يجعله يتكامل بالضرورة مع السوق الأوربية . فمن نهايات أنابيب الشام فى صيدا أو طرابلس أو بانياس إلى مرسيليا ١٩٠٠ ميلا بحرياً مقابل ٤٨٠٠ من أوربا إلى فنزويلا أو موانى تكساس . ومن نهايات الشام إلى سوثهامبتن ٣٥٠٠ ميلا مقابل ٤٦٠٠ من

---

(١) لونجريج ص ٣٥١ .

فنزويلا أو ٥٦٠٠ من تكساس . أما من الخليج العربى عن طريق السويس فالمسافة إلى مرسيليا هى ٢٧٠٠ ميلا ، وإلى سوثهامبتن ٥٦٠٠ . أى أنه من ناحية مدة وتكاليف النقل ، لاميزة كبرى لبترول المشرق العربى بالنسبة لبريطانيا . ومع ذلك فإذا تذكرنا رخص تكاليف الإنتاج المحلى ، وجدنا أن بترول المشرق العربى يمكن أن يسلم فى انجلترا بسعر يقل عن سعر تسليم بترول فنزويلا بنحو ٤٠ – ٥٠ سنت ، وذلك بأسعار ١٩٤٧ . وحتى بعد ارتفاع أسعار بترول الشرق الأوسط بعد زيادة عائداته وإتاواته ظلت الأفضلية الإقتصادية له على بترول الكاريبى (١) خاصة بعد مد أنابيب البترول عبر الجزيرة العربية .

والآن وقد ظهر بترول المغرب العربى فقد أصبح له الأفضلية المطلقة بالنسبة للسوق الأوربية لاسيما بالنسبة لفرنسا ودول البحر المتوسط . ومع ذلك فالنوع يسلب الموقع بعضاً من ميزاته فى حالة بترول المغرب العربى . فبترول ليبيا أو الجزائر كما رأينا من النوع الخفيف الذى لا يشتد عليه الطلب فى أوربا حيث مصافى التكرير معدة على أساس استقبال الخام الثقيل وزيوت الوقود . ومثل هذا لا يأتى إلا من الشرق الأوسط أو الكاريبى . هذا بينما أن السوق المستعدة والمحتاجة للزيت الخفيف هى الولايات المتحدة ، ولكن البعد يضيع على المغرب هذه الميزة . وقد بدأت السوق الأوربية تكييف مصافيها بحيث تصلح للخام المغربى على أن تخلطه بنسبة مناسبة من الخام الثقيل .

ولقد كان العراق أول مصدر عربى للبترول وظل كذلك حتى ١٩٤٥ .

---

(١) Hoskins, p, 193,

أما مصر فمنتج مستهلك منذ البداية . ثم احتلت السعودية مكانة العراق حتى ورثتها الكويت فى قائمة المصدرين ، بل إن ميناها أصبح الآن أكبر ميناء مصدرة للبترول فى العالم(١) بينما هى نفسها ثانية الدول المصدرة فى العالم بعد فنزويلا . وطالما كان انتاج العراق يأتى من الحقول الداخلية ، كان الصادر كله خاما . أما وقد بدأ حقل البصرة فقد بدأت تصدر جزءاً مكررا . ولقد كانت فرنسا دائما أكبر مستورد للبترول العراقى ، يليها بريطانيا ثم إيطاليا(٢) . أما صادر السعودية والبحرين حتى ماقبل الحرب الثانية فكان قليلا ووجهته أوربا ، ولكنه حول للاغراض العسكرية فى الشرقين الأوسط والأقصى ، ثم بعد الحرب عاد التيار الرئيسى إلى أوربا ، ولكن جد تيار هام فى الولايات المتحدة وكندا بعد أن بدأت أعراض النفاذ تهدد الرصيد الأمريكى بصورة خطرة .

ومع اطراد سوء الوضع فى الولايات المتحدة واتجاهها إلى سياسة تحديد الانتاج وخزن الاحتياطى ، انقطع عن أوربا موردها الرئيسى التقليدى ، وبدأت تعتمد باطراد على العالم العربى والشرق الأوسط ، وأصبحت العلاقة بين الشرق الأوسط وأوربا أخطر علاقة مباشرة فى سوق البترول الدولية . فحاليا تعتمد أوربا على بترول الشرق الأوسط بنسبة ٧٠ — ٨٠ ٪ من استهلاكها ، بينما يصرف العالم العربى نحو ٦٠ ٪ من انتاجه فى أوربا (أرقام ١٩٦٠) (٣) . على أن نسبة هامة من الصادر العربى تذهب الآن شرق القناة إلى أسواق الشرق الأقصى والمحيط الهندى وإفريقيا . وأغلب هذه الشعبة الثانوية الشرقية تصدر مكررا ، بعكس الشعبة الرئيسية الغربية .

(١) Longrigg, p. 306.

(٢) العبوسى ١٦٢

(٣) البراوى . ثورة البترول فى أفريقيا . ص ١٥ .

وإذا تتبعنا أسواق كل دولة عربية على حدة وجدناها تعكس هذا النمط العام ولكن بتوليفات متفاوتة . فلا زالت فرنسا أكبر عملاء العراق ، تليها بريطانيا فإيطاليا . بينما تصدر الكويت أكبر حصصها إلى بريطانيا (٣٠ مليون طن فى ١٩٥٩) تليها الولايات المتحدة ففرنسا فهولندة فإيطاليا فعدن فاليابان فاستراليا فالأرجنتين . أما السعودية فأرسلت إلى أوربا فى ١٩٥٩ نحو ٦٥ر٢ ٪ من صادرها ، ٣٦ر٩ ٪ إلى آسيا واستراليا ، ١١ر٥ ٪ إلى أمريكا الشمالية ، ٣ ٪ إلى كل من أفريقيا وأمريكا الجنوبية . هذا بينما كانت الوجهات الرئيسية لصادر المحايدة فى نفس السنة هى على الترتيب اليابان فأمريكا فهولندة ففرنسا وإيطاليا (١) ومنذ دخلت الجزائر ميدان الإنتاج وفرنسا هى المنتهى الرئيسى لصادرها . أما ليبيا فأهم أسواقها هى بريطانيا ثم دول غرب أوربا والبحر المتوسط .

خلاصة مقارنة

التطور التاريخى

تكاد تتفق بداية التكرير فى وحدات العالم العربى مع ترتيب ظهور البترول فيها : مصر أولا ثم العراق ، وكما كانت البحرين أولى وحدات الخليج إنتاجا كانت أولاها تكريراً . ويمكن أن نرى أن إنشاء المصافى مر فى ثلاث مراحل واضحة .

— الأولى قبل وبعد الحرب الأولى ، واختصت بها أقدم المنتجين

---

(٢) لونجريج ص ٣٠١ — ٣٠٩

مصر والعراق ، وظهرت فيها ٣ مصافى فقط وذلك سدأ للاستهلاك المحلى .

— الثانية قبل وبعد الحرب الثانية ، وتركزت أساساً فى الخليج والشام: فأما فى الخليج فحتى لايكون إنتاج بلا تكرير ، وأما فى الشام فظهر لأول مرة عنصر التكرير بلا إنتاج . وظهرت فى هذه المرحلة ٥ مصافى وقد كانت أهداف الحرب الاستراتيجية من تموين الأساطيل فى البحر المتوسط وفى المحيط الهندى من أهم الحوافز على ظهورها .

— الثالثة فى الخمسينات ، وترتبط بالتوسع فى كل مناطق الإنتاج وخارج مناطق الإنتاج . وكانت هذه المرحلة أخصب المراحل الثلاث . فظهر فيها ١٥ مصفى جديداً . وكان من العوامل الكامنة خلف هذه الطفرة — بجانب التوسع فى الإنتاج — أزمة عبدان أولا التى أعطت أكبر « نسل » من المصافى للعالم العربى ، ثم « الوطنية الاقتصادية "Economic nationalism" التى جعلت كل وحدة منتجة وغير منتجة تحاول أن تمتلك مصفاها الخاص أو أكثر . وسنلاحظ نسبة كبيرة من مصافى هذه الفترة تقع فى غير مناطق الإنتاج سواء فى مناطق الاستهلاك أو نقط التموين .

النمط الجغرافى

ظاهرة جغرافية واضحة : كل مصافى العالم العربى الخمسة والعشرون تقع — فيما عدا مصفيان فى المغرب العربى — فيما نسميه « بالحلقة السعيدة » . فكلها على أطراف المشرق العربى . فيقع فى القوس الشرقى منها ١١ مجموع طاقتها ٤٠٫٩٥ مليون طن ، ٥ فى العراق الذى يمتلك بذلك أكبر عدد من المصافى ولكن ليس من الطاقة ، ٥ فى الخليج . وفى القوس الغربى ١٠ مجموع طاقتها

١٥٫٠٥ مليون طن ومعنى هذا أنها فى الغالب وحدات صغيرة . منها ٥ فى الشام، ٣ فى مصر . والغالبية العظمى من المصافى ساحلية الموقع بالطبع ، ولا يشذ إلا مصافى العراق الخمس ومصفيا ظهير الشام . ومن بين المصافى الساحلية يخص الخليج ٦ ، مقابل ٦ للبحر المتوسط ، ٤ للبحر الأحمر . وطاقة مصافى الخليج ٣٥٫٨ مليون طن . أى أن الخليج مركز الثقل تكريراً كما هو إنتاجا فيحتكر نحو ٦١٪ من طاقة التكرير فى العالم العربى البالغة ٥٩ مليون طن سنويا .

النمط الاقتصادى

لعل أبرز حقيقة فى التكرير فى وحدات العالم العربى المختلفة هى أنه ليس ثمة علاقة مطردة بين حجم الإنتاج وحجم التكرير ، ولا بين حجم التكرير وعدد المصافى . فأما عن العلاقة بين حجم الانتاج وحجم التكرير فهناك وحدات صغيرة الانتاج ولكن نسبة التكرير مرتفعة مثل البحرين أساساً ، ومصر ، وإلى حد ما المحايدة . وهناك العكس مثل العراق وقطر — هذا عدا مناطق التكرير بلا إنتاج . وأسباب هذه العلاقة المفقودة مختلفة . فالموقع الداخلى لايسمح بالتكرير إلا فى حدود الاستهلاك المحلى — كالعراق حتى قريب . والأسبقية الزمنية قد تضمن الأسبقية إلى السوق كالبحرين . وفى كل الحالات لايخدم التكرير الاستهلاك المحلى وحده فهذا لا يستوعب إلا جزءاً بسيطاً من طاقة التكرير وتبقى أغراض التضخيم وهى أدخل فى باب الموقع .

أما عن حجم التكرير وعدد المصافى فنى العراق ٥ مصافى طاقتها ١٥ر٥

أى نصف طاقة مصفى واحد فى السعودية أو البحرين . وفى الشام ومصر معاً ٨ مصافى طاقتها ٩ مليون تعادل طاقة مصفى واحد فى الكويت (٩مليون). ومعنى هذا أن هناك كثيراً من الوحدات الصغيرة - غير اقتصادية بلاشك - بين مصافى العالم العربى ، وربما عدها البعض طفحاً غير صحى لايفسره إلا « الوطنية الاقتصادية » فى ظل النمط السياسى الممزق والحدود الزائدة والمصالح المتعارضة وعدم التنسيق والتخطيط العام . حتى ليرون أنها تصبح اقتصادية أكثر بعملية « خف » صحيحة . مثلا إنشاء مصافى ظهير الشام جاء على حساب مصافى الساحل وأورثها مشكلة التسويق . مثل آخر المنطقة المحايدة التى فرض عليها وضعها السياسى الثنائى ثنائية فى التكرير . أضف أن أغلب المصافى تعمل الآن بأقل من كفاءتها الكاملة .

والواقع أن المصافى كالمدن - وكل ظاهرة نقطية Punctiform - لكل مصفى مجال نفوذ ، سوق ، يتناسب مع حجمه وطاقته ، ولهذا لابد أن تتباعد تباعداً معقولا ، فإذا تزاحمت أكثر مما ينبغى كبت أو وأد بعضها بعضاً . والمصافى كالمدن ، كل منها كالأشجار فى الغابة ، الكبرى منها تحجب الضوء عن الصغرى فتذوى . ولعل قصة عبدان - أكبر مصفى فى العالم - من حيث أثرها التحديدى الكابت Restrictive على مصافى الخليج العربية الواقعة فى ظلها خير مثال . فلم تتكاثر المصافى العربية إلا حين تلاشى ظلها أثناء أزمة إيران ١٩٥١ ، بينما حاولت هى أن تستعيد نفوذها أثناء أزمة السويس ١٩٥٦ .

« ثورة التكرير »

بدأت طاقة التكرير فى العالم العربى متواضعة وتقدمت بخطى بطيئة تسارعت فى السنوات الأخيرة خاصة ففى ١٩٥٣ كان حجم الإنتاج ١٢٠٫٣ مليون طن والتكرير ٣٣٫٧ بنسبة ٢٨٪ . وفى ١٩٥٩ كانت طاقة التكرير من الانتاج الخام ٥٫٤٪ فى العراق ، ١٥٫٨٪ فى الكويت ، ٢٠٫١٪ فى السعودية ، ٠٫٤٪ فى قطر ، ٣٠٫٥٪ فى البلاد العربية فى الخليج العربى (١) . وفى كل العالم العربى فى ١٩٥٩ كان الانتاج ١٨٢٠ مليون طن والتكرير ٥٦ مليونا بنسبة ٣٠٫٧٪ . أى كان التكرير - أو بالأصح طاقة التكرير - تغطى نحو ثلث الانتاج أو تكاد . ولكن إذا وقفنا عند هذا الحد فإننا نأخذ صورة مضللة.

فالحقيقة بعد ذلك أنه بينما أخذ الانتاج يطفر ، ظلت طاقة التكرير جامدة تقريباً ، بينما هبطت عملية التكرير فعلا لعدم تشغيل المصافى بكل طاقاتها ، ولهذا كله فإن نسبة التكرير الفعلية هبطت بشدة . ففى ١٩٦٢ كانت طاقة التكرير ٥٩ مليون طن ، وذلك يشمل المصافى التى تحت الانشاء . بينما كانت كمية الانتاج قد وصلت إلى ٢٧٢ مليوناً . وبهذا هوت نسبة طاقة التكرير إلى ٢١٪ تقريبا ، بينما لا شك أن نسبة التكرير الفعلى كانت أقل. فيقدر أن المكرر فعلا فى ١٩٦٢ كان ٣٥ مليون طن بنسبة ١٢٪ من مجموع الانتاج (٢) وهذا يعادل ٣٫١٪ فقط من طاقة التكرير فى العالم .

ولقد يبدو من هذا أن العالم العربي كان على أبواب « ثورة تكرير »

---

(١) فاروق الحسينى « تسويق البترول العربى » حلقة الدراسات الاقتصادية العربية الأولى ١٩٦١ . ص ٨

(٢) الموارد الاقتصادية فى الوطن العربى . ص ٣٥٢

حيث بلغت نسبة طاقة التكرير نحو الثلث فى حين ما ، مما يعادل مثلا نسبة تصنيع القطن فى مصر . ولكن هذه النسبة انخفضت كما رأينا إلى الخمس أخيراً . وأهم من هذا أن التكرير فى ميدان البترول ليس إلا جرثومة صناعة ولا يعادل فى ميدان القطن إلا مرحلة الحلج أو الغزل على الأكثر. ومن هنا تبدو « ثورة » التكرير منقوصة بل إن قوة التكرير الحالية لا تستغل كاملة كما رأينا . والواقع أن العامل المسيطر والمحدد معاً فى هذه المعادلة هو الاستعمار الاقتصادى الذى إذا كان قد خطط العالم العربى من قبل حقلا للقطن الخام فقد خططه من بعد بئراً للبترول الخام . ذلك هو التطبيق الاقليمى لتقسيم العمل التقليدى فى « التجارة الاستعمارية » : معادلة ظالمة تتلخص فى : الحرف الأولى للمستعمرة ، والثانية والثالثة للمتروبول . مثلا فى ١٩٦٠ صدر العالم العربى إلى أوربا ١١٨ مليون طن خاما مقابل ٥ر٥ مكرراً فقط . ويكفى أن نلخص الموقف جميعاً فى أن العالم العربى الذى ينتج ٢٣٪ من بترول العالم لا يكرر إلا ١ر٣٪ منه .

والواقع أن نمو التكرير فى العالم العربى جاء نتيجة ضرورات وظروف خارجة عن إرادة القوى الاستعمارية وسياسة الشركات . فقد أرغمت ظروف الحروب والاستراتيجية على التوسع فى طاقات التكرير المحلية أكثر من مرة فى أكثر من حالة . وحاجات التسويق والتفحيم المحلى أولا وفى الشرق الأقصى وحوض الهندى ثانياً أرغمت الشركات على التكرير المحلى ، كما أرغمت الظروف السياسية والسياسات البترولية المستقلة فى مناطق مجاورة مثل إيران على التعويض فى العالم العربى . وأخيراً فإن تزايد الوعى القومى والسياسة الوطنية فرض مزيداً من التكرير المحلى .

ورغم هذا فإن ثورة التكرير الحقيقية لم تحدث فى حقل الانتاج وإنما

فى سوق الاستهلاك ، لافى العالم العربى وإنما فى أوربا خاصة حيث أصبحت أساساً لثورة صناعيه صغيرة كما وصفت . وقد بلغت طاقة التكرير الأوربيه فى ١٩٦٠ نحو ١٩٢ مليون طن - تعدت المائتى مليون الآن - بل إنها الآن تعيد تصدير وارداتها من البترول الخام مكرراً ... ومن المؤكد أن هذا كله إنما يتم على حساب إمكانيات التصنيع فى دول الخام ، كما يعترف الكتاب الغربيون أنفسهم (١) . يقول لونجريج :

«With admitted exceptions the future seemed to hold more cousumer — country than producer — country location of refineries for Middle Eastern crude — provided only that companies concerned had freedom of choice.» (2)

ولقد ألفنا أن نتقبل توقيع الصناعة فى غرب أوربا بحكم وجود الفحم بها وقودا ، وألا نتساءل حين تهاجر كل خامات الدنيا إليه صاغرة ساعية . ولكننا الآن نجابه بوقود البترول يسعى إلى خامات - أولا خامات - غرب أوربا ، ويجد الاقتصاد الكلاسيكى كل تبرير له مع ذلك ! ولكنه لن يخفى تبرير منطق الاستعمار . ونحن نعتقد أن هذا الاتجاه سيبدأ فى الانعكاس بعد قليل . وربما وصلت نسبة التكرير - الانتاج فى العالم العربى فى بحر عقد أو أكثر من الآن إلى ٣٠ - ٤٠ ٪ . مثلا بدأت السعودية تشترط فى عقود امتيازاتها الجديدة نسبة تكرير محلى لاتقل عن ٣٠ ٪ من الخام المستخرج (٣) .

---

(١) انظر بعده .

(٢) ص ٣٥٢

(٣) نفس المرجع ص ٢٩٣

الفصل الخامس

جغرافية النقل

لما كان العالم العربي بتروليا منتجاً مصدراً فى مجموعه أكثر منه منتجاً مستهلكاً فإن النقل عنصر هام فى مركبه البترولى . وتتحدد استراتيجية النقل هنا بالمواقع النسبية لحقل الإنتاج وسوق الإستهلاك . وقد رأينا أن القوس الشرقى فى المشرق العربى هو النواة النووية للانتاج ، يضاف إليها نوية ثانوية فى وسط المغرب العربى . أما سوق الاستهلاك الكبرى فأوربا أساساً . ولهذا فإذا كان القوس الشرقى هو « المنتج » فإن القوس الغربى من المشرق هو « المخرج » بالضرورة : الأول منبع والثانى مصب : الأول مقر والثانى ممر .

والنقل بين المنبع والمصب يستقطب فى طريقين فقط : الطريق البرى أو طريق الشام بالأنابيب ، والطريق البحرى أو طريق السويس بالناقلات . وسيلاحظ أن كل طريق منهما يقع على أحد جانبى الجزيرة العربية التى تمثل خاصرة آسيا(1) بل خاصرة العالم القديم كله ، ومن ثم تحتل موقعاً استراتيجياً هاما . أما طريق المغرب فبالأنابيب وهو مباشر إلى السوق ولكنه لا يعدم بعض تأثير على الطريق البحرى شرقه . وسيلاحظ أن شبكة الأنابيب البرية لا يمكن أن تعمل إلا فى تعاون كامل مع شبكة من الناقلات عبر البحار إلى الأسواق تمثل فى الحقيقة شبكة غير منظورة

---

(1) W. Gordon East, Geog Behind History, Lond., 1948, p. 188.

من « الأنابيب العائمة »(١) . أما داخل المنطقة نفسها فلا مفر من اللحظة الأولى أن تكون العلاقة بين الأنابيب والناقلات علاقة عكسية تنافسية .

وعلى هذا الأساس يتألف نمط شبكة نقل البترول فى العالم العربى فى هيكله الاساسى من ٣ محاور : محورين بريين هامشيين يتوسطهما محور بحرى شريانى . وهذه الأطراف الثلاثة ترسم صورة ميزان دقيق حساس مركزه فى القناة وكفتاه على الجانبين ، ويتم التوازن فيه بعملية شد وجذب ، ومد وجزر ، تجعل التنسيق بينهما ضرورة عربية مشتركة . ونحن هنا سندرس الأنابيب أولا ثم طريق السويس ثانياً ثم العلاقة بينهما ثالثاً .

الانابيب

المشرق العربي

الانابيب الراهنة

أنبوب العراق

كانت أنابيب العراق أولى الأنابيب فى العالم العربى . وكانت المشكلة هى الموقع الداخلى لحقل كركوك ، فهو يتساوى فى بعده عن الخليج العربى أو ساحل الشام تقريباً equidistant (٢) . والخليج يعنى طريقاً عراقياً محضاً all-Iraqi route ، ولكنه يعنى رحلة خاسرة حول الجزيرة . أما طريق الشام فمباشر ، ولكنه ليس عراقياً . ولقد نصت اتفاقيات

---

(١) Hoskins, p. 223.

(٢) Hoskins, p. 214.

البترول فى العراق منذ البداية على مد أنابيب ساحل الشام حالما يصبح الإنتاج تجارياً . كما نصت سان ريمو على حق المرور فى أراضى الانتداب الفرنسى فى سوريا ولبنان . وقد أرادت فرنسا على هذا الأساس أن تكون سوريا — لبنان المخرج الوحيد لبترول العراق ، ولكن انجلترا والشركة العراقية كانت تميل إلى مخرج بريطانى محض all - British route عن طريق الأردن وفلسطين . وكحل وسط انشعب الانبوب شعبتين على شكل شوكة Wishbone أو حرف Y .

وقد تم أول خط فى هذه الشبكة فى ١٩٣٤ . ويبدأ الخط مزدوجا من كركوك عابراً الدجلة حتى يصل الفرات بعد ١٤٨ ميلا ، عند الحديثة ، حيث ينشعب : شمالا عبر سوريا (٢٦٧ميلا) فلبنان (١٧ ميلا) إلى طرابلس وبمجموع طوله ٥٠٣ ميلا ، وجنوبا عبر الأردن (٢٠٥ ميلا) وفلسطين (٤٠ ميلا) إلى حيفا وبمجموع طوله ٦٢٠ ميلا . ويدفع الزيت فى رحلته ١٣ محطة ضخ تبدأ على طول الخط المزدوج فى الحقل نفسه بمحطة ك ١ (نسبة إلى كركوك) ثم ك ٢ على الدجلة عند فتحة ، ك ٣ عند الحديثة ؛ وعلى الشعبة الشمالية ٤ محطات تبدأ من الشرق بمحطة ط ١ (نسبة إلى طرابلس) وعلى الشعبة الجنوبية ٥ محطات تبدأ بمحطة ح ١ (نسبة إلى حيفا) . وقطر الأنبوب فى مجموعه ضيق (١٢ بوصة) طاقته ٢ مليون لكل شعبة ، وبهذه الطاقة تحدد إنتاج العراق حتى عام ١٩٥١ حين تم زيادة طاقة الأنابيب بعد الحرب .

وأتت الزيادة فى شكل إضافة أنبوب جديد (قطر ١٦ بوصة) إلى جانب القديم . وطاقة الأنبوب الجديد هى ضعف القديم . وقد بدأ ازدواج الشعبة الجنوبية أولا حتى إذا لم يبق منه إلا ٥٠ ميلا ليصل حيفا توقف عن العمل مع قيام إسرائيل . وقد اقترح حينئذ تحويل نهاية الشعبة إلى مخرج آخر فى لبنان ولكن الاقتراح

لم ينفذ وظلت الشعبة الجنوبية عاطلة حتى اليوم . أما الشعبة الشمالية فقد تم ازدواجها فى ١٩٥١ . وأصبحت طاقتها بذلك ٦ مليون طن ، وكان المفروض أن تكون طاقة الشبكة بشعبتيها ١٢-١٣ مليون طن .

ولقد كان ضياع الشعبة الجنوبية نهائيا - إلى جانب أزمة إيران - هو الدافع وراء الحلقة الثالثة فى توسع الشبكة . ففى ١٩٥٢ تم تثليث الشعبة الشمالية بأنبوب ضخم (٣٢ بوصة) هو أنبوب بانياس . وهو يتبع مسار الخط القائم غرباً حتى حمص حيث ينثنى شمالا بغرب إلى بانياس فى سوريا شمال طرابلس بنحو ٥٥ ميلا . وطوله بذلك ٥٥٥ ميلا ، وطاقته ١٤ مليون طن . وبهذا بلغت طاقة الأنابيب العراقية العاملة ٢٢ مليون طن فى ١٩٥٢ . وفى ١٩٥٢ أيضاً تم وصل حقل عين زالة بشبكة أنابيب كركوك وذلك بأنبوب ضيق (١٢ بوصة) طوله ١٣٥ ميلا وهو يسير غرب الدجلة ويوازيه مارا بالحقول القزمية حول القيارة حتى يصب فى أنبوب كركوك الرئيسى عند ك ٢ . وفى ١٩٥٩ تم إضافة خط رابع مواز لخطوط الشعبة الشمالية بقطر ٣٠ بوصة ، فأصبحت الشعبة الشمالية العاملة رباعية وزادت طاقتها النقلية . وبهذا تكون سوريا هى المخرج الحقيقى لبترول شمال العراق .

هذا وقد بلغت كمية تصريف الأنبوب العراقى بمختلف فروعه طوال المدة ١٩٣٤ - ١٩٥٩ نحو ٢٣٦٫٣ مليون طن . ولما كان إنتاج العراق طوال هذه الفترة هو ٣١٣٫٤ مليون طن ، فمعنى هذا أن الأنابيب اختصت بنحو ٧٥٪ من كل حركة تصريف الزيت العراقى . وهذا يدل على مدى اعتماد العراق على الأنابيب كمخرج[1] .

---

(١) عبد الله الطريقى ، فاروق الحسينى ، نقل البترول العربى ، القاهرة ١٩٦١ ص ١٦

أما أبرز ملامح جغرافية الشبكة فهى المسار الصحراوى الغالب عليها بكل ما يعنى هذا من صعوبات الإنشاء والصيانة . ولهذا يحاول تخطيط الشبكة أن يتفادى هذه الصعوبات بقدر الإمكان . فالشعبة الشمالية تحاول أن تستفيد من الواحات الطبيعية فنجد تدمر مثلا على الخط بين ط ٣ ، ط ٤ ، بينما الشعبة الجنوبية تجنح كاية إلى القطاع الشمالى الأقصى من رقعة الأردن وهى أقل صحراوية من القطاعات الجنوبية . كذلك يبرز فى الغرب عنصر التضاريس والاستثمار الزراعى والملكية الزراعية . فأما التضاريس فتستفيد الشعبة الشمالية من فتحة حمص ـ طرابلس ، كما تفيد من انحدار السطح هنا فى سريان الزيت بالجاذبية إلى منتهاه . أما الشعبة الجنوبية فقد عاقها منطقة اللافا الكالحة فى شرق الأردن حيث كان تمهيد الطريق عملية خارقة ، وكذلك كان أخدود الأردن العميق حيث لزم إنشاء محطة رفع Relief Station . أما عن الزراعة فقد كان تفتيت الملكيات الزراعية وكثافة الاستثمار مما ضخم مشكلة نزع الملكيات وتحديد التعويضات فى فلسطين ولبنان خاصة (١) .

التابلاين

تختلف مشكلة النقل فى حقول الخليج عنها فى شمال العراق حيث لا بديل الأنابيب . أما الخليج فأمامه إمكانيتان : الطريق البحرى إلى السويس ، أو البرى إلى الشام . وهناك مجموعتان من أنابيب الحقول تخدم كلا الطريقين . ولقد كان التابلاين أول الخطوط العربية هنا ، فقد حاولت الحكومة الأمريكية فى أواخر الأربعينات أن تقيم خطا يمتد من الخليج إلى ساحل البحر المتوسط ليكون عمودا فقريا لمصالحها الاستراتيجية ، ولكن عارض المشروع رجال الصناعة فى أمريكا دفاعاً عن « الاقتصاد الحر » ، وعارضته

(١) لونجريج ، ص ٨٧

بريطانيا خوفا على نفوذها فى الشرق الأوسط . وانتهى أمر الخط إلى شركة التابلاين . وقد كان الاختيار بين ٧ خطوط ممكنة منها إلى الاسكندرية ، أو إلى السويس ومنها إلى فلسطين ، ومنها إلى لبنان ـ وهو الذى رجحت كفته ، ولكن بعد تأرجح طويل بسبب الموقف السياسى فى فلسطين وقيام إسرائيل . فقد رفضت سوريا لفترة أن تمنحه حق الطريق حتى كاد يعدل إلى طريق آخر أو عن المشروع كلية .

على أن الخط تم فى ١٩٥٠ ، وكان بأبعاده وأحجامه ومشاكله ملحمة صناعية كبرى حقا ، فقد استدعى خلق ميناء خاصة على جزيرة صناعية على بعد ٣ أميال من رأس المشعاب التى أصبحت ميناء البناء . والخط يمتد من حقل الدمام إلى صيدا ، أو بالأحرى من الظهران إلى الزهرانى ، مسافة ١٠٧٦ ميلا (١٧١٢ كم) أى نحو ضعف أنبوب كركوك ، فكان حين إنشائه أطول أنبوب فى العالم القديم إلى أن عرف الاتحاد السوفيتى أنابيب أطول .

ويشمل الأنبوب شبكة التجميع فى حقول الحسا وكان طولها ٣١٥ ميلا زادت باطراد فى السنوات الأخيرة . والأنبوب قطره ٣١ بوصة ، كان يدفع الزيت فيه أولا ٦ محطات ضخ كلها فى السعودية لا الأردن ، تتباعد بفاصل قدره ١٥٠ ـ ١٨٠ ميلا . ويقع منها فى السعودية مجموعة هى من الشرق النعيرية ، القيصومة ، رفحاء ، بدنه ، طريف ، بينما تقع الأخيرة فى الأردن فى القريتين على الحدود السورية وطاقة الأنبوب ١٥ ـ ١٥٫٥ مليون طن فى السنة ، قابلة للزيادة إلى ٢٥ مليوناً بزيادة محطات الضخ . وقد احتاج الأنبوب لملئه إلى نحو مليون طن من الزيت الذى يحتاج إلى ١٥ يوما ليتم رحلته كما تحتاج صهاريج تخزينه فى الزهرانى إلى نحو مليون طن أخرى وقد رفعت طاقة الأنبوب تدريجيا إلى ٢٢٫٥ مليون طن فى ١٩٥٩ ، وذلك بعد

إضافة محطات بينية هى من الشرق طفيج ، واريه ، شباه Shubah ، حويقلة ، جلاميد . وبهذا أصبح عددها ١١ محطة .

وقد بلغ مجموع تصريف الأنبوب منذ إنشائه فى ١٩٥٠ حتى ١٩٦٠ ٥ ر ١٥٦ مليون طن . وهذا يعادل ٦ ر ٢٢ ٪ من مجموع انتاج السعودية طوال هذه الفترة . ومع ذلك فلم يعد الخط يعمل الآن بكل طاقته دائما وذلك بسبب منافسة الناقلات فى الأسعار (١) . ولهذا نجد تصريفه يتراوح بين مختلف السنوات . فقد ظل تصريفه يتراوح بين ١٤ ، ١٦ مليون طن فى الفترة ١٩٥١ — ١٩٥٧ ، ثم ارتفع إلى ١٨ مليونا فى ١٩٥٨ ، ولكنه عاد فهبط إلى ١٢ مليونا فقط فى ١٩٦٠ أو مايعادل ١ ر ٢٠ ٪ من انتاج السعودية . أى أنه هبط نصيبه من ثلث الانتاج إلى الخمس (٢) .

أما جغرافية الخط فأشد قسوة من خط كركوك . فعدا المناخ الصحراوى الجاف الذى استدعى حفر نحو ٥٠ بئراً ونقل الماء المقطر ، وانعدام العمران الذى استدعى جلب قوة دائمة من العمل بكل حاجاتها ، ومشاكل الموقع السحيق ، كانت هناك مشاكل الغرود والحجر الجيرى الهش واللافا الصلدة — والتابلاين يتقاطع فى الأردن مع أنبوب حيفا المعطل فى منطقة اللافا القاسية . ولعل أبرز حقيقة جغرافية فى توقيع الخط بعامة أنه يلتزم بإصرار الحدود مع العراق — حتى يكاد يتماس معها عند رفحاء ، وذلك حتى يبتعد بقدر الإمكان عن الدهناء والنفود قلب الصحراء ساعيا إلى أطرافها النسبية المخففة .

---

(١) لو نجريج ص ٢٤٩ .

(٢) عبد الله الطريقى ، فاروق الحسينى ، نقل البترول العربى القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١١

الأنابيب المحلية

هناك أخيرا شبكة من الأنابيب المحلية القصيرة حول الخليج العربى هى أدخل فى الطريق البحرى منها فى الطريق البرى لأنها إنما تغذى الأول وتخدمه فثمة أولا خط البصرة منذ ١٩٥١ ، ١٩٥٢ ، الذى يتألف من أنبوبين ويربط الرميلة بالزبير بالمصرة ثم البصرة بالفاو . ويلاحظ أن هذه الأنابيب هى الوحيدة فى العالم العربى الممدودة على سطح الأرض على نائمات خاصة دون أن تكون مدفونه تحت السطح ، وذلك تفاديا خطر التآكل فى التربة الملحية السائدة فى شط العرب .هذا وفى ١٩٦٠ بدأت ميناء جديدة تعمل إلى جوار الفاو فى شحن بترول البصرة وهى ميناء أم قصر التى أنشأتها شركة بترول البصره .

ثم هناك خطوط الكويت : من حقول الشمال أنبوب إلى حقول الجنوب ومنها إلى ميناء الأحمدى . ومن المحايدة يخرج أنبوب مزدوج إلى ميناء عبد الله فى الكويت وأنبوب مزدوج آخر إلى ميناء سعود فى المحايدة. أما فى السعودية فهناك أنبوب يساحل الساحل من حقل السفانية إلى رأس تنوره مارا بحقل الخرسانية . ثم شبكة أنابيب تربط حقل الغوار بأبقيق بالدمام والقطيف وأخيرا برأس تنوره ، كما تتصل بالتابلاين من الناحية الأخرى وبالبحرين من تحت البحر من ناحية ثالثة . وهناك أخيراً خط مثلث يعبر شبه جزيرة قطر من الغرب إلى الشرق من حقل الدخان إلى ميناء الشحن أم سعيد .

النمط الجغرافى للأنابيب

النمط الجغرافى العام للأنابيب فى المشرق العربى يرسم شكل مروحة تنتشر من أقصى شمال العراق إلى منتصف الخليج العربى وتستقطب فى ساحل

الشام على حدود سوريا - لبنان في الشمال ولبنان - فلسطين في الجنوب ، مما يجعل لبنان قاسما مشتركا أعظم في نهاية الشبكة . وطاقة هذه الشبكة تزيد اليوم عن ٥٠ مليون طن . والمهم أن هذه المروحة تتفق إلى حد بعيد أو بقدر الإمكان مع الهلال الخصيب - حتى التابلاين يجنح إليه قدر المستطاع . ولا شك أن هذا الطريق يذكر توا بالأوفر لاندروت التاريخي : إن أنابيب البترول هي « طرق القوافل الحديثة » ، وشبكتها هي وريثة الأوفر لاندروت والترجمة الحديثة له . وكما كان طريق الخليج - الشام يتنافس - ويتكامل - في توازن متحرك دائم طوال العصور الوسطى مع طريق البحر الأحمر - مصر ، فكذلك يفعل الطريقان البتروليان اليوم .

الأنابيب المشروعات

لئن كان التابلاين هو الخط البرى الوحيد القائم بين الخليج والبحر المتوسط ، فقد كان هناك مجموعة كاملة من المشروعات المشابهة التي لم تتحقق والتي يقع بعضها داخل العالم العربي . ويمكن أن نذكر منها ستة : الميبلاين ، مشروع الأنبوب التركي ، المشروع السعودي ، المشروع الأوربي ، مشروع أنبوب قم ، والمشروع الاسرائيلي .

أما الميب Mepline (Middle East Pipeline) فظهرت فكرته في ١٩٤٧ أي حين لم يكن أنبوب العراق إلا خطاً منفردا . وهو يقضي بأن يجمع بترول إيران والعراق والكويت معاً في أنبوب ضخم ، ٣٤ - ٣٦ بوصة ، طاقته ٢٢ مليون طن سنوياً ، يمتد ٨٠٠ - ٨٥٠ ميلا مخترقا وسط العراق تقريباً حتى يتبع مسار الشعبة الشمالية لأنبوب شمال العراق منتهيا بعدها إلى ميناء طرطوس في سوريا . وقد تألفت بالفعل شركة للخط وحصلت

على حق الطريق من سوريا إلا أن العراق رفض المشروع قبل أن يتم استغلال مواردها البترولية استغلالا تاما حتى لا يشجع الخط الجديد على إهمال التوسع فى إستغلال بترولها هى [١] .

أما مشروع الأنبوب التركى فقد قدمته الشركات الغربية فى ١٩٥٧ بعد أزمة السويس . وهو يقضى بمد أنبوب ضخم من شمال العراق عبر جنوب تركيا الى البحر المتوسط عند الاسكندرونة أو مرسين . ويمكن فيما بعد مد الخط جنوبا الى الخليج العربى والكويت للعمل فى اتجاهين وحدد للمشروع طاقة قدرها ٧٠ مليون طن [٢]. ومن الواضح أن الأنبوب التركى خط سياسى بحت قصد به الرد على أزمة السويس . فهو أولا يأخذ مساراً أطول من المخرج الطبيعى المباشر لبترول شمال العراق عن طريق سوريا . وثانيا يترك الطريق السهلى المنخفض ليرقى عامدا طريقا وعرا مضرسا . وهو أخيراً يتعارض مع مبدأ التضامن العربى ولهذا رفضه العراق . إن المشروع ممكن تضاريسيا ، باهظ اقتصاديا ، مستحيل سياسيا . ولذلك انتقل إلى قائمة المشروعات الميتة [٣].

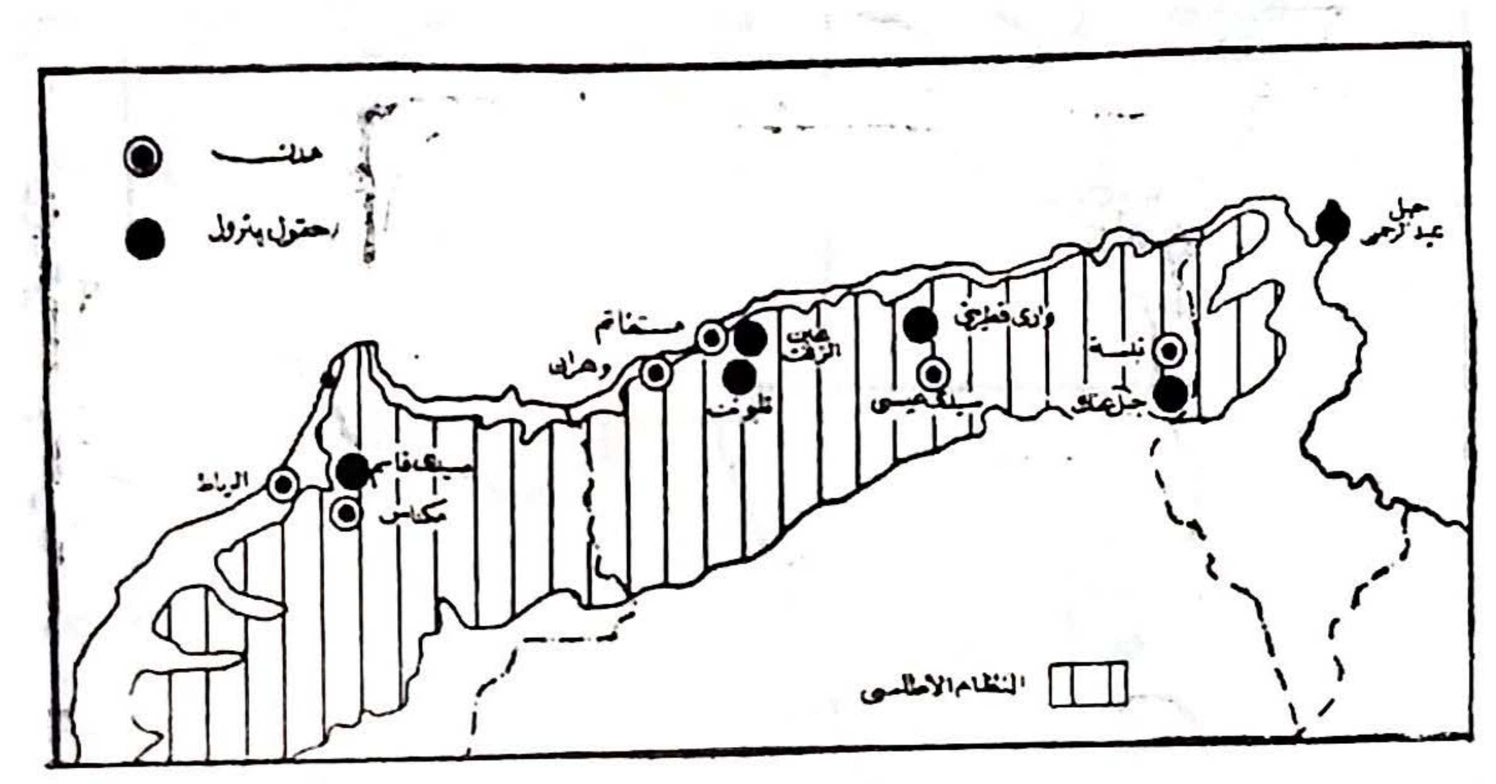
أما المشروع السعودى فحديث (١٩٥٩) ولا يخص الشرق الأوسط بل المشرق العربى . وقد قدم كرد على مشروع الأنبوب التركى . وهو يدعو الى خطين متوازيين قطر ٣٢ بوصة بطاقة ٥٠ مليون طن ، تبدأ من الخليج بخطوط تغذية تجمع بترول قطر وشمال وجنوب العراق

---

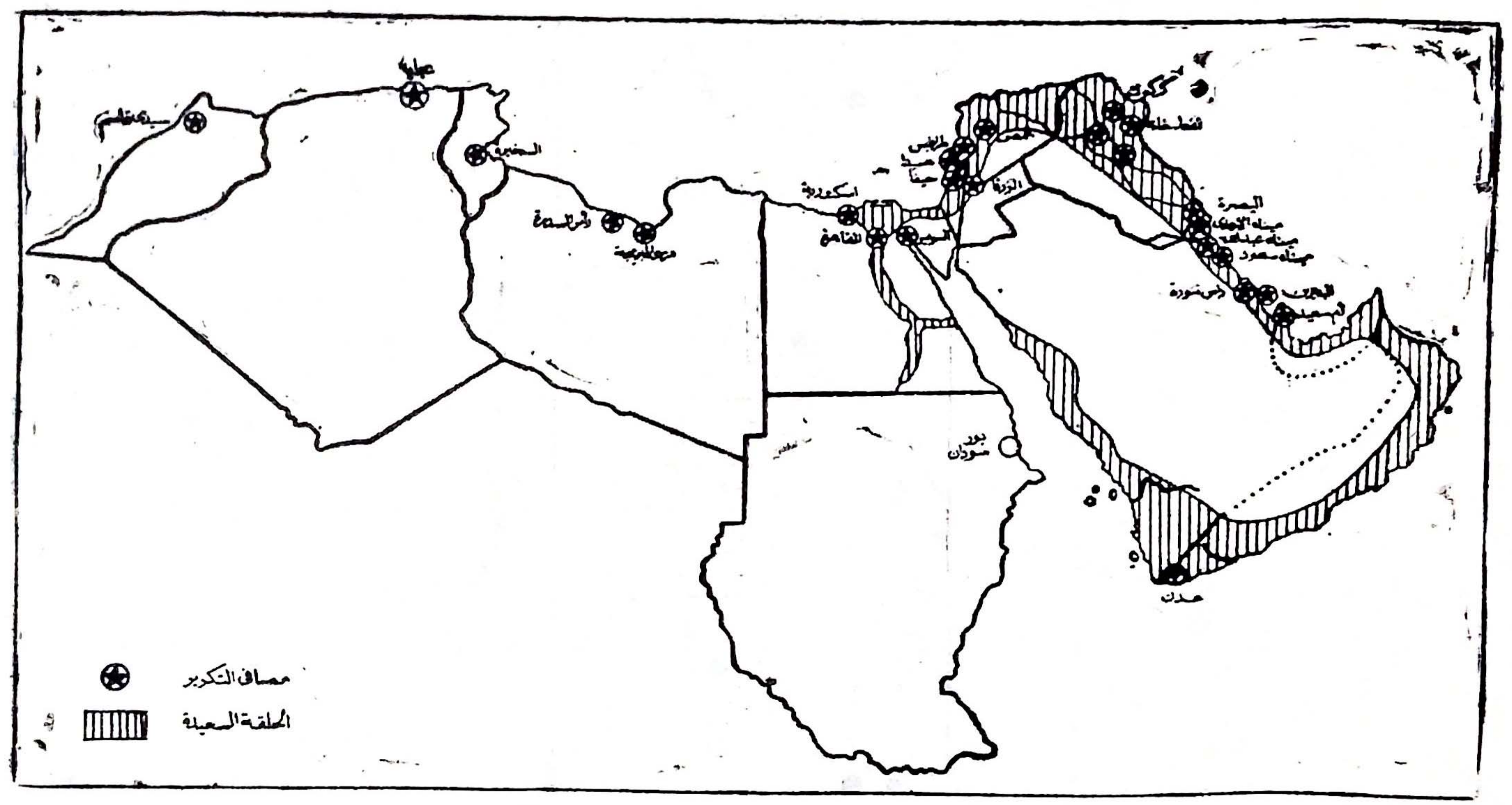
(1) Hoskins. p 221.

(2) The Middle East. Roy. Inst. Intern. Affairs, p. 5q.

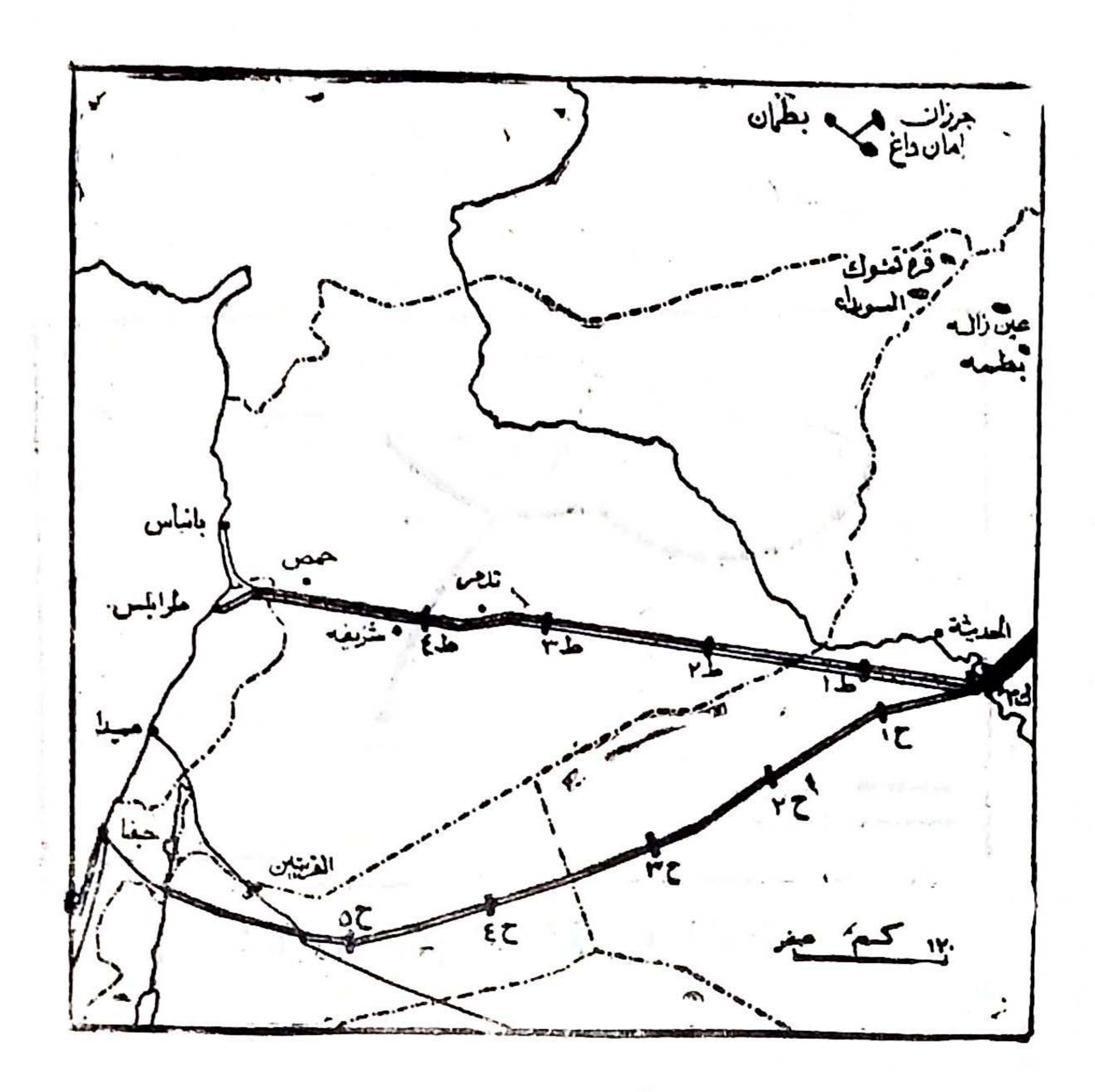
(٣) مجلة بترول الشرق الاوسط مايو ١٩٥٨ ص ١٠ ، لونجريج ص ٢٧١ .



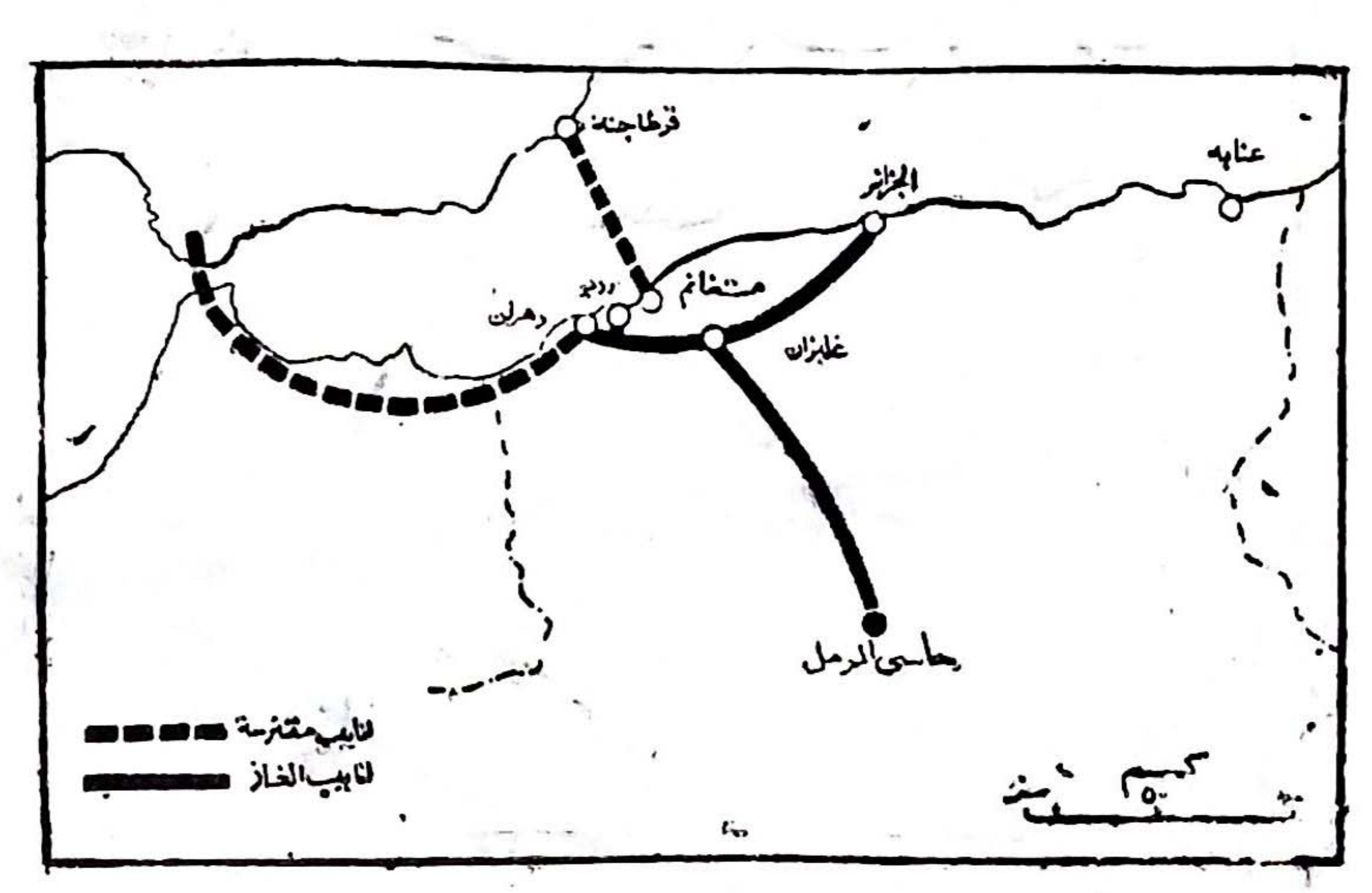
شكل ١٣ — بترول أطلس



شكل ١٤ — توزيع مصافى التكرير فى العالم العربى . لاحظ تركزها فى « الحلقة السعيدة »



شكل ١٥ — شبكة أنابيب البترول في الهلال الخصيب



شكل ١٦ — نقل الغاز الطبيعي في الجزائر

الى جانب بترول الدول العربية البينية. ولكن بعض الدول العربية رفضت المشروع (١).

أما المشروع الأوربى فظهر فى أوائل الخمسينات لخدمة اقتصاديات أوربا وتنمية مابعد الحرب. وهو مشروع ضخم يهدف الى مد أنبوب ضخم للبترول من كركوك شمال العراق مخترقا الأناضول الى البلقان الى وسط وغرب أوربا حتى باريس، بطول قدره ٢٥٠٠ ميلا. ويمكن أن يلحق به من الجنوب وصلة من وحدات الخليج العربى على أن تخرج منه خطوط فرعية للتغذية المحلية على طول الطريق. كذلك اقترح المشروع مد أنبوب مجاور للغاز بنفس الطول. كما اقترح مد أنبوب للبترول من الخليج العربى إلى شمال أفريقيا على طول الساحل إلى المغرب ثم يعبر البحر إلى اسبانيا إلى فرنسا. وكان طبيعيا أن يكون مصير هذا المشروع الخيالى هو الاهمال لضخامته النادرة وتعدد الدول التى يمر بها وصعوبة التمويل(٢). ولكن الفكرة ترددت من وقت لآخر فى صور مختلفة منها أخيرا المشروع الألمانى الذى يقترح إنشاء أنبوب ينقل بترول السعودية إلى البحر المتوسط إلى بافاريا(٣).

أما خط قم - الاسكندرونة فمشروع قدم لينقل إلى البحر بترول قم الذى ظهر فى إيران جنوب طهران بمائة ميل. وقد قدر طول الخط المقترح بنحو ١٠٠٠ ميل بطاقة تبلغ ٣٠ مليون طن. ولكن المشروع كان سابقا لأوانه إذ لم تتضح إمكانيات الحقل الجديد بعد حتى تبرر هذه التكاليف الضخمة. كما أن تركيا طالبت برسوم مرور باهظة (٤).

---

(١) لونجريج ص ٢٩٩

(٢) البترول والسياسة العربية، احترنا لك ص ١٢٦ — ١٣٠

(٣) لونجريج ص ٢٩٩.

(٤) مجلة بترول الشرق الأوسط. سبتمبر ١٩٥٨ ص ١٨

أما المشروع الإسرائيلي فليس لأنبوب ولكن لخط من سيارات نقل البترول ، يهدف إلى طاقة قدرها ٤٠ مليون طن معتمداً على بترول إيران لمنافسة قناة السويس . ومثل هذا المشروع فاشل إقتصادياً لإرتفاع تكاليف النقل البرى ، ولتعدد الشحن والتفريغ Break — of— Bulk بلا مبرر . ثم هو فاشل سياسياً لأن ظروف تعاون إيران ظروف غير طبيعية .

المغرب العربى

هنا أحدث أنابيب فى العالم العربى . و «الشبكة» هنا لازالت مخلخلة للغاية ، لأن كثيراً من الحقول الداخلية فى كل من الجزائر وليبيا لم تستغل بعد . والشبكة فى هيكلها تتألف من خطين متوازيين ، إلا أن خط أنبوب الغاز بدأ يعطيها شكلا مروحياً كما فى المشرق العربى . وهنا أيضاً سنجد الأنابيب صورة جديدة لطرق القوافل القديمة عبر الصحراء الكبرى . وطاقة الشبكة حالياً لا تزيد عن ١٧ مليون طن مقابل ٥٠ مليوناً لشبكة المشرق ولكنها تتزايد مع الإنتاج .

ليبيا [1]

مافى ليبيا ليس إلا أنابيب تجميع قصيرة من الحقول الساحلية إلى الميناء . ومجموع أطوال «شبكة» أنابيب ليبيا لا يزيد عن ١٩٥ ميلا — والقصر هنا ميزة إقتصادية محققة . وهى تمتد فى رقعة سهلية خالية من العقبات الطبيعية ، وتنساب بالجاذبية بلا مجهود . وهى فى كل هذا عكس أنابيب الجزائر . وأنابيب ليبيا اثنان . الأول تم فى نهاية ١٩٦١ ، يمتد

(1) J. I. Clarke, « Oil in Libya etc., » op cit., pp. 46 - 8.

من زليتن إلى ميناثها الجديدة مرسى البريجة فى « كوع » خليج سدرة . طوله ١١٠ ميلا ، وسمكه ٣٠ بوصة ، وطاقته ١٦٥ ألف برميل فى اليوم يمكن زيادتها بسهولة . ولا يعترض الأنبوب إلا حافة واحدة هى تلال مردة Marada ، بعدها ينساب « بالراحة » إلى البحر . ولقد بلغ متوسط نقله فى ١٩٦٢ نحو ١٢٥ ألف برميل يوميا . هذا وقد أنشىء أنبوب توصيل صغير ليصل حقل راقوبة بأنبوب زليتن . وطول الوصلة ٥٠ ميلا وطاقتها ٤٠ ألف برميل يوميا أو نحو ٢ مليون طن سنويا .

أما الميناء Port Brega فقد أنشئت على نحو ٧٠٠٠ فدانا من الكثبان ، وجهزت بأرصفة يمكن أن تستقبل ناقلات حمولة حتى ٨٦ ألف طن . وكان هناك مشروع لأول مصفى تم فى منتصف ١٩٦٣ ، بقدرة ٨٠٠٠ برميل يوميا . وثمة كذلك مشروع لأنبوب ماء سمك ٣٦ بوصة يوازى أنبوب البترول ويحمل ٥٠٠ ألف برميل يوميا من ماء البحر ليحقن بها خزان بترول زليتن للمحافظة على الضغط فيه . ويشغل الأنبوب مضختان فى زليتن والبريجة .

الخط الثانى يصل حقل باهى — ضهرة بالبحر عند رأس السدرة . تم فى ١٩٦٢ بطول قدره ٨٥ ميلا وقطر ٣٠ بوصة وطاقة تبلغ ٣٠٠ ألف برميل يوميا على أن ينقل مبدئيا ١٠٠ ألف برميل يوميا . والخط ينحرف نحو الشمال الغربى متباعداً عن الخط الأول . وهنا نرى فى اختيار رأس السدرة على هذا القدر من البعد عن مرسى البريجة قطعة من الإستراتيجية الذكية بعيدة النظر . فرغم أن تكاليف الميناءين كانت باهظة ، فإن تباعدهما سيضمن لها فى المستقبل أن يجذبا إليهما أى أنابيب قد تستجد وتأسر تصريف أى حقول قد تظهر فى كل نطاق وسط شمال ليبيا ،

بل وجنوبها أيضا . وتصب فى الخط وصلة صغيرة تأتيه من حقل مبروك طولها ٣٩ ميلا وقطرها ٢٤ بوصة . وهناك مشروع آخر قيد التنفيذ لوصلة تربط حقل واحة — ضيفة بحقل باهى — ضهرة بطول قدره نحو ١٥٠ ميلا وقطر ٣٤ بوصة ، وهو الآن على وشك العمل .

هل ينتظر لليبيا مزيد من الأنابيب ؟ نعم على الأرجح . ففى طرابلس احتمالات بترولية اتضحت من نشاط ١٩٦١ . ولذا فلا يستبعد مد أنابيب هنا . وحينئذ سيكون هناك طريقان : إما إلى ميناء سدرة نفسها ، وإما إلى ميناء طرابلس . والأخير يعنى إرتقاء حافة جبل نفوسة ١٥٠٠ قدما ، ولكنه يعوض فى النهاية بوجود ميناء جاهزة معدة . أما عن فزان فالأمر يحتاج إلى أنبوب ضخم يناهز ٥٠٠ ميلا ، وهو بعد لا تبرره الموارد المحققة حتى الآن . أما برقة فقد تقرر فعلا مد أنبوب ينتهى إلى طبرق وسيكون بهذا ثالث خطوط ليبيا .

الجزائر (١)

أما فى الجزائر ، فقد كانت المشكلة هى الموقع الداخلى السحيق مضافا إليه حواجز الإرج (العرق) ثم حائط الأطلس ، مما يضعها فى موقف تجارى سيء بالمقارنة بليبيا . ولهذه الأسباب اتجه التفكير فى وقت ما إلى أن ننقل البحر إلى البترول بدل أن ننقل البترول إلى البحر . وذلك بإنشاء بحر صناعى داخلى عن طريق شق قناة من قابس إلى شط الجريد ـ ملغير . ولم تكن الفكرة حديثه تماما ، بل ترجع جذورها إلى القرن الماضى فى ١٨٧٦ حين اقترحها مهندس فرنسى هو رودير Roudaire بالإشتراك مع دى ليسبس بعد شق قناة السويس ، كوسيلة لفتح الصحراء للتعدين والسياحة .

---

(1) Clarke, « Changes in Sahara etc. » pp. 110 ff.

والذى يشجع على المشروع أن جزءاً كبيراً من المنطقة يقع تحت البحر ـ ويذكر هيرودوت أن المنطقة كانت متصلة بالبحر المتوسط أيام الرومان وكانت تعرف بخليج تريتون Bay of Triton . ولهذا فشط ملغير فى الجزائر بحيرة جافة عرضها ٨٠ ميلا وتقع كلية تحت مستوى سطح البحر ، بينما الجريد فى تونس أعلى قليلا من مستوى سطح البحر . ولكن سطحه هش مفتت وقد يذوب إذا غزاه ماء البحر وإلا فإن من السهل تكريكه وتطهيره . ولهذا لا نحتاج إلا إلى قناتين قصيرتين واحدة طولها ٣٠ ميلا تربط شط الجريد بخليج قابس وأخرى تصل الشطين ببعضهما قرب توزر . ومجموع طول القنوات لا يزيد عن ٩١ ميلا ، والخليج الناشىء ستبلغ مساحته (بحسبان شط الجريد مسطحاً مائياً) ٥٠٠٠ ميلا ٢ ، وقد يعدل المناخ المحلى قليلا ، بينما سيتعمق البحر فى القارة نحو ٢٥٠ ميلا إلى الداخل(١) .

وهذا لن يحقق نقلا بحرياً خالصاً للبترول وغيره من المعادن ولكنه سيختزل أغلب المسافة إلى الحقول ويتفادى ارتقاء الأطلس . والفكرة فى مجموعها تشبه ـ مع الفارق ـ فكرة منخفض القطارة على نفس الساحل الجنوبى للبحر المتوسط من حيث خلق جغرافية طبيعية جديدة تماماً عن طريق تغيير العلاقة المحلية بين الماء واليابس . وقد اقترح البعض استخدام القوة الذرية فى حفر القنوات ، وقدر أن هذا يكلف نصف النفقات العادية . ولكن المشروع أهمل فى النهاية لصعوبته العملية والفنية وأصبح لا مفر من الأنابيب الضخمة الباهظة(٢) . وهناك الآن أنبوبان كبيران للبترول هما

---

(1) W. N. Hess, «New Horizons in Resource Development. The Role of Nuclear Explosions.», Geog. Rev., Jan. 1962, pp. 14-15.

(٢) مجلة بترول الشرق الأوسط . ابريل ١٩٥٨ . ص ٦ .

انبوب بجاية وأنبوب قابس بجموع أطوالها (حتى ١٩٦١) ١٣٠٠ ميلا ويرسمان معا شكل رقم ٧ وذلك عدا أنبوب ثالث للغاز الطبيعى . وقد أعلن أخيراً عن أنبوب جديدللبترول تقرر مده .

أنبوب بجـاية

فأما أنبوب بجاية فيخدم حقول حاسى مسعود ،أولا بأنبوب طوله ١٧٠ كم وقطره ٦ بوصة إلى توغرت وبعدها كان الخام ينقل بالسكة الحديدية إلى ميناء سكيكيدة (فيليبفيل) . ولـكن هذه الطريقة الباهظة غير الاقتصادية استبدلت فى ١٩٥٩ بأنبوب طوله ٤٠٠ ميلا وقطره ٢٥ بوصة ينتهى إلى بجاية مخرج الزيت الجديد الذى قد أعد ليستقبل ناقلات ٦٥ ألف طن . وقد مد الأنبوب بعد هذا من حاسى مسعود إلى الجاسى ـ الأقرب لمسافة ٧٥ ميلا بقطر ضيق (١٠ بوصة) وطاقته نصف مليون طن .

وينقسم الأنبوب الرئيسى إلى قطاعين : القطاع الأكبر من نقطة الابتداء عند حوض الحمراء إلى جنوب مسيلة ، وطوله ٤٤٥ كم . أما القطاع الأصغر فيمتد بين مسيلة وبجاية وطوله ٢١٥ كم . ويصل الأنبوب فى أقصى ارتفاع يمر به فى قمة سيلاتنا Selatna شمال مسيلة بمسافة . ولهذا فقطر الجزء الأكبر من القطاع الجنوبى الصاعد هو ٢٤ بوصة تنخفض إلى ٢٣ فى الجزء الأكبر من القطاع الشمالى الهابط . وعلى الأنبوب ٤ محطات للضخ والدفع تقع عند حوض الحمراء والجامع وبسكرة ومسيلة . وقد نمت طاقة الأنبوب مع إنشاء هذه المحطات على التعاقب من ٥ر٤ مليون طن فى البداية إلى ٥ر٩ فى ١٩٦٠ إلى حدها الأقصى وهو ١٤ مليون طن فى ١٩٦١ (١) .

(١) البراوى . ثورة البترول .ص٨٦ — ٨٧ .

والخط يكاد يتبع مساراً مستقيماً نحو الشمال . وهو فى قطاعه الجنوبى يجرى على أرض سهلة منخفضة هى أطراف حوض الانخفاض البحرى القديم كما يقع بعيداً نسبياً عن الأطراف الغربية للارج (العرق) الشرقى الكبير . كذلك من حسن الحظ أنه يستفيد من فتحة منخفضة جداً فى سلسلة الأطلس الصحراوية هى فتحة طولقة بين بسكرة ومنخفض شط الحضنة . ولكنه بعد ذلك يرقى هضبة الشطوط وأطلس البحرية إلا أنه يتحاشى بقدر الامكان السلاسل المحلية ويمرق بينها . وإلى جانب صعوبات الجغرافيا الطبيعية كانت هناك صعوبات الجغرافيا السياسية : فمنذ بدء إنشائه وهو هدف لتخريب جيش التحرير الجزائرى . وهناك مشروع أنبوب من حاسى مسعود إلى السخيرة . كما كان هناك مشروع أمريكى بمد أنبوب من حقل حاسى مسعود إلى فور بولنياك ومنه إلى ميناء طرابلس فى ليبيا .

أنبوب قابس

أما أنبوب قابس فيخدم حقول فور بولينياك . وقد أعتقد أول الأمر أن من الصعب مد أنبوب منها ليتصل بأنبوب حاسى مسعود وذلك عبر الإرج الشرقى الكبير الذى يفصل بين الحوضين . ولهذا اتجه البحث عن مخرج مستقل على خليج قابس ، وتأرجح الاختيار بين زوارة أقصى موانى الغرب فى طرابلس بليبيا وبين قابس فى تونس ، ورجحت كفة قابس . وفى ١٩٦٠ كان قد مد أنبوب طوله ٥٥٠ ميلا من مركز تجميع الحقل فى عين أميناس In Amenas إلى ميناء البترول الجديد السخيرة La Skhirra شمال قابس . وهو يستقبل ناقلات حمولة ٧٥ ألف طن . وقطر الأنبوب ٢٤ بوصة ، وكان يحمل ٧ مليون طن ارتفعت إلى ٩٫٥ مليون طن منذ ١٩٦١ ، ويمكن زيادتها إلى الضعف بإضافة مضخات على الطريق .

والانبوب يحاذى الحدود الجزائرية - الليبية حتى غدامس حيث تبدأ الحدود التونسية - الجزائرية ، ممتداً على صحراء صخرية معقولة هى حمادة تنغرت . ولكنه بعد هذا يظل لمسافة يوازى الحدود الليبية- التونسية وليس الحدود الجزائرية - التونسية وذلك تفادياً للنهاية الشرقية للارج الشرقى الكبير . وبعدها يتجه شمالا على سطح مستو متحاشيا سلسلة من التلال والمرتفعات إلى الشرق هى تلال مدنين ومطماطه . ومن الواضح أن الجغرافيا الطبيعية لأنبوب قابس أقل وعورة وصعوبة بكثير منها لأنبوب بجاية . كما سيلاحظ أن أنبوب قابس أنبوب غير جزائرى - ثلثاه يمتد فى تونس - وقد فضل الفرنسيون هذا هربا من خطر جيش التحرير الجزائرى .

على أنه بعد اكتشاف حقل أوهانيه Ohanet فى ١٩٦٠ فى نفس حوض فور بولينياك تقرر وصله بأنبوب حاسى مسعود على بعد ٣٥٠ ميلا إلى الشمال الغربى وعبر قلب الإرج الكبير ا - بدلا من أنبوب قابس على بعد ٧٥ ميلا فقط . ومعنى هذا إما أن حوض فور بولينياك أعظم رصيداً من حوض حاسى مسعود وإما أن فرنسا كانت لا تريد أن تعتمد أكثر مما ينبغى على أنبوب غير جزائرى(١) . ويبدو أن الاحتمال الثانى هو الأصح، فقد بدا هذا حين اصطدمت فرنسا بتونس فى أزمة بنزرت ١٩٦١ . فحينئذ أغلقت تونس ميناء السخيرة فتوقف تدفق البترول فى الأنبوب ، وتكبدت الشركات الفرنسية خسائر فادحة وبدأت تفكر جديا فى تنفيذ مشروع وصلة حاسى مسعود . ولكن المشروع توارى بعد تسوية

---

(١) Çlarke, "Changes in the Sahara etc ", p. 113.

الأزمة ، ولو أنه ظـــل من إمكانيات المستقبل(١) .

ومهما يكن فقد أصبحت تونس بهذا فى وضع من المغرب يشبه فى أكثر من ناحية وضع لبنان فى الشام ، فكل منهما قطر صغير المساحه لكنه متوسط الموقع ، وكل منهما لا ينتج الزيت ولكنه مخرج له حيوى .

أنبوب الغاز

أما أنبوب الغاز فقد تم فى ١٩٦١ . واصلا حقل حاسى مسعود بحقل حاسى الرمال وبعدها يستمر ٥٠٠ كم نحو الشمال الغربى إلى الأغواط حيث يظل مستفيداً من سهولة التضاريس ـ كما يدل إسم الأغواط . ثم يستمر فى نفس الاتجاه قاطعاً هضبة الشطوط المتغضنة Corrugated حتى غليزان Relizane وأخيراً إلى أرزيو Arzew على الساحل شرق وهران . والقطر من حاسى مسعود حتى غليزان ٢٤ بوصة ، ومن غليزان إلى أرزيو ٢٠ بوصة. والمقرر الآن أن يصل الإنتاج ٢٫٥ مليون متر٣ فى اليوم ، كما أن من المؤمل أن يصل الاستهلاك المحلى فى الجزائر إلى ٣ أمثال هذا القدر أى إلى ١٥٠٠ مليون متر٣ سنويا ، وأن يصل التصدير الخارجى إلى ٢٠٠٠ مليون متر٣ سنوياً . أما عن الاستهلاك المحلى فهناك أنبوب يخرج من أرزيو إلى مدينة الجزائر شرقاً ووهران غرباً ، أما عن النقل عبر البحر إلى أوربا فهناك ثلاث إمكانيات : إما بتحويل الغاز إلى سائل الميثين مع التبريد الشـــديد Deep Freeze ونقله بالناقلات، وإما أن يمد أنبوب الغاز الحالى إلى شبه جزيرة رأس بون (دخلة المعاوين) بتونس وإنشاء أنبوب غاطس تحت سطح البحر

---

(١) البراوى ، ثورة البترول ص ٥٨.

إلى صقلية وجنوب ايطاليا ، وإما بإنشاء أنبوب غاطس أطول من أرزيو أو مستغانم الى قرطاجنة فى جنوب شرق أسبانيا ليكمله أنبوب برى عبر أسبانيا الى فرنسا . أو عن طريق مضيق جبل طارق .

فأما مشروع الإسالة فباهظ التكاليف لأن وحدة الإسالة تتكلف ٣٠ مليون جنيها وحدها . وأما طريق جبل طارق فقد يكون أقصر طريق ، لكن قاع البحر وعر مضرس ومعرض لتيارات بحرية عنيفة ، وأكثر من ذلك أنه يستدعى مد الأنابيب البرية فى غرب الجزائر لمسافة إضافية قدرها ٥٠٠ كم . وأما طريق قرطاجنة فلا يستدعى تمديد الأنابيب البرية القائمة ، وقاع البحر ليس شديد التضرس ، ولكن الشقة البحرية واسعة تصل الى ٢٠٠ كم وتصل خطوط الأعماق فيها الى ٢٧٠٠ متراً فى بعض القطاعات . وفى حالة كل الأنابيب الغاطسة لابد من حساب طاقة الإستهلاك فى دول المرور ايطاليا وأسبانيا ، كما لابد أن نذكر أن طاقة استيعاب فرنسا فى حالة الشعبة الإسبانية تستوعبها حقولها فى اللاك .

من بين هذه الإمكانيات استقر الرأى أخيراً على مشروع الإسالة فى أرزيو وبدأ التنفيذ بالفعل منذ أواخر ١٩٦٢ (١) . ولكن ثمة اعتبار جد فى اللحظة الأخيرة حديثاً . فقد كشف عن حقل غنى للغاز فى هولندة يمكن أن يغذى بلجيكا وشمال فرنسا بتكاليف اقتصادية لا يمكن أن تناظرها أو تنافسها أنابيب غاز الصحراء المتطوحة . ويقترح البعض فى هذه الحال أن تتجه أنابيب الجزائر وجهة إفريقية لا أوربية فتمد لتغذى دول الصحراء الداخلية مثل مالى والنيجر وموريتانيا ودول غرب إفريقيا إذا لزم أو أمكن .

---

(١) البراوى . ثورة البترول . ص ١٠٦ و ١٠٨

قناة السويس

تطور حركة البترول فى القناة

تكاد تتعاصر بداية قناة السويس مع الكشوف الأولى للبترول فى العالم العربى ، ولكنها لم تتأثر بالبترول جديا إلا مع بدء استغلاله . ومنذ وقت مبكر كانت حركة البترول فى القنال تتم فى الاتجاهين ، ومن الطريف أن حركته من الشمال كانت تزيد عنها من الجنوب كما فى ١٩١٣ مثلا . ولكن منذ بدأ استثمار بترول إيران انعكس الوضع ، وأصبحت حركة البترول من الشمال باطراد حركة رمزية فقط . وبعد الحرب الأولى زادت حركة البترول من الجنوب باطراد من ٢ — ٣ مليون طن فى العشرينات إلى ٤ — ٥ مليون فى الثلاثينات فبلغت ٥ مليون تقريبا فى ١٩٣٩ . والجدول الآتى يتتبع حركة البترول فى القناة منذ ذلك التاريخ (١) .

وفى الجدول عدة حقائق واضحة . فهناك – أولا – زيادة هائلة مطردة فى حركة القناة عامة ، ففى العقدين تضاعفت حمولتها نحو ٧ الأمثال (٦٧٦٪) وهى الآن تمثل نحو ١٤٫٥ ٪ من مجموع التجارة الدولية فى العالم .

ثانيا : الزيادة فى حركة القناة من الجنوب أعظم منها بكثير من الشمال ، ولهذا فإن نسبة الأخيرة إلى الأولى فى تناقص مطرد .

ثالثا : هناك زيادة فريدة فى حركة البترول فى القناة ، طفرت أثناء

---

(١) البنك الأهلى المصرى . النشرة الاقتصادية . مجلد ١٣ عدد ٢ ، ١٩٦٠ . ص ١٧٦ — ١٧٧ ؛ مجلد ١٤ ، عدد ٤ ، ١٩٦١ ، ص ٤٥٩

السنة	مجموع حركة القنال عامة			مجموع حركة البترول فى الاتجاهين	نسبة مجموع البترول من مجموع الحركة ٪
	من الجنوب	من الشمال	المجموع		
١٩٣٩	١٧ر١	٧ر٥	٢٤ر٦	٥ر٢	٢١ر١
١٩٤٨	٣٩ر٦	٩ر٧	٤٩ر٠	٢٩ر٠	٥٨ر٩
١٩٤٩	٤٨ر٠	١٣ر٠	٦١ر٠	٣٧ر٠	٦٠ر٦
١٩٥٣	٦٧ر٩	٢٢ر٥	٩٠ر٤	٥٦ر٦	٦٢ر٦
١٩٥٥	٨٧ر٤	٢٠ر٨	١٠٨ر٢	٦٨ر٨	٦٣ر٥
١٩٥٨	١١٤ر٤	٢٤ر٩	١٣٩ر٣	٩٦ر٧	٦٩ر٠
١٩٥٩	١٢١ر٧	٢٦ر٥	١٤٨ر٢	١٠١ر١	٦٨ر٣
١٩٦٠	١٣٩ر٦	٢٩ر٢	١٦٨ر٩	١١٧ر٤	٦٩ر٥
١٩٦١	١٣٩ر٥	٣٢ر٨	١٧٢ر٣	١٢٠ر٧	٧٠ر١
١٩٦٣	—	—	٢١٠		

العقدين بنسبة ٢٤ مثلا (٢٤٠٠ ٪) . ومعنى هذا أن نسبة زيادة حمولة البترول فى الفترة تعادل نسبة زيادة الحمولة العامة أكثر من ثلاثة الأمثال .

رابعا : هناك زيادة كبيرة مطردة فى القيمة النسبية للبترول فى حركة القناة ، فبعد أن كان البترول ⅕ حمولة القناة فى أول الفترة أصبح ٧/١٠ منها فى آخر الفترة ، أى أنه أصبح أهم سلعة على الإطلاق فى حركة القناة ، وأصبح يمثل وحده نحو ١٠ ٪ من حجم التجارة الدولية فى العالم .

خامسا : هناك فترات عابرة تناقص أو تباطأ فيها نمو حركة البترول فى القناة . فأثناء الحرب الثانية كانت الملاحة متقطعة غير منتظمة . وفى سنة

مثل ١٩٥١ اهتز المعدل بشدة لسببين أولهما بدء عمل التابلاين الذى سلب القناة حمولة ضخمة فى يوم وليلة ، وثانيهما أزمة إيران التى أوقفت رافدا رئيسيا من روافد الحركة التى تنصب فى القناة . على أن زيادة الإنتاج الفجائية فى وحدات الخليج العربية ــ كنتيجة لأزمة إيران واستفادة منها ـ سرعان ماصححت الموقف بالنسبة للقناة (١) .

سادسا : قبل البترول كانت حركة القناة فى الاتجاهين هى أساسا مصنوعات من الشمال وخامات من الجنوب . البترول لم يغير هذه الصورة التقليدية وإنما أكدها .

سابعا : تيار البترول يتجه أساسا من الجنوب إلى الشمال . فمن نحو ١٠١ر٣ مليون طن بترول عبرت القناة فى ١٩٥٩ أتى ٩٨ر٧ من الجنوب ، مقابل ٢ر٦ من الشمال . وفى ١٩٦٠ أتى ١١٤ر٥ من الجنوب تعادل ٨٢ ./. من كل الآتى من الجنوب . وفى ١٩٦١ أتى ١١٤ر٣ من الجنوب مقابل ٦ر٤ من الشمال . وهذا التيار العكسى الراجع مصدره الرئيسى الاتحاد السوفيتى ورومانيا ووجهته مصر والصين وسيبريا واليابان . وإذا كانت مشتقات البترول ـ من مصافى البحرين وعبدان والكويت والتنورة وعدن ـ تمثل فى التيار الرئيسى نحو العشر (١١ر٣ مليون طن من ٩٨ر٧ فى ١٩٥٩) فإنها تشكل نحو نصف التيار العكسى .

ثامنا ــ لما كان البترول أساسا يتحرك من الجنوب الى الشمال ، فإننا

---

(١) Hoskins, p. 50

نرى فى الجدول معامل ارتباط عكسى وثيق بين زيادة نسبة البترول فى الحركة وزيادة الحركة العامة فى القناة من ناحية ، وبين تناقص نسبة الحركة العامة من الشمال بالنسبة للحركة العامة من الجنوب من جهة أخرى .

هذا ويمكن أن نعبر عن دور البترول فى القناة بصورة أخرى ، وهى نسبة الناقلات بين مجموع السفن العابرة(١) .

	١٩٥٨	
	ناقلات	سفن أخرى
عدد السفن العابرة	٩٥٨٨	٨٢٥٤
متوسط حمولة السفينة بالطن	١١٢٤٥	٥٦٥٣

	١٩٥٩		١٩٦٠	
	ناقلات	سفن أخرى	ناقلات	أخرى
عدد السفن العابرة	٩٢١١	٨٥٢٠	٩٧٥٥	٩١٣٥
متوسط حمولة السفينة بالطن	١٢٫٤١٣	٥٧٥٧	١٣٫٣٥٥	١٤٫٥٦٧

فعدد الناقلات دائما أكثر من عدد السفن الأخرى ، كما أن متوسط حمولة الناقلة ضعف متوسط حمولة السفن الأخرى . وهناك اتجاه عام إلى نقص طفيف فى عدد الناقلات يفسره اتجاه عام إلى زيادة محسوسة فى متوسط حمولاتها . أى أن أحجام الناقلات فى زيادة مطردة . والواقع أن نسبة فئات الأحجام الكبرى بين الناقلات تزداد دائما على حساب نسبة فئات الأحجام

(١) النشرة الاقتصادية البنك الأهلى الخ . نفس المكان .

الصغرى . فى ١٩٦٠ مثلا كانت حمولة الناقلات فئة + ١٠٫٠٠٠ طن تعادل ٦٠٪ من حمولة كل الناقلات العابرة . ولا شك أن هذا الاتجاه سيطرد مع مشاريع توسيع وتعميق القناة المستمر . وتبلغ مجموع حمولة أسطول الناقلات الذى يعبر القناة فى المتوسط ١٢ – ١٥ مليون طن أى نحو ربع مجموع حمولة الملاحة البحرية فى العالم أجمع .

من عملاء القناة ؟

إيران أقدم منتج بترولى اعتمد على القناة ، بينما أقدم المنتجين العرب شرق القناة وهو العراق لم يفد القناة ولم يفد من القناة إلا أخيرا – وقليلا – وذلك منذ حقل البصرة . أما فى الخليج فقد كانت السعودية من أهم العملاء حتى بدأ التابلاين فلم تعد ترسل أكثر من ثلث إنتاجها عن طريق القناة ، والواقع أن التابلاين ينقل اليوم من بترول السعودية أكثر مما تنقل منه القناة . بل إن إيران عميل للقناة أهم من السعودية رغم أن إنتاج الأولى أقل كثيرا من الأخيرة . أما أكبر رافد ينصب فى حركة القناة فترسله الكويت التى تساهم وحدها حاليا بأكثر من نصف حركة القناة البترولية ، وإذا كانت الكويت أفضل عميل للقناة فإنها أيضا أكثر الدول المنتجة اعتماداً على القناة فنحو ٧٠٪ من صادرها يتحرك عبر القناة(١) .

والواقع أن جزءاً كبيرا من صادر الخليج عامة يتحرك الآن شرق القناة إلى أسواق المحيط الهندى والشرق الأقصى خاصة ، ويعد هذا مفقودا بالنسبة للقناة . وكلما زادت نسبة كفاءة التكرير فى الخليج كلما قلت حصة

---

(1) Longrige, p. 303.

تلك الدولة فى حركة القناة ، لأن البترول المكرر الأبيض يتحرك إلى الأسواق القريبة فى شرق القناة ، بينما الصادر إلى غرب القناة هو من الخام أساسا . وهذا يفسر ضعف دور البحرين فى القناة مثلا بالنسبة إلى إنتاجها الكلى من المصنى « Ex refinery » . وبالمثل فى حالة السعودية . وهذه صورة مقارنة لدور أهم العملاء فى حركة القناة البترولية فى ١٩٦٠ بالطن .

الكويت	٥٥ر٥٤٧ر٠٠٠	قطر	٤ر٧٧٩ر٠٠٠
إيران	٢٢ر٧٤٤ر٠٠٠	البحرين	٣ر٦٧٣ر٠٠٠
السعودية	١٧ر٩٠٤ر٠٠٠	عدن	١ر٥٧٠ر٠٠٠
العراق	٥ر٧٧٩ر٠٠٠	إندونيسيا	١ر٣٧٩ر٠٠٠

دور القناة ودور الأنابيب

والآن ، كيف يقارن دور القناة البترولى بدور الأنابيب فى المشرق العربى؟ إن الأنابيب فى المشرق العربى لا تنقل إلا بترولا عربيا ، ولكن القناة تنقل إلى جانب البترول العربى نسبة هامة من البترول غير العربى أهمها بلا شك البترول الإيرانى . وقد وجد أنه خلال المدة ١٩٥٠ - ١٩٥٩ بلغ الصادر من بترول الشرق الأوسط ١٠ر٩٤٦ر٥٨٩ر٠٠٠ برميلا، نقل منها بالأنابيب نحو ٢ر٥٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ برميلا أى حوالى ٢٣٪ فقط ، والباقى تم نقله بالناقلات فى مختلف الاتجاهات . وإذا أخذنا إنتاج سنة مثل ١٩٥٩ فى الشرق الأوسط

نجد توزيع التصريف كالآتى مئويا (١) :

الاستهلاك المحلى	١١٪
مرور الأنابيب	١٨٫٦٪
مرور قناة السويس	٤٤٫٣٪
الناقلات الأخرى	٢٦٫١٪

وعلى هذا الأساس أيضاً نجد أن طاقة أنابيب المشرق العربى حالياً نحو ٥٠ مليون طن فى السنة مع ملاحظة أن بعضها مثل التابلاين لا يعمل دائماً بكامل طاقته ، وأن هناك أنابيب معطلة إلى أجل غير مسمى كأنبوب كركوك ـ حيفا .

هذا بينما تبلغ حركة البترول فى القناة حالياً نحو ١٢٠ مليون طنا أى أكثر من ضعف طاقة الأنابيب . ومعنى هذا أن القناة ـ معا باعتبار دور البترول فيها وباعتبار دورها فى بترول العرب والشرق الأوسط ـ قد أصبحت بالضرورة « قناة الزيت » . إن الخليج العربى إذا كان «خليج الزيت» بامتياز ، فإن قناة السويس هى « قناة الزيت » بالضرورة . لقد نما بترول الشرق الأوسط فى رعاية وتحت وصاية القناة واليوم أصبح هناك « زواج اقتصادى » وثيق بين بترول العرب وقناة العرب . وكما أنه لا انفصال للقناة عن مصر سياسياً فكذلك لا انفصال للبترول عن القناة اقتصادياً .

---

(١) الطريقى والحسينى . نقل البترول العربى . ص ٢٣ ، ٢٤ .

إن القناة الآن هى أهم ممر عالمى اســتراتيجى لأهم سلعة استراتيجية فى العـالم .

ومن الواضح أن هذا يعنى تطوراً جوهرياً فى وظيفة القناة . فدورها التقليدى « كشريان الإمبراطورية » قد صفى أوكاد ، وأصبح دورها الجديد هو « شريان البترول » . ولم تعد القناة فى الصف الأول حلقة الوصل بين الغرب والشرق الأقصى - أو بالأحرى بين بريطانيا والهند - بل بين الغرب والشرق الأوسط .

الأنابيب والقناة

كيف تبدو الأنابيب والناقلات فى الميزان ، وكيف يتم التفاعل الاقتصادى بينهما؟ يمكن أن نلخص استراتيجية الأنابيب فى أنها اختزال للمسافة . فالمسافة من الخليج العربى إلى البحر المتوسط بطريق السويس تبلغ ٤٥٠٠ ميلا ، بينما لا يزيد طول التابلاين عن الألف إلا قليلا : أى أن هناك وفراً قدره ٣٠٠٠ ميلا . ومن هذا الوفر فى المسافة تترى سلسلة من الوفورات الإقتصادية. إقتصاد فى الناقلات إلى أسواق الغرب ، فقد أصبحت تستطيع أن تقوم بعدد أكبر من الرحلات ، وقد قدر هذا الوفر بما يعادل ٧٠ - ٨٠ ناقلة . إقتصاد فى النفقات الأولية initial costs : فالأنابيب تحتاج إلى كمية من الصلب أقل ما تحتاجه الناقلات إذا تساوت الطاقة ، وقد قدرت هذه الكمية

بنحو الثلث . إقتصاد فى نفقات الصيانة والتشغيل : فالناقلات تحتاج إلى وقود فى حركتها ، وفيها هامش لا مفر منه من احتمالات الغرق ، كما أنها تعانى من مشكلة « الرحلة الميتة » رحلة العودة فارغة ، وتحاول الآن أن تقلل من هذه الخاصية غير الإقتصادية بنقل سلع خاصة كالحبوب . أخيراً اقتصاد فى نفقات المرور : فرسوم المرور فى القناة أعلى منها فى الأنابيب ؛ ١٨ سنت للبرميل مقابل ١٥ على الترتيب . وسنلاحظ هنا أن ميزة الأنابيب على القناة أقل ما تكون فى عنصر الرسوم على عكس الاعتقاد الشائع . والواقع أن مطالبة دول مرور الأنابيب بمزيد من العائدات بإستمرار يكاد لا يجعل للأنابيب فضلا على القناة . وقدقدر أن مجموع الوفورات الإقتصادية للأنابيب تجعل تكاليف النقل بها نحو ثلث أو نصف تكاليف القناة(١) .

وليس لأى من الوسيلتين فضل واضح على الأخرى فى مجال الأمن : فالأنابيب ومصافيها هدف للطائرات وللتخريب البرى ، والناقلات كلما تضخمت كلما كانت هدفا سميناً للطائرات والغواصات معاً . أما الميزة الوحيدة للناقلات على الأنابيب فهى المرونة versatile . فالأنابيب جامدة ثابتة الطاقة والطريق ، بينما الناقلات أكثر مرونة وحرية فى الحركة وأسرع تلاؤما مع تطورات حقول الإنتاج وطوارىء الطريق وحاجات السوق(٢). ومن هذه المرونة تستمد القناة بعض ميزات على الأنابيب . ولكن هذا لا يغير من الحقيقة النهائية وهى أن كفة الأنابيب ترجح كفة القناة

---

(١) Longrigg, p.

(٢) Hoskins, p. 223.

بصورة مقلقة . إن الانابيب ظاهرة طارئة حديثة فى تاريخ البترول العربى ، فلم يكن بترول شمال العراق الداخلى فى يوم ما عميلا للقناة ، ولهذا فإن التابلاين هو أول سابقة سلبت القناة تياراً هاماً كان ينصب فيها . ومن السذاجة أن نتجاهل أن الأنابيب منافس خطير للقناة ، برغم أن هذا قد يخدش الحساسية العربية . ودرس التاريخ واضح : لقد كانت العلاقة بين الطريق البرى والطريق البحرى حول جزيرة العرب فيما يخص تجارة المرور دائما علاقة عكسية ، فحين يزدهر طريق البحر الأحمر ـ مصر ، ينحدر طريق الخليج العربى ـ الشام ، والعكس[1] . حقا إن القناة لم تهتز بفعل التابلاين كثيرا ، إذ أن الإنتاج الطافر من دول الخليج ليعوض عنه مرات ومرات ، وهذا يفسر التزايد المطرد الهائل فى حركة القناة البترولية حتى الآن .

ولكن المشاريع العديدة المقترحة كلها تحاول أن تتخطى القناة.وهى أشد ما تكون خطراً حين تسحب بترول الكويت خاصة ـ كمشروع الميبلاين ـ لأنها أهم عميل للقناة . كذلك المشاريع التى تسحب بترول إيران ـ كمشروع الأنبوب التركى ـ لأن المنفذ الوحيد لكل بترول إيران الذاهب إلى الغرب هو القناة . إن هذه المشاريع ـ وبعضها سياسى أكثر منه اقتصادى ـ لا يمكن إلا أن تكون « أسرا نقليا Transport capture » يمكن أن تغير العلائق المكانية والقيم الجيوماتيكية الراهنة وتصنع بقناة السويس ما صنعت قناة السويس بطريق الرأس . لقد نما بترول الشرق الأوسط فى رعاية وتحت

---

(1) G. Hamdan, « The Pattern of Medieval Urbanism in the Arab World,» Goography. April 1962, p. 124.

وصاية القناة ، فهل شب الآن بفضل الأنابيب عن هذه الوصاية ؟ هل هذا سيهدد الزواج الاقتصادى بين بترول العرب وقناة العرب ؟.

أما القناة فقد واجهت التحدى الجديد ، وكان هناك طريقان : إما بتبنى الأنابيب ، وإما بتجديد شباب القناة . فأما تبنى الأنابيب فقد تمثل فى اقتراح مد أنبوب ضخم إلى جوار القناة . وقد كان المشروع ـ الذى تقدم به صاحبه أوناسيس فى ١٩٥٦ ـ يرمى إلى مد أنبوب ـ أو أكثر ـ بقطر ضخم من السويس إلى بورسعيد بطاقة ٤٥ ـ ٥٥ مليون طن ، كحل لمشكلة الازدحام فى القناة مستقبلا . وقد بدا الاقتراح فى البداية براقا يحل أيضامشكلة منافسة الأنابيب بطريقة تشبه طريقة شركات السكة الحديدية حين تواجه منافسة السيارات بأن تشتريها ! ولقد يضمن هذا الأسلوب حياة الشركة ولكنه لا يمنع نهاية القطار المحتومة بل يعجل بها . وبالمثل كان مشروع زواج الأنابيب للقناة لا يعنى فى الحقيقة إلا تعقيم القناة . ولهذا رفض المشروع . وأصبح الطريق الوحيد أمام القناة هو الطريق الثانى ، تجديد شباب القناة ، وذلك عن طريق التوسيع .

وقد قطع هذا الآن شوطا بعيداً تعميقا وتوسيعا بحيث أمكن للناقلات حمولة ٤٥ ألف طن أن تعبر القناة فى ١٩٦٠ بعد أن كان الحد الأقصى ٣٥ ألف طن . ثم بدأ شوط أخطر « بمشروع ناصر » الذى يهدف إلى عبور الناقلات حمولة ٧٠ ألف طن ، مع ازدواج القناة لمضاعفة الحركة إلى حركة ذات اتجاهين . وفى أوائل ١٩٦٢ استقبلت القناة أكبر ناقلة فى العالم . لقد نما بترول الشرق الأوسط فى ظل القناة ، ولكنها الآن باتت تنمو معه حجما وحركة ، عمقا واتساعاً . ومن الواضح أن جوهر توسيع القناة هو الناقلات

الضخمة Super—tankers التى أصبحت اتجاها عالميا جارفا . وزيادة حجم الناقلات يحمل معه زيادة فى السرعة بالنسبة للحجم(١) وبهذا تحقق وفورات مضاعفة فى عدد الرحلات .

ولقد أثيرت بعض شكوك حول سلامة مبدأ التوسيع ، تتلخص فى احتمالات تنفيذ مزيد من الأنابيب عبر المشرق العربى أو حوله ، وقد يمكن هنا أن نضيف مشروع قناة أخرى بديلة للسويس ، والشك فى زيادة الطلب العالمى ، ثم احتمالات تغير نمط سوق الاستهلاك فى العالم ، ودخول الاتحاد السوفيتى أخيرا ميدان التصدير البترولى ، ثم ظهور إنتاج غرب القناة فى المغرب العربى(٢) . وبدون ما استهتار بهذه الآراء ، فالصفة الغالبة عليها هى النظرة القائمة والنظرة القصيرة المدى . فأما عن منافسة الأنابيب ، فإن ما يستجد منها لن يكون له الميزة التنافسية الحاسمة التى كانت للأنابيب الأولى على القناة ،ذلك أنه مع الناقلات الضخمة الجديدة التى ستحقق وفورات هامة فى الوقت والتكاليف وعدد الرحلات ، ومع تضاؤل فارق رسوم المرور بين الطريقين لا نقول ستتلاشى ولكن ستقل كثيرا ميزة الأنابيب التقليدية. وليس من الصدفه أن التابلاين مثلا لم يعد يعمل أخيرا بكامل طاقته ، والسبب المعلن هو اشتداد منافسة الناقلات.

وأما مشروع قناة بحرية جديدة بين خليج العقبة والبحر المتوسط عبر إسرائيل فخيال مريض لا يتحدى قناة السويس بقدر ما يتحدى أوليات الجغـــرافيا الطبيعية ومبادىء المنطق الاقتصادى وحقائق السياسة العالمية . فبغض النظر عن العقبات الطبيعية العديدة التى تجعلها مستحيلة وعن التكاليف الإنشائية الهائلة التى تعجز عن المنافسة لمدة طويلة جدا ،

---

(1) Hoskins,p. 223 .
(2) Longrigg, p. 347

فمثل هذه القناة لن تولد إلا ميتة لأن كل إنتاج ما شرق القناة إنتاج عربى باستثناء إيران التى لا تتعامل مع إسرائيل إلا تحت ضغط ظروف غير عادية فى داخلها لا يمكن أن يستمر .

أما عن الطلب العالمى فصحيح أن السوق العالمية الآن فى حالة تشبع بترولى وأننا فى فترة إفراط فى الانتاج Over-production مما انخفضت معه الأسعار فى السنوات الأخيرة ، ولكن هذا إتجاه لايمكن إلا أن يكون مؤقتاً عابراً ، وسينعكس مع تزايد التصنيع عامة والتنمية فى البلاد المتخلفة خاصة ، والاستهلاك العالمى يزداد اليوم بنسبة ٨ ./ سنوياً ، وقد بلغ فى الوقت الحالى ١٢٥١ مليون طن .

أما عن احتمالات تغير نمط السوق الاستهلاكية فى العالم فيقصد بها ارتفاع إستهلاك الدول المتخلفة شرق القناة فى آسيا وأفريقيا ، وقد يرتبط بهذا زيادة كفاءة التكرير فى دول الانتاج فى المشرق العربى والشرق الأوسط . ولكن هذا لايحتم أن ينقص التسويق غرب القناة ، كما أنه نظرياً يمكن أن يؤثر على الأنابيب كما يؤثر على القناة . ويحتج البعض على أن توجيه الشركات لتسويق بترول العرب إلى غرب أوربا يهمل سوقا طبيعية للمنطقة وهى حوض الهندى حتى الهادى التى تستورد الآن خاما من الاتحاد السوفيتى . ولكن إذا أمكن لبترول الشرق الأوسط أن يأسر هذه المناطق فليس لنا أن نخشى على حركة القناة ، لآن نسبة التسويق هناك لايمكن أن تكون خطيرة حتى وقت طويل .

أما دخول الاتحاد السوفيتى إلى ميدان التصدير فصحيح أنه قد بدأ الآن يغرق السوق الأوربية - شرقها وغربها معا - بتيار ضخم بلغ أخيراً ٥٠ مليون طنا . وقد بدأ أثره التنافسى ينعكس من قبل على الأسعار العالمية .

ومع ذلك فالمنتظر أن معدل زيادة الاستهلاك فى أوربا الغربية قد يمتص هذا التيار الجديد دون أن يغنيه عن المورد القديم. كما أن للبترول السوفييتى مشاكله السياسية كسلاح سياسى فى الحرب الباردة، هذا عدا أنه مفقود للغرب فى حالة الحرب كلية.

أما ظهور الانتاج فى المغرب فقد اتخذت منه شركات المشرق بوضوح سلاحا نفسيا فى سياساتها الانتاجية ومساوماتها المالية مع الدول المنتجة كما اتخذت منه فرنسا أملا للتحرر من الشرق الأوسط وقناة السويس. فبجاية لا تبعد عن مرسيليا إلا ٤١٠ ميلا، بينما تبعد مرسيليا عن سواحل الشام ١٦٠٠ ميلا وعن الخليج العربى ٤٨٥٠ ميلا. ولكن الموقف لا تحدده المسافات وحدها، فالواقع أن هناك فى كل بترول العرب علاقة عكسية ما بين موقع البترول فى دولته وبين موقع هذه من سوقها الخارجية. فحيث يقترب موقع البترول من الساحل يتفق أن تبتعد المنطقة كلية عن السوق الرئيسية فى غرب أوربا وذلك كما فى حالة المشرق العربى، بينما حيث يقترب موقع المنطقة من السوق يتصادف أن موقع البترول يتعمق فى الداخل، بعيدا عن الساحل كما فى حالة المغرب العربى! ولهذا فإن كثيراً من المزايا التى يعطيها الموقع الخارجى يسلبها الموقع الداخلى - والعكس.

ولهذا لا ينبغى المغالاة فى تقدير ميزة المغرب العربى على المشرق. ويكفى أن تكاليف إنتاج بترول الجزائر أعلى منها فى المشرق العربى كثيراً، ثم إنه من النوع الخفيف الذى تقل فيه نسبة زيوت الوقود الذى تحتاجه أوربا وصممت على أساسه مصافيها. والواقع أن خام الجزائر أنسب للسوق الأمريكية، ولكنها بعيدة كما هى محمية. وقد فشلت فرنسا فى تسويقه فى السوق الأوربية المشتركة واضطرت إلى تعديل مصافيها بتكاليف كبيرة لتتلاءم معه. وعلى كل فلابد من خلط الخام الخفيف بخام ثقيل (١). وعدا

(1) Clarke „ Changes in Sahara „ pp. 110 - 111 „Oil in Libya„

هذا فإن وارد فرنسا من المشرق العربى كان يأتى أساسا من العراق حيث كانت العميل التقليدى الأول لبترول العراق(١) . ولهذا فإن الاستبدال ببترول الجزائر إذا أثر فإنما على حركة أنابيب كركوك أساسا وليس القناة أساسا .

الخلاصة إذن هى أن هناك حقا تطورات عالمية وإقليمية لا يمكن تجاهلها ولكن مستقبل القناه البترولى وغير البترولى ليس حرجا إلى الحد الذى يحاول البعض أن يصوره . وإذا كانت أمريكا من الآن تبحث عن موضع لقناة جديدة تضاف إلى بنما لمواجهة الزيادة المنتظرة فى الحركة الدولية (٢)، فإن قناة السويس بالتوسع أجدر .

والواقع أن الخطر الذى يمكن أن يواجه القناة فى يوم ما ليس نقص المرور بها على الاطلاق وإنما هو على العكس تماما وصولها الى درجة التشبع حتى تضطر إلى التخلى عن المزيد من الحركة بها إلى الطرق البديلة من أنابيب داخل العالم العربى أو ناقلات خارجه عن طريق الرأس . فالمقدر أن مجموع مرور البترول فى القناة فى ١٩٧٠ سيصل إلى حوالى ١٨٠ مليون طن ، بينما المقدر أن حجم الطلب على البترول غرب القناة سيصل حينذاك إلى نحو ٤٦٠ مليون طن ، مفروض أن ٧٠٪ منها أو نحو ٣٢٠ مليونا ستأتى من الخليج العربى . ومعنى هذا أن ٩٠ مليونا من الأطنان ستظل القناة والأنابيب عاجزة عن امتصاصها(٣) . فأين مجال التشاؤم أو مبرر التلميح به فى ذلك ؟

إننا على ضوء هذه التقديرات نتوقع زيادة فى طاقة أنابيبنا العربية وفى نفس الوقت حاجة ملحة إلى توسيع جديد للقناة دون أى تعارض . بل قد

---

(١) العبوسى ص ١٦٣

(٢) Hess, "New Horizons in Resource Developmen Loe. c'it p.9.

(٣) الطربيق والحسينى ص ١٢٠ — ١٢٢

يرى فى مرحلة ما الالتجاء إلى ازدواج القناة بحيث تكون شعبة للحركة الذاهبة وشعبة للحركة الآتية (؟) إلا إذا أعطى ارتباط العمق بالعرض الأفضلية للتوسيع المطرد دون ازدواج .

وأيا كان ، فمن الواضح أن العلاقة بين النقل البحرى والبرى للبترول العربى علاقة وثيقة توازنية ولهذا تحتاج إلى سياسة عربية موحدة فى نقل البترول . وقد أصبح من المقرر فعلا كمبدأ جوهرى ألا يمر بترول العرب بغير أرض العرب ، كما اشتدت الدعوة إلى ضرورة تنسيق الوضع بين الأنابيب والناقلات بحيث يتكامل الطريقان البرى العربى والبحرى العربى ولا يتنافسان . وهنا يأتى دور التخطيط الاقتصادى الإقليمى .

الباب الثاني

بترول العرب

دراسة في الجغرافيا الاجتماعية



الفصل السادس

الثورة البترولية والاقتصاد العربى

اقتصاديات البترول فى الدخل القومى

قبل البترول

نقصد بها هنا الاقتصاديات النقدية .Money Econs التى صبها البترول فى اقتصاد الدول العربية . وأهمية هذه الاقتصاديات لا تتوقف على حجم الانتاج البترولى وسعره فحسب وإنما أيضاً على حجم الاقتصاد العام غير البترولى . ولهذا لا بد أن نفرق بين دول الانتاج ودول المرور . فأما فى دول الانتاج الصحراوية فاقتصاديات ما قبل البترول وما غير البترول لا وزن لها تقريباً من الوجهة العملية. فقد كان معنى الاقتصاد الرعوى البدائى والاستهلاك المحلى والكفاية الذاتية هو الاقتصاد المعاشى والحد الأدنى من الحركة التجارية والاقتصاديات النقدية . وكان المصدر الأساسى للمواد النقدية الضئيلة هو بعض تجارة المرور فى وحدات الخليج العربى إلى جانب عوائد اللؤلؤ . وكانت الأولى غير مضمونة لأنها تعتمد على التهريب كثيراً ـ كما كان من الكويت إلى العراق(١) ، بينما كانت الثانية تتدهور بشدة أمام اللؤلؤ الصناعى . وفى السعودية ظل المورد النقدى الرئيسى هو الحج المحدود الذى كان يتقلص كثيراً مع الأزمات الاقتصادية والسياسية والحروب.

وحتى فى دول إنتاج البترول الزراعية كالعراق كان الدخل القومى ضئيلا ولم تتعد ميزانية الدولة بضعة ملايين من الجنيهات . وقد ظل

عائد البترول فى العراق طويلا لا يمثل إلا جرعة هزيلة فى الاقتصاد العام . فبين ٣٤ ، ١٩٣٧ كان متوسط العائدات ١,٥ مليون جنيها سنوياً ، ثم ارتفع ببطء إلى ٢ مليون ، وحتى ١٩٤٩ لم يزد عن ٣ مليون . ومع ذلك كان هذا باستثناء رسوم الجمارك أكثر من ١/٤ دخل الحكومة(١).

أما مصر فلم يلعب البترول دور خطيراً فى اقتصادياتها النقدية لضخامة اقتصادها العام أولا وضآلة البترول ثانيا ولأنه للاستهلاك المحلى ثالثا . ومع ذلك فقد لعب بترولها دوراً هاماً فى الإنتاج الاقتصادى ، كما أن تأثرها الأكبر بالبترول أتى من دورها كمر لأكبر للبترول . كذلك دول المرور الخالصة كان أثر البترول فى إقتصادياتها محدوداً ، وهو هنا يمثل ثمن الموقع لا حصيلة الموضع كما فى الدول المنتجة . وينبغى لنا فى دراسة المغزى الاقتصادى النقدى للبترول أن نميز بين العوائد وهى ما تدفعه الشركات للحكومات وبين الإضافات الأهلية وهى ما تنفقه الشركات فى الاقتصاد الأهلى .

العائدات

فأما العائدات فهى نصيب الأسد من مكاسب البترول فى جميع صورها . وتعد ١٩٥٢ خط تقسيم فى حجم عائدات البترول فى العالم العربى . فقبلها كان الأساس هو قيمة ثابتة عن كل طن خام تستخرجه الشركة . بلغ ٤ ثم ٦ شلن فى العراق ، ٤ شلن فى السعودية ، وفى وحدات الخليج ٣ روبيات أو أكثر قليلاً . ولهذا كانت عائدات البترول ضئيلة لم تزد فى العالم العربى كله عن ١٠ مليون دولار فى ١٩٤٠ ، ارتفعت مع زيادة الإنتاج حتى بلغت نحو ١٤٨ مليون دولار فى ١٩٥٠ حين كان مبدأ المناصفة قد بدأ فى إحدى الوحدات

---

(١) المرجع السابق ص ٧٩ ، ١٩٦

وهى السعودية . وقد قدر أن العائدات تراوحت فى العراق بين ٤ - ١٩٣٥ ، ١٩٤٩ بين ٩ ٪ ، ١٤ ٪ من الإيرادات العامة للحكومة ، وكانت عند قمتها لا تزيد عن ٤,٣ مليون ديناراً ! (١) . . . وفى مؤتمر بترول بيروت ١٩٦٣ ذكر الطريقى أن حكومة السعودية كانت تتقاضى من أرامكو فى الأربعينات أقل مما دفعت هذه من ضرائب أرباح لحكومة الولايات المتحدة ، بينما كانت عائدات الكويت تقل عما يدفع بترولها من رسوم مرور لقناة السويس! تلك كانت « أيام العز » بالنسبة للشركات كما يسميها هوسكنز والتى ذهبت إلى الأبد(٢) «The real bonanza days in the Middle East have passed.»

ثم كانت ١٩٥٢ سنة حاسمة فى تاريخ العرب : ففيها لم يصل الإنتاج إلى علامة المائة مليون طن لأول مرة فحسب ، وإنما تم فيها تعميم مبدأ مناصفة الأرباح بين الدولة والشركة مما ضاعف العائدات كثيراً . وقد كان هذا تطبيقاً لمبدأ « السلم الصاعد escalator principle » أى المساواة فى العائدات مع أفضل شروط مقررة فى أى إقليم آخر(٣) . وقد كانت ضرائب الدخل التى تدفعها الشركات فى دولها الأم تستبعد من صافى الأرباح قبل التنصيف ولكنها عادت بعد ذلك فدخلت فى حساب الأرباح قبل التنصيف . ومع ذلك فقد ظلت أسعار وحدة الخام تحدد بطريقة تربطها قسرا بسعر السوق فى أمريكا أى بطريقة « غير جغرافية » تجعلها أقل كثيرا مما ينبغى(٤) .

وأصل هذا يرجع إلى وقت كانت فيه الولايات المتحدة هى المصدر الوحيد ثم الرئيسى للبترول فى العالم . فلما ظهرت أسواق جديدة أرخص

---

(1) B. Shwadran, Middle East Oil & the Great Powers, N Y, 1955, P277

(2) Hoskins, P. 208

(٣) لونجريج . ص ٣٦١

(4) Alex. Melamid, «Geography of the World Petroleum Price Structure», Econ Geog, Oct 1962, pp. 294 — 7.

تكاليفا أصبحت خطرا يهدد بإزاحة البترول الأمريكى من الأسواق . ولهذا فرضت أمريكا - باحتكارها لمصادر الإنتاج الجديدة - مبدأ « الخليج زائدا gulf—plus » الذى يجعل من خليج المكسيك نقطة الأساس basing point والذى يمنع بترول المناطق الأخرى من التأثير فى الثمن العالمى المحدد على أساس تكاليف الإنتاج فى الولايات المتحدة . ومقتضاه أن يجعل سعر بترول الشرق الأوسط عند وصوله إلى أى بلد فى العالم أى بما فيه نفقات الشحن مساويا لسعر البترول الأمريكى عند وصوله إلى هذا البلد . فسعر الخام العربى يحدد فى موانيه بالنسبة لمثيله من فنزويلا واصلا نيويورك ، فنيويورك هى نقطة الأساس فى التسعير basing point أو هى نقطة التعادل. وهذا يعجز البترول العربى عن منافسة الكاريبى فى أسواق غرب أوربا وإزاحته منها . ولهذا فالتحديد الأمثل لسعر الخام البترولى كما يطالب به العرب هو أن تنقل نقطة التعادل أولا من نيويورك إلى لندن باعتبارها مركز سوقه الرئيسية ، ثم مساواته بزيت الكاريبى ، فيكون سعر الخام العربى فى موانيه مساويا لسعر خام الكاريبى فى موانيه ، مضافا إليه أجرة النقل من الكاريبى إلى لندن مطروحا منه أجرة النقل من لندن إلى الخليج العربى(١) .

وأخيراً يلاحظ أنه ليس ثمة ضابط حقيق على ما تدعيه الشركة من أرقام فى كل مراحل الانتاج والتسويق . ولهـــذا فيمكن القول إن مبدأ المناصفة رغم أنه رفع العائدات العربية كثيراً إلا أن هذه الزيادة منقوصة إلى حد بعيد ولهذا لا زالت الدول العزبية تحاول تصحيح هذه الأوضاع .

---

(١) محمد لبيب شقير . التنظيم الاحتكارى لسوق العالمية للبترول . القاهرة ١٩٦١ ص ١١٢-١١٣ ، الطريق والحسينى ص ٥٩

فهى الآن تطالب بتعديل مبدأ المناصفة عند البئر إلى المناصفة « من البئر إلى السيارة » أى المناصفة فى جميع مراحل الإنتاج والتسويق والإستهلاك . كما أن المنافسة الجديدة التى شرعتها الشركات اليابانية والايطالية فى المنطقة فى وجه الاحتكارات المغلقة القائمة ، بدأت تفتت مبدأ المناصفة من أساسه . فقد منحت الكويت أخيراً امتياز المياه الاقليمية فى نصيبها من المنطقة المحايدة إلى شركات يابانية مقابل ٥٧ ٪ من الأرباح إلى جانب عائدات أخرى ترفع مجموع حصة الحكومة كثيراً من مجموع الأرباح . وكذلك تعاقدت مصر أخيراً مع شركات إيطالية (إينى) وغيرها على أساس ٥٧ ٪ من العائدات لنا : ومعنى هذا أن الشركات القديمة تحصل على ضعف الحصة التى تكفل لها بالتأكيد ربحا مجزياً ! وقد بدأت الشركات تحس بخطورة ضغط البلاد العربية عليها ، وآخر مااقترحته تعديل النسبة إلى ٥٨ ٪ للدول المنتجة ، ٤٢ ٪ للشركات .

والواقع أن الشركات تستنزف الجزء الأكبر فى الحقيقة من خالص الأرباح، وتعامل دول الامتياز لا على أنها «الشريك النائم Sleeping partner» فحسب ولكن على أنها الشريك العاجز أيضاً . ولقد رأينا أن متوسط أرباح رءوس الأموال الأمريكية الموظفة فى بترول الشرق الأوسط بلغ فى سنوات ٦٦ ٪ فى المتوسط من أصل رأس المال ! بينما فى سنة وصل فى قطر إلى مرة ونصف أصل رأس المال ! فهل نغالى إذا قلنا إن هذا تعدى الاستنزاف إلى الابتزاز ؟ ويقدر الطريق أن صافى ما ربحته الشركات من منطقة الشرق الأوسط من ١٩٥١ حتى ١٩٦١ يساوى ١٠٧١٧ مليون دولار . ويكفى دليلا على خيالية هذا الاستثمار صعوبة قراءة الرقم أو استيعابه ! كذلك قدر الطريق أن ما ربحته الشركات الأمريكية وحدها من العالم العربى فى ١٩٦٢ ،

وحدها يبلغ ٨٨٠ مليون دولار ، بينما المقدر أن بريطانيا تخرج من بترول الشرق الأوسط سنوياً بنحو ١٠٠٠ مليون جنيها. ثم هو يقدر أن مبدأ المناصفة لا يعنى فى الحقيقة وبعد مختلف الاستقطاعات إلا نحو ٣١ ٪ للدول المنتجة . وهناك تقدير آخر يجمل مجموع أرباح البترول العربى بنحو ٣٠٠٠ مليون جنيهاً .

وهناك طرق مباشرة بعد هذا تتبدد بها مكاسب الدول المنتجة فى المنطقة. فرغم أن جيولوجية وإيكولوجية الانتاج تساعد كما رأينا على عدم الاسراف فى موارد البترول فالحادث أن الشركات تنتج الرخيص الأسهل وتترك الأكثر تكاليفاً مما يجعل استثمارها فى المستقبل حدياً باهظ التكاليف عاجزاً عن المنافسة . وهناك التبديد الخطير فى موارد الغاز الطبيعى التى تخرج من الآبار ولا يتخلص منها إلا بالحرق . ففى ١٩٦٢ قدر ما أحرق منه فى السعودية وحدها بنحو ١٥٦ مليون متر٣ أى ما يعادل ٧٠ ألف برميل من الزيت يومياً . وفى الشرق الأوسط ككل يحرق من الغاز يومياً نحو ٢ بليون قدم٣ أو ما يعادل ٣٧٠ ألف برميل من الزيت يومياً . ولو قدرت قيمة هذا الفاقد فى صيغة نقدية لبلغ ثلثى مليون يومياً . ولهذا كله فلابد من أن يفرض على الشركات المحافظة على الثروة البترولية أولا بتوزيع الانتاج على كل الحقول والآبار وثانياً بترشيد معاملة الغاز إما بنقله وتسويقه سائلا أو بتصنيعه محلياً أو بحقنه فى الأرض لخزنه حين الحاجة إليه وهو أضعف الإيمان .

ويمكننا الآن أن نستعرض تطور عائدات البترول فى المنطقة منذ مبدأ المناصفة. فنجد أنها رغم كل التحفظات السابقة قد قفزت فى العالم العربى كله فى ١٩٥٢ إلى ٤٣٤ مليون دولار ثم إلى ٦٩٧ مليوناً فى ١٩٥٤ إلى ٢٨٣ مليون جنيها فى ١٩٥٦ (١) ، بينما فى ١٩٥٨ حققت العائدات الاقتصاد

(١) R.I.I.A., Middle East, p. 61

العربي بنحو ٢٢٨ مليون جنيهاً ، ٢٩٠ مليون دولار . والجدول الآتى يتتبع العائدات المباشرة فى البـــلاد العربية حتى ١٩٥٤ بملايين الدولارات (١) .

السنة	السعودية	البحرين	مصر	العراق	قطر	الكويت	المجموع
١٩٤٠	١ر٥	١ر٠		٨ر١		٠ر٨	١٠ر٦
١٩٤٦	١٣ر٢	١ر٢	٢ر٨	٨ر٩		٠ر٨	٢٦ر٩
١٩٤٨	٣١ر٥	١ر٤	٤ر٣	١٠ر٣		١٣ر٧	١٦ر٣
١٩٤٩	٦٦ر٠	١ر٥	٥ر٠	٧ر٩		٨ر١١	٩٢ر٣
١٩٥٠	١١٢ر٠	٣ر٣	١٤ر٨	١ر٠		١٢ر٤	١٤٨ر٤
١٩٥١	١٥٥ر٠	٣ر٨	٥ر٨	٣٨ر٥	٣ر٨	٣٠ر٠	٢٣٦ر٩
١٩٥٢	١٧٠ر٠	٦ر٣		١١٠ر٠	٩ر٠	١٣٩ر٠	٤٣٤ر٣
١٩٥٣	٠ر٦٦١	٦ر٥		١٤٠ر٠	١٦ر٠	١٥٨ر٩	٤٧٥ر٩
١٩٥٤	٢٦٠ر٠	٨ر١		١٨٩ر٠	٢٣ر٣	٢١٧ر٣	٦٩٧ر٧
المجموع الكلى							٢١٥٦ر٦

والجدول الآتى يتمم السابق بملايين الدولارات والجنيهات (٢)

	السعودية بالدولار	البحرين بالجنيه	العراق بالجنيه	قطر بالجنيه	الكويت بالجنيه
١٩٥٥	٢٦٠	؟	٦٤	١٣ر١	١٠٠
١٩٥٦	٢٨٠	١ر٥	٦٨ر٨	١٦	١٠٠
١٩٥٧	٢٨٥	؟	٤٨ر٩	٢٠ر٣	١١٠ر٧
١٩٥٨	٢٩٠	٨ر٣	٧٩ر٩	٣٠	١٣٠
١٩٥٩	؟	١٠	٨٦ر٦	؟	؟

(١) العبوسى ص ٢٧٦

(٢) لونجريج ص ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣٦٨ ، ٣١٤

والجدول الآتى يبين مجموع عائدات البترول المباشرة فى الوحدات الهامة فى التسع سنوات الهامة ١٩٥٠ — ١٩٥٨ وذلك بملايين الجنيهات ، فيما عدا السعودية فبملايين الدولارات .

السعودية	الكويت	العراق	قطر
١٩٧٨	٦٧٠	٤٤٤	٨٦ر٥

ومعنى هذا أن عائدات البترول فى الوحدات الأربع خلال هذه المدة ١٢٠٠ مليون جنيهاً ونحو ٢٠٠٠ مليون دولار . ويقدر الآن أن عائدات البترول فى كل من الكويت والسعودية لا تقل عن ١ر٥ مليون دولار كل يوم (!) وقد قدر دخل السعودية من البترول خلال العشرين سنة الأخيرة منذ ١٩٣٩ بنحو ٢٤٨٧ مليون دولار .

أما بالنسبة للعالم العربى ككل فيقدم الطريق الجدول الجامع الآتى عن عائدات كل دولة عربية منذ بداية التصدير وذلك بملايين الدولارات :

	حتى ١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	المجموع
العراق	١٦٥١	٢٥٠	٢٥٦	٣٠٧	٢٧٦٤
الكويت	٢٥٤٢	٤٠٩	٤٦٧	٥١٣	٣٩٣١
السعودية	٢٩٥٨	٢٤٧	٣٨٨	٤٣٢	٤١٢٥
قطر	٣٤٥	٤٤	٤٧	٥١	٤٨٧
ليبيا			٣٨	٩٢	١٣٠
الجزائر			٤١	٤٤	٨٥
المجموع	٧٧٦٦	١٠٥٠	١٢٣٧	١٤٢٩	١١٥٢٢

فهناك نحو ١٢ بليون دولار صبت فى الاقتصاد العربى عامه منذ البترول ! . .

أما دول المرور فكان نصيبها من رسوم الأنابيب حتى ١٩٥٢ رمزيا سواء بالنسبة لأنابيب العراق أو للتابلين . فكان مجموعها عن الأنبوبين لدول المرور الثلاث سوريا ولبنان والأردن يترواح بين مليون جنيها ومليونين ! ولكن بعد ١٩٥٢ — وتحت تأثير مبدأ المناصفة فى دول الإنتاج — تعدل المبدأ من مبلغ اتفاقى Lumpsum إلى مبدأ الطن — المسافة مما رفع رسوم أنبوب العراق فى سوريا إلى ٦ — ٧ مليون جنيها. كما رفعت رسوم التابلاين إلى نحو ¼ مليون دولار للأردن ، ½ للبنان ، ١ مليون لسوريا . وتطالب دول الأنابيب بمبدأ المناصفة أى اقتسام فارق أرباح النقل بين طريق السويس والأنابيب . ومعنى هذا أنها — كدول الإنتاج — تتبع سياسة « السلم الصاعد » حيث تربط كل زيادة فى عائدات البترول بزيادة فى رسوم المرور .

وعدا مشكلاتها مع شركات الامتياز ، فإن لدول المرور مشكلاتها الداخلية فيما بينها على توزيع أنصبتها من الأرباح . فهناك مبدأ التوزيع بالتساوى بين دول المرور وتحبذه الدول الصغيرة المساحة ، وهناك مبدأ التوزيع بحسب أطوال الأنابيب فى كل وحدة . وهو ما تفضله الدول الكبيرة الرقعة . ولا زال البحث قائما عن معادلة لتوزيع أرباح المرور يقبلها الجميع (١) .

أما فى مصر فالمرور فى القناة يقدم دخلا كبيرا معظمه

---

(١) الطريقى والحسينى . ص ٣٦ — ٣٨ .

— ٧٠ ٪ منه — من البترول . وقد ارتفعت حصيلة رسوم المرور فى القناة من ٣٢٫٢ مليون جنيها فى ١٩٥٥ إلى ٤٤٫٥ فى ١٩٥٩ إلى نحو ٥٠ مليوناً فى ١٩٦٠ إلى ٥٢ مليون فى ١٩٦١ وإلى أكثر من ٦٠ مليوناً فى ١٩٦٢ تعدت السبعين مليوناً (٧١٫٣) فى ١٩٦٣ . أى أن رسوم مرور البترول بلغت نحو ٥٠ مليون جنيها فى السنة الأخيرة — مع ملاحظة أن هذه الرسوم عملات أجنبية صعبة (١).

الاضافات الأهلية

وهى تمثل مدفوعات الشركات المباشرة فى الاقتصاد الأهلى عن طريق عناصر ثلاثة : الأجور والخدمات والمشتريات . وقد ترتفع الأجور المدفوعة للعمال فى فترات التأسيس ولكنها سرعان ما تهبط إلى مستوى شبه جامد يتناسب مع عمليات الإنتاج الدائمة. وبوجه عام فمستوى أجور عمال البترول فى كل العالم العربى — كما فى كل جهات العالم فى الحقيقة — مستوى مرتفع بطبيعته (٢). أما الخدمات كالنقل والموانى فهى عادة لا تزيد كثيراً فى إضافاتها النقدية عن الأجور . وأما المشتريات فتمثل السلع والخامات التى تشتريها الشركات محلياً لمشاريعها ، وأغلبها المواد الإنشائية للبناء كالأسمنت والطوب ... الخ . وهذه لم تكن تتوفر إلا فى البلاد الأكثر تقدماً كالعراق والشام ، ولكنها بدأت أخيراً تظهر قليلا فى بعض دول الصحراء مثل السعودية والكويت . ولهذا تتفاوت إضافات المشتريات من وحدة إلى أخرى .

---

(١) نشرة البنك الأهلى ١٩٦٠ مجلد ١٣ عدد ٢ ص ١٨٠ .

(٢) محمد لبيب شقير . التنظيم الاحتكارى لسوق العالمية للبترول . القاهرة ١٩٦١ ص ١٦ .

وبوجه عام لا تزداد الإضافات الأهلية الثلاث كثيراً من سنة لأخرى، بعكس العائدات الحكومية ، ولهذا تتناقص قيمتها النسبية باطراد فى الدخل القومى ، كما أن قطاعا هاما منها ينصب فى الحقيقة خارج الاقتصاد القومى عن طريق أجور العمال الأجانب أو الخدمات والسلع المسوقة من الخارج ، وهذا أوضح فى الوحدات الأكثر تخلفا كالكويت وقطر والبحرين . ويقدر العبوسى مساهمة الإضافات الأهلية فى الدخل القومى للعراق فى ١٩٥٢ بنحو ٥ر٥ ٪ (٩ مليون دينار) ، وفى السعودية بنحو ١٠ ٪ (٢٠ مليون دولار) ، وفى سوريا ٨ر٣ ٪ (حوالى ٤ مليون جنيها)(١) والخلاصة أن الأضافات الأهلية التى تنفقها شركات البترول فى الدول العربية لا تزيد عن بضعة عشرات من الملايين من الجنيهات وتتضائل تماما بالنسبة للعائدات الحكومية . وسنرى أن لهذا مغزاه الكبير فى تحديد الأثر الاجتماعى الحقيقى للبترول .

دور البترول الاقتصادى

يمكننا الآن أن نقول إن اقتصاديات البترول النقدية بوجه عام أصبحت أخطر عنصر فى الحياة الاقتصادية لدول الانتاج ، وتمثل بصورة متزايدة الجانب الأكبر من الدخل القومى . ففى ١٩٥٢ قدر أن دور البترول فى الدخل القومى بلغ فى العراق ٢٤ ٪ ، وفى السعودية ٥٦ ٪ ، ترتفع فى دويلات الخليج إلى أكثر من ٧٥ ٪ إن لم تصل إلى ٩٠ ٪ (٢) . ثم ارتفعت هذه النسب حتى وصلت فى الوقت الحالى إلى نحو ٥٠ ٪ للعراق (٧٠ ٪ فى ٥٥/١٩٥٦) ، ٨١ ٪ للسعوديه ، ٩٥ ٪ للكويت (٩٨ ٪ الآن)

---

(١) العبوسى . ص ١٩٢ — ١٩٣ .
(٢) نفس المرجع . ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

ومعنى هذا أننا إزاء اقتصاديات معوجة lop — sided ، اقتصاديات السلعة الواحدة . فإذا أضفنا إلى ذلك ما رأيناه من أنها اقتصاديات تصدير خامات وأنها اقتصاديات احتكارية فى الداخل انتاجا ، وفى الخارج تسويقا ، وأنها لذلك خطرة مذبذبة كما يدل انخفاض الأسعار أخيراً (حتى أن زيادة الانتاج ضاعت فى سبيل مجرد المحافظة على مستوى العائدات السابقة) — إذا اضفنا هذا كله اكتملت لدينا كل مشخصات وأعراض « الاقتصاد المتخلف » إن لم يكن « الاقتصاد الاستعمارى » . إن اقتصاديات البترول العربية بناء ملىء بالثغرات يقوم على أرض أكثر إمتلاء بالحفرات .

أما فى دول المرور فالبترول لايكاد يبين فى الدخل القومى : فى ١٩٥٢ كان ٤ر٢ ٪ فى سوريا ، وفى ١٩٤٨ ٧ر٠ ٪ فى مصر زادت بعد ذلك بالتأكيد . وعلى أساس دور البترول فى الاقتصاد القومى قد يمكن أن نلخص الموقف فى الدول العربية بأن البترول يمثل « جسم » الاقتصاد فى الدول الأكثر تخلفا كالجزيرة العربية عامة ، بينما لايشكل إلا « هيكل » الاقتصاد فى الدول الكبيرة الانتاج والأقل تخلفا كالعــراق ، وأخيرا لايقدم إلا « أطراف » الاقتصاد فى دول المرور الأكثر تقدما مثل مصر والشام .

توزيع الدخل البترولى

كيف يتم توزيع دخل البترول داخل مجتمع البترول العربى الجديد ؟ ما مدى التركيز أو العدالة فى توزيعه ؟ يختلف الموقف فى العراق ـ وليبيا مستقبلا ـ عنه فى بقية الوحدات . ففى العراق كان ٧٥ ٪ من عائدات البترول تصب ـ اسميا على الأقل فى الجزء الأكبر من تاريخه ـ فى ميزانية

الاعمار . وبالمثل فى ليبيا حيث بدأ البترول أخيرا ، تقرر أن توجه ٧٥٪ من العائدات إلى ميزانية الاعمار كذلك . وفى كل من الكويت والبحرين أصبح تقليداً أن تقسم عائدات البترول بنسبة الثلث للحاكم وأسرته، والثلث يرصد للاستثمار فى بنوك الخارج ولكنه باسم الحاكم ، والثلث للانشاء والتعمير (١).

ورغم قلة العائدات فى البحرين فقد حدث رخاء شبه عام لأغلبية السكان وكذلك حدث فى قطر . بينما فى الكويت أمكن القول بأن هنا ثمة دولة رفاهية Welfare State تقدم كثيراً من الحاجات والخدمات للأهالى مجاناً وعلى مستوى مذهل كالعلاج والملاجىء والتعليم وتسهيلات الإسكان . . . ألخ ، كما تؤدى كثيراً من المرافق العامه بخسارة منتظمة كالماء والكهرباء وخدمات الموانى والمواصلات السلكية واللاسلكية . . . ألخ . بل إن الكويت تفخر بعدم وجود حرفه التسول بها !(٢). والواقع أنه قد حدث قدر كبير من إعادة توزيع الدخل أفادت منه الطبقات الفقيرة : مثلا نتيجة التعويضات المذهلة لنزع ملكيات حقيرة فى توسيع المدينة ، ونتيجة لرفع مستوى مرتبات الموظفين بجميع مراتبهم جداً ، ونتيجة لتخصيص « مرتبات » للطلبة . . . ألخ .

ومع ذلك فالفيصل فى هذا الموقف هو نسبة عدد السكان إلى مجموع الدخل . فالكويت تتصدر العالم كله فى متوسط الدخل بحسب الفرد تليها فى ذلك قطر مباشرة ، حتى إن المشكلة هنا ليست من أين ننفق ولكن أين ننفق ! ولهذا فإن هناك إسرافاً هائلا وتبذيراً فى جميع نفقات ومشاريع

---

(١) R.I.I.A., Middle East . p 61 .

(٢) مجلة بترول الشرق الأوسط ، مايو ١٩٥٨ ، ص ١٥ .

الدولة ، يقابله إسراف وتهافت شديد على السلع الحضارية والأدوات الحديثة وكل مظاهر « الإنفاق المظهرى conspicuous consumption » من جانب الأهالى . ولهذا فلا شك أن مستوى المعيشه للغالبية قد ارتفع كثيراً ، ولكن لا شك أيضاً أن هذا قابله تضخم نقدى لا مفر منه . إذن فالرخاء العام هنا ليس نتيجة لعدالة توزيع الثروة مطلقاً ، وإنما لقلة عدد السكان المطلق . ومن ثم فهذه الوحدات دول رخاء بالرغم منها . . .

وتتأكد هذه الحقيقة حين ننتقل إلى السعودية . فهناك لا تقل العائدات عن الكويت ولكن السكان بضعة ملايين ، ولهذا لا يكاد يصلها تأثيرها المادى بعد أن يكون الاقطاع الأسرى والطبقة الحاكمة قد أدت دور البالوعة التقليدية . بل إنه حتى التقسيم الثلاثى للعائدات فى وحدات الخليج لامكان له فى السعوديه ، فلم يكن ثمة ميزانية ولا رصيد للاستثمار المزعوم للمستقبل — إلا ما كان خاصا بالطبقة الحاكمة . ولهذا فإن مستوى معيشة الشعب عامة فى السعودية أقل بكثير مما هو عليه فى الدول العربية الأخرى غير البترولية مثل لبنان أو سوريا (١) !

ولم يأت الاقطاع البترولى على نصيب السكان الطبيعى من العائدات فحسب ، وإنما أتى على نصيب الأجيال القادمة أيضا بالاستدانة من الشركة من عائدات المستقبل حتى تهددت بالعجز والتضخم

ومن الملاحظ أن ضيف أوربا المتلاف الجديد playboys هو الآن الإقطاع العربى البترولى بعد أن كان منذ عقد أو أكثر الإقطاع

---

(١) R.I.I.A., p. 62

العربى الزراعى . والواقع أن الإقطاع البترولى فى الجزيرة العربية قد أعاد إلى الوجود سفه ليالى ألف ليلة دون أن يعيد مجدها ، ونقل بغداد وبصرة العصور الوسطى إلى الرياض والكويت ، ولكنه بهذا أرجع عقارب الساعة إلى الوراء قرونا . ولهذا فإنه لا يشترى الحاضر بالمستقبل فقط ، وإنما هو فى الحقيقة يشترى الماضى بالمستقبل .

ولهذا كله فإن عملية إعادة توزيع الدخل الثانوية التى تتم عن طريق إنفاق الدخل الأولى كانت أضيق نطاقا وأقل عمقا فى السعودية منها فى أى وحدة بترولية أخرى . فالمشاريع العامة هنا أقل بينما الأغلبية مشاريع خاصة بحته ، والمرتبات أدنى منها فى دويلات الخليج ، وكثير من الدخل الذى يتسرب من أعلى إلى أسفل يأخذ شكل هدايا شخصية وقبلية فلا تنتشر إلا قليلا ويضاعف من تركيز الثروة . كذلك فإن الإنفاق المظهرى — العقيم إنتاجا — يصل هنا إلى منتهاه ويتعدى التبذير إلى التبديد من ناحية ، كما أن معظمه يتم خارج الحدود من ناحية أخرى فيضيع على الاقتصاد القومى . ولهذا فإن الأثر الأعم لاقتصاديات البترول فى السعودية هو ارتفاع تكاليف المعيشة أكثر منه ارتفاع مستوى المعيشة — ولو أن هذا لا ينفى أن قطاعا ضئيلا من أسفل قد تحسن مستوى حياته . ولهذا فإن من أسف أن الجرعة التى تصبها الشركات فى القطاع الأهلى والتى يمكن أن ترفع مستوى الأهالى كاملة ليست إلا كسراً تافها من مجموع العائدات الحكومية السلبية .

وفى ليبيا نشأ وضع مختلف نوعا : فلم يكن الاقطاع الأسرى هو المصب الأكبر للعائدات ، وإنما تركزت الإضافات الأهلية فى يد طبقة نامية من التجار والمقاولين والبورجوازية أصبحت هى بالوعة مكاسب الزيت التى

منعتها من الوصول إلى الطبقات الفقيرة والعريضة (١) . والحقيقة التى يجب أن ندركها بوضوح فى هذا الصدد هى أن البترول بطبيعته يسهل نمو الاقطاع وتركيز الثروة بدرجة أكبر بكثير مما يفعل القطن فى الدول العربية الزراعية . فإذا كان القطن يساعد على نمو الإقطاع إذا ما قيس بالمحاصيل الغذائية التى يستهلكها الفلاح مباشرة فإنه مع ذلك لا يقارن بالبترول الذى لا يشارك فى إنتاجه الفعلى إلا عدد ضئيل جداً من السكان وتخضع ملكيته القانونية للدولة والذى يعتبر لعد هذا مكسباً « سهلا » easy money ومن ثم أسهل تبديداً easy come,easy go — كل هذا بعكس القطن باستمرار.

التركيب الوظيفى

تطور التركيب الوظيفى

من أهم النتائج البشرية للبترول تطور الحرف والوظائف فى المجتمع العربى فقد زادت العمالة employment بصورة عامة نتيجة لأنواع النشاط المختلفة التى ترتبت على البترول . فاقتصاديات ما قبل البترول سواء فى الوحدات الزراعية أو الصحراوية — ولكن خاصة فى ظل الرعى فى الأخيرة — كانت تمثل نظاماً مزمنا من البطالة المقنعة undermployment على أحسن تقدير . وقد كان العمل المأجور ظاهرة جديدة فى النظام الاقتصادى فى الوحدات الصحراوية خاصة . وكان أهم من زيادة العمالة التحول الوظيفى الذى أحدثه البترول Occupational transfer . ففى دول الإنتاج الصحراوية تحولت أعداد من حرفة الرعى إلى الصناعة والتجارة والخدمات المرتبطة بالبترول وكذلك إلى بعض الزراعة فى محاولات الاستصلاح والتعمير .

---

(١) J.I,Clarke, (Oil in Libya. etc), op. cit., P. 52

أما فى دول الإنتاج الزراعية فقد ساعـــد البترول على انتقال قطاع من الزراعة إلى الصناعة والتجارة والخدمات التى تدور على أو تتغذى بالبترول. على أنه فى كل الحالات لا تمثل هذه الأعداد إلا قطاعات ضئيلة من القوة العاملة ، لا سيما فى الوحدات السياسية الأكبر حجماً وسكانا . ولا تزال متتالية الحرف فى كل وحدات الإنتاج هى المتتالية التقليدية فى البلاد المتخلفة القديمة : ١ — ٣ — ٢ : أى الحرف الأولية (التعدين والرعى والزراعة) أولا ثم الثالثة (التجارة والخدمات) ثم الثانية (الصناعة) .

وإذا كان من المسلم به أن البترول هو الثروة الأولى فى بلاده فمن الممكن أن يتهم بأن الإفراط فى التركيز عليه والاهتمام به أدى إلى التفريط فى كثير من مجالات النشاط الإقتصادى الأخرى . فالنشاط البترولى أولا يعنى الزيت بينما الغاز الطبيعى مهمل يبدد أو يعاد إلى باطن الأرض. والنشاط البترولى بعد ذلك عطل النشاط المعدنى الآخر وأصابه بالتراخى . أما عن الزراعة فى الدول الصحراوية فقد سحب البترول منها كثيراً من الأيدى العاملة فأهملت الأرض وهجر بعضها ، بينما كانت الضربة الحاسمة من نصيب الرعى الذى تدهورت منتجاته وقلت الثروة الحيوانية كما فى السعودية خاصة حيث تحولت من مصدر لمنتجات الألبان والجلود إلى مستورد وتناقصت الصناعات اليدوية والبدوية القائمة على منتجات الرعى والجمع[١]. وقد بدأت أعراض خفيفة مماثلة فى ليبيا رغم أن البترول كان فى مرحلة المخاض بها حتى الأمس القريب .

---

(١) محمد السيد أيوب . « هجرة البدو إلى المدن وأثرها على الانتاج الحيوانى والزراعة فى المملكة العربية السعودية » . أعمال المؤتمر الجغرافى العربى الأول . ١٩٦٢ . ص ٨ — ١٥ .

وينبغى أن ندرك أن القوى العاملة فى إنتاج البترول مباشرة — أى النواة النووية فى عمالة البترول ، ممثلة فى عدد عمال الشركات — ضئيلة للغاية سواء فى فترات الضغط العالى أو العمل العادى . ففى فترات الإنشاء لم يرتفع عدد العمل فى أنابيب العراق عن بضعة آلاف (٨) فى كل وحدات الشام ، وفى التابلاين كان أقصى حد وصلته القوة العاملة هو ١٥ الف . وفى فترات الإنشاء الأولى فى الكويت وصل عدد العمال إلى ١٧ الف ثم هبط . وفى السعودية وصل فى حين ما إلى ٢٠ الف ثم هبط . وهو حاليا فى ليبيا يناهز ٨ الف . والجدول الآتى يعرض عدد القوة العاملة فى شركات البترول فى الوحدات المنتجة فى السنوات الأخيرة (٥٩ — ١٩٦٠ ، مصر ٦٢ — ١٩٦٣) [1] .

السعودية	الكويت	قطر	البحرين	العراق	مصر
١٦ر٢٥٠	٨ر٠٠٠	٤ر٠٠٠	٦ر٠٠٠	١٣ر١٦٥	٢٣ر٠٠٠

وسيلاحظ أن عدد عمال البترول لا يتناسب بالضرورة مع حجم الانتاج الخام وإنما أيضا مع حجم التكرير — كما تدل المقارنة بين السعودية والكويت أو بين البحرين وقطر . أما المجموع فنحو ٧٠ر٥٠٠ ، قد تصل إلى ١٠٠ ألف إذا أضفنا بضع آلاف فى الشام وبضع آلاف فى المغرب . والعدد فى مجموعه ضئيل ، بينما أن به نسبة من العمل الأجنبى تتفاوت من ٣٨ ٪ فى السعوديه إلى ٤ ٪ فى العراق — بينما فى مصر العمل كله وطنى ، مما يفسر ارتفاع العدد فيها رغم أنها منتج صغير . على أن هناك مايعوض عن ضآلة حجم قوة العمل البترولى . فهناك أولا ارتفاع معدل الأجور

---

(١) لونجرج ص ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ، ٣١٦

كثيرا مما يجعل إشعاعها الاقتصادى والحضارى قويا لاسيما إذا ذكرنا أسراتها التى تعولها . فى مصر مثلا بلغ متوسط أجور المشتغلين فى صناعة الزيت فى ١٩٦٢ نحو ٥٥٢ جنيها للفرد ، وهو بذلك ١٠ أمثال متوسط الدخل القومى فى مصر عامة (= ٥٠ جنيها تقريبا) .

ثانيا : أنها فى الشياخات الصغيرة القليلة السكان تمثل نسبة هامة من مجموع السكان تتراوح بين ٢٠ ٪ فى قطر ، ٦ ٪ فى البحرين، ٣ر٥ فى الكويت [1]. أما الوحدات الأكبر حجما وسكانا فنسبها العامة ضئيلة طبعا ، ولكن هنا يأتى التركز الجغرافى الذى يجعل وزنها المحلى أكبر من وزنها القومى . هناك أخيرا الشرنقة الكاملة من الحرف والوظائف التابعة التى تنمو حول هذه النواة . أما هذه الحرف التابعة فهى بلاشك تحقق - ككرة الثلج - حجما أكبر بكثير من حجم النواة القاعدية وتمثل القطاع الأكبر من زيادة العمالة ومن التحول الوظيفى ، وإن كان لا يمكن قياس هذا إحصائيا . وتتلخص هذه الحرف فى الصناعة والزراعة ، والتجارة ، والخدمات . وما من شك فى أن أكبر هذه القطاعات امتصاصا للعمل وأخطرها فى التحول المهنى هى التجارة والخدمات .

الصناعة

أما عن الصناعة فإن الاستخراج والتكرير ، أى صناعة البترول نفسها بالمعنى الضيق ، ليست تصنيعا بقدر ما هى إعداد خام ووقود للتصنيع ، ولا تزيد عن مرحلة الزراعة والحلج بالنسبه للقطن . ومن الواضح أن البترول يمثل بالقوة نواة لثورة صناعية كاملة ، وتكمن فيه إمكانيات انقلاب بشرى

---

(١) العبوسى ص ١٧٩ .

هائل : انقلاب صناعي يتوفر له رأس المال الزاخر من دخل صادر البترول، والقوة المحركة النادرة من غاز طبيعى وزيت وقود - وفوق هذا مادة خام ثمينة للتصنيع المباشر فإن البترول لم يعد غذاء ووقودا للصناعة فقط، ولكن أصبح خامة للصناعة أيضا (البتروكيماويات) وهو فى هذا يمتاز عن الفحم . إن الثورة البترولية بالنسبة للعالم العربى فى القرن ٢٠ تعادل بالقوة الثورة الصناعية بالنسبة لأوربا فى القرن ١٩ . لقد عوضت الطبيعة العالم العربى عن فقره بالفحم بثروته البترولية الهائلة ، عوضته عن الفحم الحجرى بزيت الصخر . فإلى أى حد ساهم البترول فعلا فى تصنيع العالم العربى ؟

فيما يختص بالبترول كخامة للصناعة ، نجد فى مصر صناعة السماد فى السويس ، وصناعة الإطارات والمذيبات والبلاستيك فى القاهرة . وفى سوريا يكمل مصفى حمص مصنع للسماد . وفى العراق مصنع كركوك لانتاج الكبريت من الغاز الطبيعى ، ومصنع للسماد فى البصرة . وفى السعودية مشاريع ألمانية لإمكانيات إنشاء مصنع للبتروكيماويات ينتج السماد والمطاط الصناعى والكربون والكبريت . . . الخ . وبالمثل وضع مشروع للصناعات الكيماوية فى الكويت . وفى كلا هذين البلدين تشترط عقود الامتيازات الجديده إقامة الصناعة البتروكيماوية المحلية(١). أما كوقود فهناك أولا مشروعات محطات القوى المختلفة مثل محطة الغاز فى كركوك لتغذية بغداد ، ومثل محطة للقوة فى البصرة ، ومحطات للغاز والقوى فى السعودية والكويت . ولكن الغرض من هذه المشاريع لا يزيد عن تغذية المدن بالقوى للإضاءه والنقل وصناعة الخامات الاستهلاكية الخفيفة . بل إن التفكير فى استغلال الغاز

---

(١) Longrigg, pp. 338, 266, 312.

الطبيعى الضائع فى السعودية والكويت يتجه أساساً إلى إعداده للتصدير للخارج .

وبوجه عام يمكن القول إن البترول هو الآن أهم مصدر للطاقة فى العالم العربى . فلقد قدر أن نحوا من ٧٠ ٪ من مجموع الطاقة المستهلكة فى كل من الجزائر والمغرب (مراكش) فى ١٩٥٨ أتى من البترول ، بينما تصل هذه النسبة فى كل من مصر وتونس والعراق والسودان ولبنان والسعودية والكويت والأردن إلى ٩٠ ٪ على الأقل (١) . هذا وتكاد تكون مصر الوحيدة التى لعب فيها البترول كوقود ـ على قلته فيها ـ دورا حيويا فى تصنيعها العام الحديث أثناء ومنذ الحرب الثانية ، خاصة فى صناعات النسيج والسكر . والواقع أن مصر ليست فى موقف العراق السعيد الذى يمكنه أن يمول تصنيعه بموارد غير منظورة ، بينما كان على مصر أن تمول تصنيعها من زراعتها .

وعلى هذا يمكن القول إن أثر البترول على التصنيع فى العالم العربى حتى الآن متواضع للغاية ، وهو يكاد يتركز فى أغلب الحالات على أثره غير المباشر ، أى باعتباره مصدرا لدخل كبير يحتاج إلى خدمات جديدة ، أظهرت « صناعات الخدمات وصناعات المدن » أو بالأحرى « صناعات البلديات Civic Industries » الاستهلاكية الخفيفة : كالطوب (الطابوق) والبناء ، والأثاث ، والملابس ، والإضاءة ، والنقل ، وتقطير المياه . . . الخ . أما الدور الحقيقى لبترول العرب فى التصنيع فقد حدث فى أوربا خاصة حيث جددت شباب ثورتها الصناعية به وقوداً وخامة .

---

(١) يوسف أبو الحجاج . « مكانة البترول فى التنمية الاقتصادية للوطن العربى » . أعمال المؤتمر الجغرافى العربى الأول . القاهرة ١٩٦٢ .

وإذا كان البترول فى الصناعة يمتاز عن الفحم فى كل معنى وفى كل مستوى ، فإن الفحم لهذا السبب بعينه يمتاز عليه بأنه يرغم على الصناعة ويفرض قيامها محليا in situ ، أما البترول فمرونته وتلاؤمه وسهولة نقله نسبيا تجعله كالكهرباء يمكن للتبعثر الشديد ولا يحتم – وإن لم يمنع – الصناعة محليا . ولكن هذا الفارق وحده ليس السبب فى الفارق الصناعى بين فحم أوربا فى القرن الماضى وبترول العرب فى القرن الحاضر . أما السبب الحقيق فهو الوعى أو اللاوعى الصناعى . ولهذا يظل الاقتصاد العام متخلفا متأخرا لم يهزه أو يحوله البترول، وكل ما فعل البترول هو أن أضاف قطاعا نوويا – كثيفا ولكنه صغير – يمتاز بالحداثة والتعقيد الشديد . ومعنى هذا على الفور أننا إزاء « اقتصاد مزدوج dual economy » واضح كل الوضوح من مثل ما تتميز به كل الاقتصاديات المتخلفة التى فرض عليها الاستعمار السياسى أو الاقتصادى قطاعا حديثا لا « يتعضون » معها بقدر ما يتطفل عليها (١) .

والحقيقة المثيرة التى تبدو غير مألوفة ولكن تؤكدها كل الاتجاهات الحديثة والمعاصرة فى الصحارى الحارة عامة هى أن إمكانياتها الاقتصادية تكمن لا فى الزراعة وإنما فى الصناعة، وليس فى التجارة ولكن فى السياحة. تلك تجربة حية تجسمها صحارى اريزونا وكاليفورنيا ونيفادا فى أمريكا الشمالية وإلى حد ما صحارى المكسيك وبيرو فى أمريكا الجنوبية ، وكذلك

---

(1) Cf. W. Hance, African Economic Development

لبيب شقير . التنظيم الاحتكارى الخ . ص ١٢٠ .

صحارى استراليا(١) . ولئن بدت هذه الإتجاهات أشبه بالطفرة أو المتناقضة الاقتصادية حيث نجد صناعة بلا زراعة وسياحة بلا تجارة ، فإن الذى يفسرها فى كل الحالات هو نقص الماء وتوفر المعادن . وهى تؤكد فى النهاية أن لدور البترول فى الصحراء صفة وطبيعة خاصة تختلف عما نألفه للقوى والمعادن فى البيئات المعمورة التقليدية. فكما رأينا التطور يقفز من مضارب الخيام إلى المدن دون القرى ، فإن التطور سيكون من الرعى إلى الصناعة دون الزراعة . وفى ضوء هذا الاتجاه يمكن أن نقول أن بترول العرب له إمكانيات صناعية كبرى فى قلب الصحراء نفسها ، وصناعات إذا قامت يمكن أن توصف بأنها مجرد « صناعات سياسية » بل ستكون « صناعات جغرافية » بكل معنى الكلمة(٢).

أما ما هى أهم هذه الصناعات الممكنة أو الكامنة فلا شك أن البتروكيماويات تأتى على رأسها . ويمكن لساحل الخليج العربى كما يمكن لساحل البحر المتوسط العربى أن يرصع بعقد منظوم من المصافى الكبيرة التى تكرر البترول وتخرج مشتقاته على أساس تكاملى. بمعنى أن تتبادل المصافى خاماتها المتباينة الصفات حتى تخلط تحقيقاً للإنتاج السليم . فتتبادل خامات الشام ومصر الثقيلة بخامات المغرب الخفيفة . ويمكن أن تتمم صناعة التكرير والنقل بصناعة أنابيب البترول محلياً وذلك بإجتماع خامات الحديد المصرية او الجزائرية بوقود البترول والغاز الطبيعى هنا وهناك . كذلك يمكن

---

(1) Richard F. Logan, Post-Columbian Development in the Arid Regions of the United States, in A History of Land Use in Arid Regions, ed. L. D. Stamp, Unesco, Paris, 1961, P. 295.

(2) Piorre George, Geographie Industrielle du Monde, Coll Que Sais-Je? Paris. 1949, 101,

للعالم العربى مجتمعاً أن يتحول إلى أكبر مصنع للسماد فى العالم — العالم الذى تتزايد حاجته إلى السماد الصناعى كل يوم . ذلك أن الغازات الطبيعية التى تحرق أو يعاد حقنها فى الآبار هى الخامة الأولى لصناعة السماد . ويمكن للإنتاج أن يكفى حاجة الزراعة العربية المتوسعة ويترك فائضاً للتصدير العالمى .

الزراعـــة

ليس البترول أمل التصنيع العربى وحده ، ولكنه أكثر من ذلك أمل الزراعة العربية التى هى على أحسن تقدير متخلفة تكنولوجيا فى الدول الزراعية وفاقدة فى الدول الصحراوية . والمفروض أن هذه الثروة غير المنظورة تعد « واحة » العرب التى يمكن أن تحول صحراء العرب إلى واحة كبرى متطورة ، وأن هذه هى الفرصة الوحيدة لتحويل رأسمال ثابت قابل للنفاذ إلى دخل متجدد ، ولتحويل موارد الموضع المؤقتة إلى موارد موضعية دائمة ، وموارد الجيولوجيا إلى موارد الجغرافيا . إلا أن سجل التنمية الزراعية حتى الآن رقعى مبعثر عشوائى ، خاصة فى الدول الصحراوية التى هى أشد حاجة إليها بيولوجيا وأكثر قدرة عليها إقتصاديا .

ولنبدأ بالدول الزراعية . إن البترول فيما عدا دوره كقوة محركة لا يعنى بالنسبة للزراعة المصرية إلا رسوم المرور فى القناة — أى موارد الموقع لا الموضع . وقد كرست كل رسوم القناة لتمويل السد العالى الذى سيقلب الزراعة المصرية كما وكيفا ، أفقيا ورأسيا ، ويبشر بثورة زراعية جذرية . أى أن مصر فى هذا تشترى الموضع بالموقع . أما العراق فهو أسعد الجميع حظاً لأنه والجزائر الآن الوحيد الذى يجمع بين إمكانيات ضخمة للتوسع الزراعى وبين إمكانيات ضخمة للتمويل من عائدات البترول . والواقع أن حكم العراق

من هذه الناحية هو حكم البلاد الجديدة البكر تماما مثل استراليا والأرجنتين الخ . وهناك بلا مغالاة إمكانيات لمشروع .T.V.A على الرافدين ، بل لقد دار الكلام فى وقت ما عن « Euphrates Valley Authority » . ومنذ وقت مبكر اتخذ العراق سياسة للتنمية الاقتصادية محورها عائدات البترول ، فكان « مجلس الإعمار » (مجلس التخطيط الاقتصادى حاليا) الذى خصص له ٧٠ ./ من العائدات . ولكن مضاربات السياسة الرجعية أجهضت هذا التخطيط باستمرار ، وتعددت وتعثرت مشاريع السنوات الخمس المختلفة ، ولم يتحقق حتى الآن إلا قليل من خطط التنمية الزراعية .

وعلى كل، فقد نالت الزراعة دائما أكبر نسبة من ميزانية الإعمار — أكبر من الثلث — وكانت مشاريع الرى « والبزل » (الصرف) فى المقدمة . ومن المشاريع التى تحققت مشروع سد الكوت الذى تم فى ١٩٣٩ لرفع المياه فى شط الغراف الذى كان قد جف بالإطماء وهجرته الزراعة . ومشروع وادى الثرثار على الدجلة قرب سامرا ، ومشروع الحبانية على الفرات قرب الرمادى، وكلها تعمل على تخزين المياه الصيفية وعلى الحماية من الفيضانات العالية فى نفس الوقت . هذا عدا مشاريع الآبار الارتوازية حيث لا يمكن الرى بالأنهار . أما مشاريع البزل فنى الجنوب لإزالة الملوحة المتراكمة . (١)

أما فى الدول الصحراوية فالمشكلة تختلف تماما . فالقاعدة الأرضية التى تصلح للزراعة فاقدة إلى حد كبير لانعدام المياه ، والمنفعة الهامشية لأى مشاريع زراعية لابد أن تكون ضيقة هنا . وقد حفر كثير من الآبار بحثا عن المياه ، ولكن طاقتها محدودة ونمطها رقعى مبعثر . والنموذج الوحيد الهام حتى الآن هو مشروع الخرج جنوب الرياض حيث استصلحت بضعة آلاف

---

(١) العبوسى ص ٢٤٤ — ٢٤٨ .

من الأفدنة على مياه الآبار التى تعتمد على المضخات الآلية وعلى شبكة من القنوات طولها ١١ ميلا حتى أصبحت مزرعة كثيفة للخضر والفواكه ومنتجات الألبان . وقد أدت كثرة المضخات إلى هبوط مستوى الماء الباطنى إلا أن طبقة غنية جداً من الماء كشفت بعد ذلك على بعد ٢٠٠٠ متر تحت الرياض. وقد يكون هناك إمكانيات لعشرات من « الخرج » الأخرى فى منطقة الخليج العربى إذا توافرت الدراسة والمسح الجدى . وهناك مشروع استصلاح ٢٠ ألف فدان فى وادى جيزان قرب الحدود اليمنية ، وقد درسته الفاو .F.A.O (١)
أما إمكانية الاعتماد على تقطير مياه البحر ، فهذه عملية باهظة للغاية وتقتصر حتى الآن على أغراض الشرب لا الرى ، ولن يمكن أن تكون موضع تفكير إلا إذا تطورت فأصبحت اقتصادية تماما ، وهو مالا يبدو حاليا أكثر من حلم مهندس الصحراء .

التجارة والخدمات

امتصت الحرف الثالثة الجانب الأكبر من النشاط الاقتصادى الجديد الذى ولده البترول ، لا لأن الصناعة والزراعة لم تتوسع كثيرا فحسب ، وإنما أيضا لأن هذا طبيعة الهرم الوظيفى من ناحية ، ولأنها امتداد للتقاليد الحرفية المتوطنة فى المجتمع العربى ولا تشكل أزمة تحول وظيفى وتلاؤم مهنى . فقد جذبت التجارة والخدمات كثيرا من القوى العاملة الجديدة حتى إن الشركة فى الكويت مثلا تجد صعوبة فى تجنيد العمال لأن الأهالى يفضلون الأعمال التجارية والمقاولات والتوكيلات . . . الخ أى أن الأثر الاقتصادى المحلى الأكبر للبترول اتجه إلى الوظائف والحرف « غير المنتجة » إن لم يكن

---

(١) R.I.I.A. Middle East. pp. 88—9

أحياناً إلى « الحرف المنحرفة » أكثر منه إلى الحرف المنتجة والمجالات البنـــاءة .

كذلك يلاحظ أن السكان المحليين ينصرفون عن بعض الحرف كمهنة التدريس مما يتركها مجالا تقليدياً للوافدين من بقية البلاد العربية . وفى الوحدات الصغيرة مثل البحرين وقطر والكويت يؤلف القطاع الحكومى نسبة كبيرة جداً من مجموع السكان -- ١٠ ٪ فى الكويت مثلا -- لضآلة الحجم العام للدولة . والواقع أنه لوحظ أن البترول قد ضاعف ، ابتداء من الجزيرة العربية حتى ليبيا ، من تضخم الحرف الثالثة بشكل غير سليم اقتصادياً ، وهو ما يعرف بظاهرة over-tertiarisation .

على أن التجارة لم تعد تجارة الوساطة والمرور القديمة كما كانت فى دويلات الخليج ، إنما انصرفت إلى تجارة الإستيراد للاستهلاك المحلى . ونقول الإستيراد لأنه ليس ثمة تصدير -- إلا تصدير البترول الذى يمثل جزءاً من عمل الشركة . وهذا الإستيراد يمثل عصب الحياة الجديدة فى الوحدات الصحراوية بالذات ، لأن زيادة الدخل الفجائية مع زيادة السكان من ناحية ، مع نقص أو انعدام الإنتاج المحلى من الغـــذاء والملابس وضرورات الحياة الأخرى من ناحية ثانية ، جعل الوجود البشرى برمته هنا رهناً بالإستيراد من الخارج . ولكن الكماليات تلعب دوراً خطيراً فى الإستيراد ، كما تمثل محوراً حاسماً للخدمات ، وذلك بحكم نمط توزيع الدخل الجديد .

وتساهم الدول العربية الزراعية المتقدمة بنصيب كبير فى هذا النشاط التموينى حتى قد يجوز أن نسميها الآن « بقالة العرب » : فهى تقدم الخضر والفاكهة الطازجة والمعلبات بل والماء كما يحدث من شط العرب إلى الكويت.

وقد يمكن أن نضيف علاقات « التموين » الحضارى بالفنيين والمعلمين وغيرها من « الصادرات الثقافية » . وهناك أخيراً علاقات السياحة والترفيه المتضخمة والتى أصبحت فيها العواصم العربية المتقدمة مثل القاهرة وبيروت هى واحة الراحة الجديدة لملوك الصحراء وملوك البترول . ونكاد نقول إن هاتين العاصمتين قد أصبحتا فى أكثر من معنى باريس وفينا الشرق الأوسط على الترتيب — ولنذكر أن الأخيرة توصف بدورها بأنها باريس شرق أوربا .

والواقع أنه قد نشأ محور تجارى هام عبر الصحراء بين الخليج العربى وساحل البحر المتوسط حتى برز مشروع « الطريق البرى العربى » للسيارات يربط ولايات الخليج والسعودية والكويت والعراق بالأردن وسوريا ولبنان . ولن يكون هذا الطريق البرى — الأوفر لاندروت الجديد — منافساً للطريق البحرى السويس ؛ لأن تقسيم العمل بينهما سيتم على أساس السلع الخفيفة والأشخاص للأول والسلع الثقيلة الثانى .(١)

---

(١) البترول والسياسة العربية . اخترنا لك .

الفصل السابع

الثورة البترولية والمجتمع العربى

المركب الحضارى : انثروبولوجى ينظر إلى بترول العرب

نظرة تاريخية

لو أردنا أن نحدد أخطر نقط التحول فى خط سير التاريخ العربى وأحرج مراحل التخمر فى حياة المجتمع العربى لكان فى مقدمتها الاسلام ثم كشف طريق الرأس ثم قناة السويس ثم البترول . كل واحدة من هذه ثورة عارمة بشريا وتاريخيا : كل واحدة منها كانت بمثابة اكتشاف « عالم جديد » رج القديم ورسم استراتيجية المستقبل لقرون . والواقع أننا يمكن أن نقول إن اكتشاف البترول بالنسبة للعالم العربى كان كاكتشاف الأمريكتين بالنسبة للعالم القديم : هذا أضاف « عالماً جديداً » كاملا إلى الغرب عبر المحيط ، وهذا أضاف عالماً جديداً برمته أسفل عبر الطبقات . الأول عالم جديد جغرافى منظور والثانى عالم جديد جيولوجى غير منظور .

وتشبه هذه النقط الحاسمة فى آفاق التاريخ العربى تلك الفترات القصيرة ولكن الإنقلابية فى طبقات القشرة الأرضية التى تكثر فيها الأنواع النباتية والحيوانية فجأة وتتعدد وتشتد خطى التطور البيولوجى والتى يطلق عليها «التطور الانفجارى Explosive evolution » . والعالم العربى يعيش الآن فى ظل الثورة الأخيرة — الثورة البترولية . وهى ثورة طافرة بكل معنى الكلمة لأنها انبثقت فجأة وحديثاً ولا زالت فى « دور المراهقة » . ولهذا فإن التوازنات القديمة Equilibria والقيم القديمة تهتز اليوم بعنف لتعطى مكانها لتوازنات وقيم جديدة فى كل المجالات اقتصادية وإجتماعية وسياسية .

ولا مفر من أن تكون هذه عملية حرجة ، تمتاز بقوام متميع . ولا يتعرض العالم العربى فى كل أجزائه لهذه الظاهرة بنفس الدرجة بطبيعة الحال ،فالثورة البترولية تتناسب فى مداها مع الثروة البترولية ، وهى ما نعرف من تفاوت . « والمشرق الأقصى » هو أعنفها وقعاً فى هذا الصدد ، بينما لم تبدأ إرهاصاتها فى المغرب إلا بالكاد، وما عدا ذلك من العالم العربى فتأثره أقل .

وحتى ما قبل البترول ،كان العالم العربى ينقسم حضارياً إلى إقليمين رئيسيين متمايزين : زراعى وصحراوى . فالنطاق الزراعى يشمل ساحل البحر المتوسط وإمتداده فى الهلال الخصيب إلى العراق . وهذا يمثل مركز الثقل التاريخى فى العالم العربى ، ويمثل نطاق المعمور الحقيقى فيه . وتأتى أهميته ووزنه من مصدرين خطيرين : موارد « الموضع » المحلية ممثلة فى الزراعة ، وموارد « الموقع » الخارجية الآتية من تجارة المرور . ومن هذه الموارد المزدوجة استمد ثروته الانتاجية والتبادلية ، كما استمد اتصاله بالعالم الخارجى ومناطق الحضارة الحديثة . ولهذا عرف الاحتكاك الحضارى بالغرب مبكراً — على الأقل وبصورة حاسمة منذ الحملة الفرنسية على مصر فى آخر القرن ١٨ . ويمكن أن نتخذ هذا التاريخ خط التقسيم الحضارى بين العصور الوسطى والعصر الحديث فى هذا النطاق . وقد لعبت موارد الزراعة ـ موارد الموضع ـ دوراً حيوياً كأداة للتحضير والإحتكاك الحضارى ، فكان القطن فى مصر مثلا والمحاصيل الثمرية فى غيرها هو المحصول النقدى الذى خرج بالانتاج المحلى من اقتصاد الكفاية إلى الاقتصاد التبادلى ، وأصبح محصول التصدير الذى نشترى به الحضارة الحديثة كسلعة الوارد الأساسية . وانتهت بذلك مرحلة الانطواء الحضارى « والبيات الشتوى » التاريخى .

أما النطاق الصحراوى فيشمل كتلة الصحراء التى تحتل أغلب رقعة العالم

العربى ، وهو بطبعه يخلو من موارد « الموضع » أو يكاد ، فكل ثروته المحلية الرعى الفقير الذى ما كان يسمح إلا باقتصاد الكفاية الذاتية والانطواء المحلى . ورأسماله الوحيد المحدود هو الموقع ، فقد كان يشارك بحكم كونه جزءاً من « إقليم الاتصال » الحيوى فى العالم القديم فى تجارة المرور والمواصلات العالمية . ومع ذلك فقد كانت هذه المشاركة ضئيلة على الإطلاق وعلى النسبة ، إذا ما قارنا بنطاق الزراعة الساحلى . كذلك كان الموقع الخلفى جغرافيا يعنى الموقع المتخلف حضاريا : فإن هذا النطاق الفقير يقع على الجانب الخطأ من مركز الحضارة الغربية الحديثة . ولهذا انعزل عن تيار الحضارة الحديثة ، وخضرمت فيه العصور الوسطى بكل مركباتها الحضارية ومفاهيمها التاريخية حتى قلب القرن العشرين ـ فى تقدير توينبى مثلا أن مصر تسبق أجزاء أخرى من العالم العربى بنحو ١٥٠ سنة حضارية ـ حين جاء البترول ليقلب الخريطة الحضارية التقليدية رأسا على عقب ويرسم جغرافية حضارية جديدة للعالم العربى .

إيكولوجية توزيع البترول

كيف جاء البترول ؟ ما هى إيكولوجية توزيعه بمعنى آخر ؟ يمكن أن ننظر إلى علاقات البترول التوزيعية من جانبين هما فى ذاتهما مترابطان أشد الارتباط ؛ ونعنى بهما الجوانب الطبيعية والنواحى البشرية . فأما عن النواحى الطبيعية فيستطيع الناظر إلى خريطة توزيع بترول العرب أن يرى أنه برمته تقريبا يقع فى الصحراء . فإذا قارنا خريطة البترول بخريطة المطر وجدنا أن البترول يتوطن فى مناطق تقل مطرا عن ١٠ بوصة دائما ، ولا يشذ قليلا إلا بترول شمال العراق ، ومع ذلك فهو لا يخرج عن حدود ١٥ بوصة فى السنة تقريبا . بمعنى آخر إن البترول فى توزيعه يكاد يتناسب تناسباً

الوحدة	عدد السكان ١٩٦٠ — ١٩٦٢	٪ من مجموع العرب	احتياطي البترول ١٩٦٢ بالآف البراميل	٪ من احتياطي العرب	نصيب الفرد من الاحتياطي بالبراميل	إنتاج البترول ١٩٦٢ بالطن	٪ من انتاج العرب	نصيب الفرد من الانتاج بالطن
مصر	٢٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٠ر٠	٥٦٤ر٠٠٠	٠ر٣	٢٠	٤ر٣٦٠ر٠٠٠	١ر٦	٠ر١٦
الجزائر	١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	١١ر٠	٥ر٥٢٠ر٠٠٠	٣ر٠	٥٢٥	٢٠ر٤٩١ر٠٠٠	٧ر٨	٢ر٠
العراق	٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٧ر٧	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١٣ر٦	٣٤٠٠	٤٨ر٢١٥ر ٠٠	٨ر٠	٦ر٨
السعودية	٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٧ر٧	٥٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٢ر٠	٨٠٠٠	٧٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٧ر٣	١٠ر٧
ليبيا	١ر١٠٠ر٠٠٠	١ر٢	٦ر٠٠٠ر٠٠٠	٣ر٤	٥٠٠٠	٩ر٠٠٠ر٠٠٠	٣ر٣	٨ر٢
الكويت	٢٣٠ر٠٠٠	٠ر٤	٦٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٣٨ر٠	٢٠٠ر٠٠٠	٩٠ر٧٢٤ر٠٠٠	٣٣ر١	٢٧٠ر٠
البحرين	١٤٠ر٠٠٠	٠ر١٥	٢٤٠ر٠٠٠	٠ر١٥	١٧٠٠	٢ر٢٢٠ر٠٠٠	٠ر٨	١٦ر٠
قطر	٨٠ر٠٠٠	٠ر١	٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١ر٦	٢٧ر٠٠٠	٩ر٣٠٠ر٠٠٠	٣ر٣	١١٦ر٠
المحايدة	؟	؟	٧ر٠٠٠ر٠٠٠	٤ر٠	؟	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٤ر٤	؟

عكسيا مع المطر ، وتناسبا طرديا مع الجفاف . إنه بتعبير آخر من النوع الصحراوى لا الزراعى - ربما باستثناء العراق . لقد جاء اللون الجغرافى السائد لبترول العرب من « البترول الأصفر » لا « البترول الأخضر » كما قد نقول . البترول والماء باختصار قطبان متنافران .

أما من النواحى البشرية فإن إيكولوجية البترول لا تقل غرابة ومغزى . والجدول المعطى يقدم مادة خاما لمناقشة العلاقة بين البترول والسكان ، وتدور أرقامه حوالى ١٩٦٠ - ١٩٦٢ .

والجدول - وهو مرتب ترتيبا تنازليا بحسب السكان - غنى بالدلالات والمعانى . فرغم أن أنهار الاحتياطى والإنتاج لا تتراتب تنازليا باطراد ، إلا أن هناك علاقة عكسية جزئية مؤكدة بين عدد السكان وبين كل من الاحتياطى والانتاج . فبوجه عام يزداد مجموع الاحتياطى ومجموع الإنتاج ، وأكثر منهما - بداهة - نصيب الفرد من الاحتياطى ومن الإنتاج ، تزداد كلما قل عدد السكان . وصحيح أن هذه العلاقة ليست طردية بل تحدث على « سلمتين » كما قد نقول . ولكنها علاقة حاسمة . ومعناها أن عمالقة العرب هم أقزام البترول - والعكس صحيح . . . وهذه بطبيعة الحال نتيجة منطقية منتظرة بعد أن وجدنا البترول « محصولا صحراويا » أساساً . ومعنى هذا أيضا أن توزيع البترول جاء أبعد ما يكون عن العدالة بالنسبة لكثافة السكان .

فمثلا لا تملك مصر إلا ٣ فى الألف من رصيد العرب من البترول وإن كانت تملك ٣٠ فى المائة من أبنائهم . وعلى الطرف النقيض الكويت تملك ٣٨ ٪ من رصيد العرب ولكنها لا تمثل إلا أربعة مواطنين من كل ألف عربى . ويترتب على ذلك أن كل مصرى يخصه رصيد من البترول قدره ٢٠

برميلا مقابل ٢٠٠ر٠٠٠ الف برميلا لكل كويتى أو عشرة الاف ضعف المتوسط المصرى ! وبين هذين القطبين تكاد العلاقة العكسية تظل محفوظة فى الوحدات الأخرى . ولهذا نجد أن « الثلاثة الكبار » فى بترول العرب يملكون ٨٣ر٦ ٪ من رصيده وينتجون بالفعل ٧٨ر٤ ٪ من إنتاجه ، ولكنهم لا يزيدون معاً عن ١٥ر٨ مليون نسمة أونحو ١٤ر٣ ٪ من كل العرب .

بل أغرب من هذا نجد أن نحوا من ١ر٦٥٠ر٠٠٠ من بين التسعين مليون عربيا أو ١ر٨٥ ٪ من مجموع الأمة العربية (الكويت ، قطر ، البحرين ، المحايدة ، ليبيا) يملكون فيما بينهم وحدهم ٤٧ر١٥ ٪ من رصيد البترول العربى وينتجون بالفعل نحو ٤٤ر٩ ٪ من إنتاجه . قل تجاوزا إن ⅕ من العرب يملكون ٥٠ ٪ من بترول العرب . . . ولذا فإننا حين نجد أن بترول العرب كله موزع بين حوالى ٥٣ مليونا أو ٥٧ ٪ منهم ، فإن هذا لا يعنى كثيرا ولا يغى كثيرا لأنه يخفى الاحتكارات الضيقة التى فرضتها الطبيعة داخل هذا الإطار الواسع . ويصبح لا مفر لنا من أن نقرر أن هناك حقا « من يملكون ومن لا يملكون » . ولكن علينا أيضا أن نذكر بوجه عام أن من يملكون بتروليا لا يملكون زراعيا ، وأن الذين يملكون زراعيا هم الذين لا يملكون بتروليا : الذين يملكون الزيت لا يملكون الماء - والعكس : الذين يملكون جغرافيالا يملكون جيولوجيا . والعكس . إن حصاد الصحراء يتناسب تناسبا عكسيا مع حصاد الزراعة .

التكييف الحضارى الجديد

تلك إذن إيكولوجية توزيع البترول . سنرى كم لها من نتائج ثورية فى المجالات الاجتماعية والسياسية . وسنرى أن هذه النتائج لم تكن دائما سعيدة

ولا موفقة . وأن هذا التعارض بين حجم السكان وحجم البترول ، وبين البيئة الجغرافية والثروة الباطنية ، يمكن أن يعد سلاحاً ذاحدين . على أننا يمكننا هنا أن نقول من الناحية الحضارية التى تعنينا الآن : لعل فى هذا حكمة تعويضية بالغة من جانب الطبيعة ، فلقد ظلت الصحراء طوال تاريخها الألفى فقيرة ماديا ، مجرد فراغ اقتصادى وظلا أوشبه ظل حضارى باهت للنطاق الزراعى ولو أنها لعبت دوراقياديا روحيا . كذلك فإن من حسن حظ العالم العربى بعامة أن جاء بتروله صحراويا . فالصحارى كمناطق عزلة هى من أشد الأقاليم تخلفا وجمودا ورجعية ، ظلت كذلك وكذلك فى أغلب الظن كانت ستظل لولا أن أتاها البترول أكبر مذيبات العزلة والتخلف فى القرن العشرين .

ولكن أخيراً بررت الصحراء نفسها اقتصادياً ولم تعد مجرد خرقة بالية أو شرنقة واسعة تحيط بالنواة الزراعية الساحلية ، بل أصبحت قطباً اقتصادياً جديداً يناظر القطب الزراعى القديم ، وأصبح مهد العرب هو مهد البترول . وسنرى هنا أن ثروة النطاق الصحراوى الجديدة مستمدة من الموضع لا الموقع كما كانت من قبل ، ولم تعد موارد الموقع من تجارة مرور أو عبور إلا عنصراً رمزياً فى المركب الإقتصادى الجديد وبقايا حفرية للتطور ، أو بالأحرى الإنقلاب ، المادى الأخير .

ويلعب البترول الآن فى النطاق الصحراوى دور الماء فى النطاق الزراعى : لقد أصبح دم الحياة فى الصحراء ، وأخذ يلعب دور القطن والفواكه فى النطاق الزراعى : أصبح أداة استيراد الحضارة الحديثة ووسيط الإحتكاك الحضارى . إن البترول فى الصحراء — كالقطن فى مصر — هو الذى وضع نهاية للعصور الوسطى ، وحرك عملية الإختزال التاريخى والتضاغط الحضارى التى تعيشها الصحراء اليوم بصورة فجائية .

ولكن بينما نما القطن -- الذهب الأبيض -- كوسيلة حضارة، تدريجياً وفى تطور ، أتى البترول -- الذهب الأسود -- طفرة ومن ثم مشحوناً بالتناقضات والتوترات . ولقد كان معنى المحصولين فى كلا الحالين هو باختصار الاحتكاك الحضارى أو بالأحرى ارتطام حضارتين Clash of cultures . لأن القطن بدأ من « ثورة الرى » التى اعتمدت على التكنولوجيا الغربية أولا ، ثم انتهى إلى السوق الغربية ، والبترول يعتمد فى استخراجه تماماً على التكنولوجيا الغربية كما يتجه إلى السوق الأوربية فى تصريفه. والواقع أن البترول بطبيعته أبعد من القطن خضوعا لتكنولوجيا وتسويق الغرب . وإذا قلنا البترول فى العالم العربى فقد قلنا « الشركة » الغربية . وحتى بعد أن توفرت رؤوس الأموال للعرب فلا زالت كل إمتيازات البترول من نصيب الشركات الغربية التى تملك وحدها رأس المال والفن معاً .

والواقع أن إمتياز شركة البترول الأجنبية هو فى التحليل الأنثرو - بولوجى البحت عقد بين حضارتين : « حضارة تعلم » « وحضارة لا تعلم » . ولهذا وبالقياس إلى ثورة الرى كان وقع الثورة البترولية أعنف وأحرج ما يكون . أضف إلى هذا الاختلاف الأولى فى مدى « الفارق الحضارى C. lag » فى حالة كل من ثورة القطن وثورة البترول . فالنطاق الزراعى من العالم العربى احتك بالحضارة الغربية أول ما احتك فى القرن ١٩ حين لم تكن حضارة أوربا قد بلغت القمة بينما لم تكن حضارة الجانب العربى خاوية تماماً من تراث أصيل . أما النطاق الصحراوى فقد بدأ حضارياً من نقطة الصفر أو يكاد ، ومنها احتك بحضارة الغرب بعد أن تبلورت ووصلت إلى ذروة التعقيد والتطور خاصة فى أحدث وأرقى ممثلاتها أمريكا . ولهذا كان « الفارق الحضارى » فى حالة الثورة البترولية هائلا ، وكان الاحتكاك « صدمة حضارية cultural shock » وهزة عنيفة .

لهذا كله فليس من المغالاة أن نقول إن البترول هو آخر الثورات الكبرى فى تاريخ العرب ، وهو فى الجزيرة العربية بالذات يعد « الثورة الثانية » منذ الاسلام : هذا وضع حداً للجاهلية الدينية وهذا وضع حداً « للجاهلية الحضارية » . وكما قيل عن إفريقيا أنها القارة التى احتفظ الله بها كرصيد ، فكذلك البترول هو الاحتياطى الذى احتفظ به الله للعرب . من أجل هذا الانقلاب الحضارى الذى حركه البترول شبه بمصباح علاء الدين : فبخدش يسير على وجه الأرض خرج هذا المارد من قمقمه التاريخى أو بالأخرى من قمقمه الجيولوجى ليحقق معجزات حضارية أسطورية . فهل يرقى دور البترول الفعلى ونتائجه البشرية والاقتصادية الحقيقية إلى هذا الوصف وإلى تلك المرتبة حقاً ؟ . هذا ما نحاول أن نعرفه فى الصفحات التالية فى مجال التركيب الاجتماعى .

التركيب الاجتماعى

أدوات التغير الاجتماعى

لا يمكن المبالغة فى دور البترول فى التغير الاجتماعى فى العالم العربى ، فهو اليوم خميرة التطور الأولى فى المجتمع العربى وفى تركيبه الاجتماعى وأنماطه وقيمه مادية وغير مادية ، بل إنه يعيد تشكيل هذا المجتمع فى إطاره الطبيعى حجما وتوزيعا وتركيبا . وبفضل ظروف استغلاله ودخله ، فتح البترول الباب فجأة للتيارات الحديثة على مركب اجتماعى وسيط بسيط – يجتر نفسه فى قوقعته وعزلته – وأدخل معها عناصر مختلفة تعد من حوامل جراثيم التطور الاجتماعى أو ناقلات الدوى الحضارية . ولعل أبرز نقط هذا الاحتكاك الحضارى وأدوات هذا التغير الاجتماعى هى

« الشركة » بما تعنى من « مستعمرات » الفنيين الأجانب وطوفان الوسائل الحضارية الحديثة . وقد لا تكون هذه النواة كبيرة الوزن عددا ، ولكنها بعيدة الأثر إشعاعا باعتبارها نموذجاً لحضارة سائدة وبؤرة للتقليد الحضارى وباعتبارها مرادفا لبيئة مدنية عمالية كثيفة مضطرمة .

وبحكم التخلف الحضارى الكبير فى الوحدات الصحراوية خاصة لا تقتصر وظيفتها على الجانب التكنولوجى البحت ، بل تصبح ، بإرادتها وكجزء من سياستها أو برغم إرادتها وكطلب الدولة العاجزة ، مدرسة حضارية كما هى مدرسة فنية ، فتقوم - كما فى السعودية وغيرها - بكثير من المشاريع العمرانية والإنشائية والتثقيفية والترفيهية ، كالاستصلاح الزراعى وإنشاء الموانى ومد الطرق والسكك الحديدية والشبكات السلكية واللاسلكية وشبكات الماء والغاز والكهرباء وتقدم التسهيلات الثقافية والترفيهية كالملاعب والأندية والمستشفيات . (١) والواقع أنه كلما كانت الدولة متخلفة عاجزة ، كلما خرجت وظائف الشركة عن نواتها الفنية الأصلية وتحولت خاصة فى مراحلها الأولى إلى « وكيل حضارى عام ومرضعة للدولة ! A wet nurse and a general fatotum ».

وهناك بعد الشركة من أدوات التغير الاجتماعى مستعمرات الخبراء والمعلمين من الدول العربية الأخرى الأكثر تطورا وخاصة مصر والشام. وربما كان أثر هذه القوى الاجتماعية social forces أوسع مدى وأعمق جذورا لأنه ينتشر كما يكون « الانتشار الغشائى Osmosis » ، أى بالتسرب والتشرب الوئيد لا الوقع العنيف كما فى حالة الشركة . ثم هناك أخيراً

(1) Longrigg, pp. 211, 260.

« الخروج » العربى ، ونعنى به سفر المواطنين العرب بالجملة من دول البترول إلى بقية أجزاء العالم العربى وإلى العالم الخارجى للسياحة أو التعليم أو التجارة ، مما يضع حدا للتكيس الحضارى والاجتماعى التقليدى .

نمط الحياة

لعل أبرز مظاهر التطور الاجتماعى الجديد ما يلحق نمط الحياة genre de vie بالتحول من البداوة والترحل إلى الاستقرار والتحضر . وعملية توطن البدو سابقة على البترول فى معظم مناطق العالم العربى ، ولكنه عجل بها فى حالات أو بدأها فى حالات . ولم يكن التوطن زراعيا إلا كشذوذ ضئيل ، أما القاعدة فهى التوطن المدنى سواء على حقول البترول أو على طول الأنابيب. ومن المصادفات الهامة أنه حتى خارج الدول الصحراوية يتفق أن البترول يقع فى الدول الزراعية فى نطاقات رعوية كما فى العراق، فبترول الشمال يقوم فى وسط رعوى أساسا ، بينما بترول الجنوب صحراوى بوضوح . ولهذا بدأ بترول الشمال يجذب إليه الرعاة الأكراد والعرب فى الشمال . وبدأوا يهبطون من الجبال للاستقرار فى البؤرات المدنية الصناعية النامية مثل عين زالة والناضجة مثل كركوك هذا بينما أخذت قبائل شمر فى استبس الجزيرة وصحراء الشام تستقطب تدريجيا على طول أنابيب الزيت،كما تتجاذب البرادة على قضيب مغنطيسى . ولقد بدأت علاقتها بالأنابيب « كحرس » على الطريق بالاتفاق مع الشركة (١) ، وبالتدريج تحولت إلى « ضيوف » على محطاتها أقرب إلى الاستقرار منها إلى الترحل للانتفاع بمياهها وتسهيلاتها — المجانية غالبا .

ولا شك أن البداوة والترحل لا زالت تغطى مناطق شاسعة من المشرق

(1) Ibid.p. 81.

والمغرب العربى ، ولكن لا شك أنها نمط منقرض الآن بسرعة لا سيما فى مجالات حقول البترول . ويمكن أن ننتظر ذوبان الترحل حول حقول ليبيا والجزائر كما وجدناه يذوب حول حقول الحسا والخليج العربى وشمال العراق . وفى مصر جذب البترول عددا لا يمكن تقديره من رعاة الصحراء الشرقية وسيناء للاستقرار التعدينى ، هذا عدا الأثر الاقتصادى المفيد للبترول على عناصر البدو المجاورة(١). هذا ويلاحظ أن التحول المهنى فى بعض مناطق العالم العربى إلى التعدين البترولى لا يتم فقط على حساب الرعى والرعاة ، وإنما أحيانا على حساب الزراعة والواحات ـ كما فى ليبيا الآن ، مما يخلق « خروجا ريفيا » يهدد فى بعض الحالات بإهمال الزراعة ويعرض الواحات لغزو الملح والرمل(٢) ويؤدى فى النهاية إلى رفع أسعار الحاصلات الزراعية والأغذية ارتفاعا خطيرا كما فى ليبيا مثلا .

وحدة المجتمع

التحول من البداوة إلى الاستقرار يعنى ذوبان القبلية detribalisation وتفتت وحدة المجتمع التقليدية وهى القبيلة حيث تتحلل فى مجتمع المدن الحديدة إلى عناصرها الخلوية – إلى الأسرة النووية الضيقة . أى أن القوالب الاجتماعية يعاد تشكيلها . ومعنى هذا أن تحل الوحدة السكنية غير المتجانسة محل الوحدة الدموية المتجانسة ، وعلاقة الجوار محل علاقة القرابة . وفى كثير من الحالات تتم هذه العملية بالتدريج فيظل العمال يسكنون فى قراهم أو حلاتهم

---

(1) Mohammed Awad «Settlement of Nomadic & Semi-Nomadic Tribal Groups in the Middle East, Bull. Soc. Géog. d'Egypte, 1959, pp. 25, 27.

(2) Hassan 'Awad, «L'Eau et la Géog. Humaine dans la Zone Aride,» Bull. Soc. Géog. d'Egypte, 1958, P. 206

البدوية إذا ما كانت غير بعيدة و ينتقلون يومياً إلى المدينة للعمل. وأياً ما كان فسيترتب على هذا أن يذوى نفوذ شيوخ القبائل والنظام البطريركى القديم .

وربما صح أن نقول إن البطريرك الجديد فى مجتمع مدينة البترول فى فى مرحلته الانتقالية هو « الشركة » : فنفوذها فى حياة هذا المجتمع الوليد سائد ، فسواء حاولت - كالأرامكو - أن تتفادى (أبوة Paternalism) « مدن الشركات » أو لم تحاول فإنها بالضرورة مسيطرة على الإسكان والتموين وأغلب الخدمات - هذا عدا العمل . وطبيعى أن انكماش وحدة المجتمع سيعقبه تغيرات اجتماعية مترابطة فى التقاليد والحالة الاجتماعية .. الخ ومع الاستقرار وتفتت القبيلة بدأت تظهر الملكية الفردية وتحل محل الملكية الجماعية للقبيلة ، فالأرض بدأت تقسم وكذلك المنقولات والعقارات .. الخ . إلا أننا ينبغى ألا نبالغ فى سرعة هذا التغيرات أو اتساعها ، لأن إطارها فى كل قطر محلى قبل أن يكون قومياً .

السلطة فى المجتمع

كانت السلطة السياسية فى الدول الصحراوية تتركز تقليدياً فى أيدى شيوخ القبائل أو شيوخ الطرق . إلا أن الأصل فى الشيخ البطريركى كان الحكم الديمقراطى البسيط ، ثم لم يلبث أن تحولت ثيوقراطية الصحراء إلى ملوك الصحراء ، ثم مع البترول تحول ملوك الصحراء إلى ملوك البترول . وهنا يلاحظ أن الملكية التى كانت فى يوم ما تغطى العالم العربى برمته قد تقلصت ولم تعد توجد إلا فى دول الصحراء ، أى أن الصحراء أصبحت معقل التخلف السياسى والرجعية الدستورية ، وبالتالى نرى أن أغلب دول البترول هى دول ملكية . وفى معظم الحالات احتكر الحاكم الدخل الجديد إلى حد بعيد ، فتحول الحكم الدينى إلى حكم علمانى ، وانقلبت الديموقراطية

البداثية القبلية إلى أوتوقراطية وتطورت بلوتوقراطية الماشية أو الابل المألوفة فى المجتمع الرعوى Cattlé plutocracy إلى بلوتوقراطية البترول Oil plutocrary . أى أن نظام الطبقات بدأ يظهر أو يتبلور بوضوح فى بيئة المساواة التقليدية على الأقل نظرياً ، وأعطى النظام البطريركى الساذج مكانه إلى الإقطاع الأسرى السافر ، وأصبح هناك حقاً من يملكون ومن لا يملكون فى المجتمع .

وقد خلق تركز الثروة والسلطة فى الرجعية الاقطاعيةظاهرات أخلاقية معينة: الطفيلية الاجتماعية parasitism ، والانحلال الأدبى demoralisation والانتهازية ، سواء بين العناصر المحلية أو بين عناصر من الخارج (١) . ولعل هذا يفسر جزئيا طوفان المهاجرين «والمنتفعين» من الخارج . ولكن الأثر الأخطر هو ظهور بوادر الصراع السياسى والطبقى . فمع انتشار التعليم والتحضير والاحتكاك الحضارى ، ومع ظهور مجتمع مدن جديد وبيئات عمالية متكتلة وبر ولتارية أجيرة ، أى رأى عام وتوعية سياسية ، يبدو جيداً أن البترول خلق متناقضات إجتماعية خطيرة . ومن قبل قد تكررت الإضرابات العمالية فى مناطق الحقول فى السعودية ولم تقابل إلا بالحكم العسكرى والقمع . كما حدث فى البحرين حيث أزمن الصراع بين الطبقات المثقفة والحاكم على نمط الحكم . وبالمثل ظهر رد فعل بين المثقفين فى السعودية ، لم يقابل إلا بمزيد من العزلة عن الخارج وسحب البعثات العلمية من «مشاتل المشاكل» فى الخارج . وإذا كان الكويت قد خلا للآن من مثل هذه المشاكل المباشرة ، فذلك لأن الجميع كانوا منهمكين فى الحصول على الثروة (٢) . ومع ذلك فليس ثمة عامل آخر غير البترول كقوة سياسية يفسر

(١) لونجريج ص ٣٦٣

(2) R.I.I.A., Middle East, pp. 94, 133 — 5, 93, 130.

لماذا أضطر الحكم فى الكويت إلى أن يتخذ شكل الحكومة المسؤولة أخيراً ويتنازل عن بعض سلطاته. والخلاصة أن البترول فى الوقت الذى دعم فيه الاقطاع الأسرى ، ألقى بذور الاشتراكية والمبادىء التقدمية . من هذه المتناقضة السياسية الداخلية يبدأ التخمر السياسى والتوترات المتواترة التى لا يمكن إلا أن تؤدى إلى تغيير ما فى الشكل والقالب السياسى إن آجلاً أو عاجلاً .

وفى حالة كالسعودية بالذات يمكن أن نقول إن تطورها السياسى يعيد فى خطوطه العريضة تطور مصر السياسى منذ أوائل القرن الماضى ، ولكن بصورة مضغوطة بحكم روح العصر . هذا طبعا عدا الفروق الأساسية بين مجتمع زراعى ورعوى . فكما بدأ محمد على الدولة الحديثة الأوتوقراطية قبيل القطن ثم دعمها به ، بدأها عبد العزيز فى السعودية قبيل البترول ثم وطدها به ، وكما تحول القطن إلى أداة الترف والفساد على يد اسماعيل تحول البترول فى السعودية على يد سعود . وإذا كان هذا النظام قد صفى فى مصر بعد ذلك بعقود طويلة ، فإن تضاغط التطور ينبىء بنهاية سريعة جدا ودورة مختزلة للغاية فى السعودية .

الفصل الثامن

الثورة البترولية والعمران العربى

السكان

النمو

تقتصر هذه الدراسة بطبيعة الحال على مناطق الانتاج الكبير والانتاج القديم فقط حيث يتاح لنا بعد زمنى معقول لتتبع حركة السكان . ولعل أهم حقيقة ديموغرافية فى تاريخ مناطق البترول الحالية فى المشرق العربى هى التوقف النسبى إلى ماقبل العقدين أو الثلاثة الأخيرة . فقد كان نمو العراق بطيئا للغاية ولا يتناسب مع شهرته التاريخية أو إمكانياته الزراعية . بينما فى المناطق الصحراوية من المرجح جدا أن هامش النمو كان ضعيفا للغاية وأن حجم السكان كان فى توازن آلى مع حجم الموارد التى لاتكاد تتغير . أما فى العقود الأخيرة فمن المحقق أن البترول أدى إلى زيادة محسوسة فى نمو السكان فى مناطقه .

فنى العراق نجد النمو بطيئا للغاية إلى أن يبدأ البترول . فنى ١٩٢٥ كان السكان ٣,١٧٥,٠٠٠ زادوا أقل من ½ مليون فى عقد حين أصبحوا ٣,٦٠٠,٠٠٠ فى ١٩٣٥ ، بينما فى العقد التالى الذى تتفق بدايته مع بداية البترول فى ٤٤ — ١٩٣٥ زادوا أكثر من مليون نسمة حين أصبحوا فى ١٩٤٥ نحو ٤,٦١١,٠٠٠[1] . ومع زيادة معدل البترول ، زاد معدل

---

(١) الحلف . ص ٤٠١ .

النمو السكانى . فنى العقد التالى ١٩٤٧ — ١٩٥٧ ارتفع الرقم من ٤,٨١٦,٠٠٠ إلى ٦,٥٣٨,٠٠٠ [١] ، أى بزيادة قدرها ٢ مليون فى العقد ، ومعنى هذا أن وحدة الزيادة تتضاعف كل عقد منذ بدأ البترول بمتتالية قريبة من ١ : ٢ : ٤ .

ويقدر عدد السكان فى العراق اليوم بنحو ٦,٩ مليونا . أى أن العراق ضاعف نفسه تقريبا فى الثلاثين سنة الأخيرة . فالفترة الأخيرة تمثل نسبيا — انفجاراً سكانيا واضحا . وقد يمكن أن يعد العراق اليوم على بداية مرحلة الانطلاق من منحنى النمو ، وهو الموقع الذى كانت عليه مصر سكانيا فى منتصف القرن الماضى . وكما كانت مكاسب القطن هى العامل المسيطر فى الحركة الأخيرة ، كانت عائدات البترول هى العامل المسيطر فى الحركة الأولى .

أما فى الجزيرة العربية ، فليس ثمة تعدادات ، ولكن دلائل « النمو الانفجارى » لاتنقصنا . فنى السعودية تقدر الأمم المتحدة عدد السكان فى ١٩٤٧ — أى على عتبة التنمية البترولية الحقيقية — بنحو ٦ مليون نسمة ، وفى ١٩٥٢ قدرتهم بنحو ٧ مليون أى بزيادة نحو ١٧٪ [٢] فى نصف عقد أو بمعدل ٣٪ سنويا تقريبا وهو معدل مرتفع بوضوح . أما فى الكويت فقد قدر السكان حتى قبل بدء البترول بنحو ١٥٠ ألفا ، وكانت أقل من ذلك بكثير من قبل (٥٠ الف وأقل) . ثم مع تدفق الهجرة العربية والأجنبية ومع طفرة الموارد الاقتصادية انقلب التوقف إلى نمو سريع . فنى ١٩٥٧ أظهر أول تعداد أخذ مجموعا قدره ٢٠٠ الف [٣] ، وفى ١٩٦١ جاء التعداد بمجموع

---

(1) R I I A, The Middle East, P 534

(2) Id P 536

(3) Ibid P 122

قدره ٣٢١,٥٠٠ نسمة أو نحو ثلث مليون نسمة ، أى أن السكان زادوا نحو ١٢٠ ألفا أو ٦٠٪ فى ٤ — ٥ سنوات بمعدل ١٢٪ سنويا ، وهو معدل لا يمكن أن يتحقق إلا بالهجرة أولا وأخيرا . أما فى قطر فقدر مجموع السكان بنحو ٢٠ ألفا فى ١٩٥٢ ثم ارتفع الرقم إلى ١٥ ألفا[1] ، وهو يقدر اليوم — ١٩٦٤ — بنحو ٨٠ ألفا . وقد أعلنت الأمم المتحدة أخيرا أن المعدل السنوى لنمو السكان فى الكويت ١١٫٣ ٪ ، وفى قطر ٨٫٣٪ ، بينما هو يبلغ فى العالم ككل ٢٫١٪ فقط . وفى البحرين قدر عدد السكان فى ١٩٥٢ بنحو ١١٢ ألفا ، وفى ١٩٥٥ بنحو ١٢٠ ألفا ، وفى ١٩٦٠ قدروا بنحو ١٤٠ ألفا[2] .

من الواضح أن معدل النمو اشتد بدرجات متفاوتة فى مناطق البترول فى الفترة الأخيرة التى تتفق مع تاريخ البترول . ولقد كانت الزيادة فى العراق الزراعى طبيعية ، بينما جمعت بين الزيادة الطبيعية والهجرة فى وحدات الخليج الصحراوية . وربما كانت أكبر زيادة مطلقة هى ماحدث فى العراق ، ولكن أكبر زيادة نسبية هى ماحدث فى وحدات الخليج ، لا سيما فى الكويت . ولكن هل يمكن أن نصف هذا النمو بأنه « ثورة ديموغرافية » ؟ من المؤكد أن البترول كثروة ضخمة فجائية خلق حالة من تفريط السكان Under - pop. بالقوة ، بمعنى أن إمكانيات التشبع السكانى أصبحت فجأة أعلى بكثير من حجم السكان القائم بالفعل . ولهذا طفرت السكان بالفعل Actual لتلحق بالسكان بالقوة Potential . ومع ذلك

---

(1) Id P 131

عزة النص • أحوال السكان فى العالم العربى . القاهرة ١٩٥٥ • ص ٣٥ .

(٢) النص نفس المسكان ؛ لونجريج ص ٣٦٧ .

فإن المجموع العام للزيادة محدود عامة ، وقد يمكن نسبياً أن نتكلم عن ثورة ديموغرافية فى الكويت وإلى حد ما فى العراق .

ولكن من المؤكد أنه إذا كان ثمة ثورة ، فهى ثورة منقوصة . بمعنى أنها أقل بكثير مما كان يمكن أن يحدث لولا نمط توزيع الدخل البترولى . وفى جغرافية السكان أن للإقطاع أينما كان أثرا عكسيا على كثافة السكان والنمو ، فتركيز موارد الثروة فى يد أقلية يمنع عن السكان وسيلة الغذاء الذى كان حرياً بأن يمكن لمزيد من تكاثرهم ، أى أن « الحياة الجيدة » للأقلية تحرم الأغلبية قدرا من « الحياة الجديدة » ، وأن الإقطاع « يعقم » السكان فى معنى . ولهذا فإن العلاقة بين نمو السكان والبترول هنا ليست فقط مع متوسط الدخل القومى ولكن أيضا مع نمط التوزيع الحقيقى لهذا الدخل . ولعل هذا يفسر لماذا كانت الدفعة السكانية أقوى فى الكويت منها نسبيا فى السعودية .

ولا شك أن الضابط النهائى خلف هذا النمو هو البترول . فهو هنا يمثل حلقة الوصل فى العلاقة التقليدية بين السكان والغذاء ويناظر دوره كضابط لنمو السكان دور الماء فى دول الرى والزراعة . فباستثناء العراق والجزائر ، لا تنتج دول البترول الصحراوية إلا نسبة ضئيلة للغاية من الغذاء والملبس وغيرها من ضروريات الحياة ، ولكن بالبترول تشترى كل القاعدة الحيوية والعمرانية من الخارج ، وبالبترول تتحدد هذه الطاقة الشرائية . مثلا فى السعودية ثلث الوارد غذائيات ، والثلث وسائل مواصلات ، والثلث ملابس ومواد بناء(١) بينما لا تكاد تكون الكويت إلا « معمل تجميع » ضخم لجميع عناصر الحياة البشرية من غذاء وملبس ومسكن بل وماء ..ألخ .

---

(١) داود صليبا ، مصطفى الحاج ابراهيم . العالم العربى . دمشق ١٩٥٨ . ص ٢٥٠ .

أى أن قاعدة السكان ، القاعدة الايكيومينية ، مصنوعة صنعا مما يفسر ارتفاع تكاليف المعيشه — خاصة الأغذية — ارتفاعاً تضخميا خطيرا يجعل الغلاء قانون دول البترول . وتلك نقطة الضعف الكبرى المتأصلة فى هذا البناء العمرانى الطارىء .

فبعكس الماء : البترول كما رأينا ثروة طارئة ورأسمال يخضع لقانون النفاد . فإذا كان قد خلق - وسيخلق - جسما سكانيا جديدا كاملا ، وخلق حاجات جديدة ومستوى معيشة جديدا ، فإن هذا البناء البشرى سيجد الأرض تستلب من تحت أقدامه إلى آجلا أو عاجلا ، وسيجد نفسه بلا قاعدة إيكيومينية وزائدا عن الحاجة بصورة آلية بعد أن يكون قد وصل إلى نقطة لا يستطيع فيها ارجوع إلى الوراء - حتى من حيث مستوى المعيشة . ولما كان من المقدر أن عمر البترول لا يتجاوز جيلين أن ثلاثة على الأكثر فى أغنى مناطقه ، فإن السكان ستكون قد ضاعفت نفسها مرتين أو ثلاثا حين تبدأ مرحلة عنق الزجاجة بل الزقاق المغلق إقتصاديا(١) .

وهكذا إذا كان البترول قد أطلق الآن فجأة حالة من تفريط السكان Underpopulation فإن نضوبه المحتوم سيترك السكان فجأة فى الحالة المضادة وهى إفراط السكان .overpop حيث يصبح الجسم السكانى أضخم وأثقل بكثير مما يمكن للقاعدة الاقتصادية المنكمشة أن تحمل . وهنا نجد أن الماء يعود مرة ثانية فيثبت نفسه العامل المحدد limiting factor الأخير فى تحجيم السكان ويثبت نفسه أقوى من البترول فى النهاية كضابط للحياة البشرية أما كيف يكون الحل فهذا أدخل فى باب التخطيط البشرى العام للعالم العربى برمته .

---

(١) Doreen Warriner, Land & Poverty in the Middle East, Lond. 1948, P. 138'

التوزيع

انتظم البترول قدرا من إعادة توزيع السكان فى العالم العربى وذلك عن طريق النمو المتفاوت differential growth من ناحيـة ، وحركات الهجرة من ناحية أخرى . . ولـكن هذه العملية ثانوية بالطبع ولا تصل تماما إلى جذور الغطاء البشرى أو تعدل خطوطه الـكبرى . وإذا كان قـد اتفق أن البترول فى أغلبه صحراوى فى العالم العربى ، فالأغرب أنه تركز فى أشد قطاعات الصحراء فقرا وقسوة . هذا واضح فى نطاق الخليج الذى كان يمثل - سكانيا - أضعف قطاع فى الحلقة السعيدة من العالم العربى . وحتى فى العراق حيث لا هو صحراوى ولا من اللامعمور ، نجده يتوطن فى أكثر الجهات تخلخلا سكانيا . وأما فى مصر والجزائر فهو يقع خارج المعمور تماما . فى الأولى ينفصل عن جسم الوادى وإن تماسا شكليا فى نقطة ، وفى الثانية يتطوح كلية عن الجزائر المعمورة « Algerie utile » . هذا بينما فى ليبيا اختار البترول قطاع الانقطاع الوحيد فى محور الساحل لـكى يظهر فيه - منطقة خليج سدرة !

ولئن كانت مكاسب البترول لا تتوزع محليا بصرامة وبالضرورة ، إلا أن هذا كان كافيا لأن يقلب القواعد الجغرافية المألوفه للسكان . فقد تحولت مناطق كانت تقليديا مناطق طرد بشرى إلى مناطق جذب كأقطاب المغناطيس ، وتحولت مناطق تخلخل مزمن إلى تـكاثف محسوس أو نسبى . فالجزيرة العربية التى كانت تاريخياً « ضد إعصار » بشرى ينبض بالموجات الخارجة يلفظ بها إلى الهلال الخصيب حتى قيل إن الصحراء « ولودة » ، أصبحت هذه الجزيرة منذ البترول مصبا للهجرات الداخلة الآتية من الشام ومصر ، بل

ومن السودان والصومال ـ هذا عدا إيران والهند من الجانب الآخر . ومن المحقق أن البترول قد زاد من حركة العرب mobility سوء بالهجرة المؤقتة أو شبه الدائمة . وقد اتفق أن ظهور البترول تعاصر مع «الخروج» التشتت» الفلسطيني Diaspora مع قيام اسرائيل مما جعل أقوى تيارات الهجرة الجديدة هو ذلك الذى يأتى من الشمال الغربى من مصر والشام إلى الجنوب الشرقى حول الخليج .

ولعل أبرز التعديلات الثانوية فى نمط الغطاء البشرى هى ما أصابت الجزيرة العربية . ففى السعودية لا شك قد حدث تكثيف بشرى فى الحجاز « النواة النووية » للسكان تاريخيا وجغرافيا . اقتصاديا وعمرانيا ، ولكن برزت على الجانب الآخر من خاصرة الجزيرة العربية نوية ـ أم هى الآن نواة ؟ — جديدة فى الحسا مهد البترول . وبين القطبين تبلور المحور بزيادة التكاثف فى نجد حيث ينصب نهائيا معظم دخل البترول . وسيلاحظ أن هذا النمط الجديد قد منح الرياض كعاصمة مركزية Cenrality كانت تفتقدها تماما حين كانت تقع خارج إكيومين الدولة التقليدى ، مما قلل من اصطناعيتها.

وبهذا كله يأخذ هيكل السكان فى السعودية فى نمطه شكل حرف T ماثلا : فعلى المحور القديم الذى يمتد بطول الساحل والمرتفعات الغربية ، يتعامد محور جديد بعرض الجزيرة مترامياً عبر خاصرتها . أما خارج السعودية فقد أكمل البترول — أو يوشك — الحلقة المفقودة فى نطاق السكان الساحلى حول الخليج ، فترامى جسر من الكثافة المتقطعة يصل بين كتلة السكان فى عمان من ناحية والعراق من الناحية الأخرى .

وفى العراق لم تحدث حركات سكانية مدية بمعنى الكلمة ، فكل

ما حدث أن مراكز البترول جذبت إليها دوامات محلية من السكان حولها . فهذه عملية استقطاب موضعى عرفتها ألوية كركوك والموصل ، أكثر منها انتقالات من الجنوب إلى الشمال . وفى مصر سلخ البترول شظية دقيقة من كتلة المعمور فى الوادى لتساحل خليج السويس بشاطئيه وتنقط شريطا من ساحل البحر الأحمر . ولا تزيد هذه الشظية حجما عن ٢٠ ألف نسمة تقريباً ، كثير منهم لا يمثلون إقامة دائمة بل وحدات متجددة باستمرار يأتون عمالا من الصعيد والجنوب الأقصى لا سيما قنا[١] . ولعل مما يفسر هذا المصدر طرد سكانى مزمن وتقليد حرفى فى المصدر ، وقرب جغرافى وتشابه مناخى فى المورد .

أما فى ليبيا فينتظر أن تتكون بؤرة سكانية بكر حول خليج سدرة تستمد أشعتها من كل من برقة وطرابلس وتسد بذلك الثغرة السكانية فى نطاق الساحل ، كما فعلت الحسا فى المشرق الأقصى . ولكن الوضع فى الجزائر سيكون أقرب إلى الصورة المصرية : فبينما يعمل البترول على استقطاب العناصر الرعوية والواحية المحيطة فى مراكزه ، قد يجتذب تياراً خفيفاً من الهجرة من المعمور فى الشمال .

التركيب

يمتاز مجتمع البترول العربى ببعض سمات وقسمات دالة معظمها مستمد من عامل الهجرة ، لعل أبرزها عدم التجانس . والأصل فى المناطق الفقيرة الطاردة أنها معاقل النقاوة والتجانس قومياً وجنسياً ، بينما المناطق الغنية

---

(1) Longrigg p 260

الجذابة تتدفق عليها الموجات من كل لون فتتحول إلى متحف بشرى متنافر(١). والصحراء العربية بهذا ظلت الموطن التاريخى للسامى النقى ، ولكنها الآن وقد أصبحت نطاق جذب قد بدأت تدخلها — على الأقل على أطرافها — عناصر دخيلة . من المحقق أن هذا بدأ قبل البترول كسياسة استعمارية موضوعة « لتخريب » عروبة مناطق بعينها ' ولكن من المؤكد أيضاً أن البترول قد أكد من هذا الاتجاه .

والأرقام التى لدينا فى هذا الصدد قليلة ولكنها دالة . فى الكويت ومنذ عدة سنوات كان عدد الأجانب نحو ٣٩ ألفاً من الإيرانيين والهنود والباكستانيين ، أى نحو ⅛ السكان . بينما كان فى البحرين ١٢ ألفاً من الايرانيين(٢)، أى نحو ١/١٠ السكان . وفى قطر يقدر أن الأجانب — بما فيهم العرب الوافدون — ٥ آلاف من المجموع الكلى ٢٥ ألف ، أى بنسبة الخمس(٣). وفى كركوك يكثر تعدد الأقليات لأن المنطقة بطبعها منطقة اختلاط ، فنجد كثيراً من التركمان والأكراد جذبتهم مدن البترول(٤). وتمثل الكويت اليوم حالة فريدة أو شاذة ، فلضآلتها أصلا وشدة تدفق الهجرة عليها أصبح غير الكويتيين فيها ضعف الكويتيين أو يزيد ، أى أصبح أصحاب البلاد أقلية بشكل خطير (٢٠٠ ألف ضد ١٠٠ ألف تقريباً). وتكاد الصورة فى قطر تكرر ما فى الكويت ، إذ يقدر ان عدد الأجانب الآن يعادل تقريباً عدد القطريين الأصليين .

---

(1) Fisher, pp. 78 et seq,

(٢) عزة النص . ص ٣٣ .

(3) R.I.I.A., p. 138

(4) Longigg, p. 72

والواقع أن البترول قد جذب إلى مناطقه نوعين من العناصر : عناصر عربية وافدة ، وعناصر أجنبية دخيلة . هكذا نجد مجتمع البترول حول الخليج يشمل — عدا الأهـــالى الوطنيين — أقليات كبيرة من اللبنانيين والفلسطينيين والمصريين وأحيانا من الجنوب العربى والسودان وكذلك من الصومال . وأغلب هذه العناصر العربية يعمل فى الخدمات الفنية والثقافية أو فى قطاع التجارة . ثم هناك بضعة آلاف من الأمريكيين والإنجليز والأوربيين الذين يعملون مباشرة فى البترول ، وثم أقليات من الهنود والباكستانيين يسيطرون عادة على الأعمال الكتابية فى الشركات بدعوى عدم كفاية أو كفاءة الأهالى لها . ولكن العنصر الأكبر هو من الإيرانيين . ولهذا التنافر الشديد تصبح كل مدينة من هذه المدن كبابل مصغرة بما تحوى من لغات وقوميات(١) .

ولا يمكن أن ننظر إلى العناصر العربية الوافدة إلا كظاهرة صحية مفيدة ، فيها « قدم » البترول - أو بالأحرى يعيد تقديم - العرب إلى بعضهم البعض . فهنا يؤدى البترول إلى خلط صحى للعرب . ولكنه بالعناصر الدخيلة يهدد بتخليط خطر للعروبة . والواقع أن هذه العناصر ليست هنا إلا طفيليات الاستعمار الاقتصادى التى تناظر طفيليات الاستعمار السياسى فى مناطق أخرى من العالم مثل شرق إفريقيا ...

سمة ثانية فى تركيب السكان فى مناطق البترول الجديدة هى سيادة الذكورة والشباب . فأغلب العناصر المهاجرة لا تمثل أسراً بل أفراداً ، لأن هدفها ليس الإقامة الدائمة بل العابرة وهى لهذا هجرات ذكرية فى الصف الأول ، قوامها الشباب فى المحل الثانى أى تسودها فئات السن المتوسطة لا الهامشية .

---

(1) Id., p. 211.

فكل مدن التعدين ، مدن البترول هى « مدن الشباب » . وهى لكل هذا خلايا متجددة باستمرار . ولئن كان هذا يساعد أحياناً على الزواج المختلط بين الأهالى والمهاجرين ، إلا أنه فى الأعم الأغلب لا يترك للدخيل جذورا فى الأصيل . وتلك بعامة خصائص الهجرة الاقتصادية كما تتميز عن الهجرة السكنية .

وهناك بعض إحصاءات تسعفنا فى هذا المجال . ففى تعداد الكويت ١٩٦١ بلغ عدد الذكور ٢٠٠٫٧٠٠ مقابل ١٢٠٫٦٠٠ للاناث أى بنسبة ١٠٠ : ٦٠ ، مما يعنى ميزانا جنسياً مختلا جداً لامفر من أن يكون له نتائجه الأخلاقية والاجتماعية . وفى مدينة كالأحمدى مثلا يبلغ عدد الذكور ٥٢٠٠ نسمة من مجموع السكان البالغ ٨٣٠٠ .

المـــدن[1]

لعب البترول فى تشكيل اللاندسكيب الحضارى فى مناطق العالم العربى الصحراوية دورا يناظر دور الماء فى مناطقه الزراعية . فهو حيث يتفجر يخلق نقط السكنى والاستقرار ويبذر مدن التعدين ، وحيث يجرى تمتد خطوط الحركة والنقل ويبث على طولها الحياة . وتأخذ كل هذه الأشكال العمرانية نمطاً مدنياً أساساً ، بينما لا تكاد الزراعة وما لها من ثوابت حضارية تبين فى اللاندسكيب ، بل إن تتابع السكنى Sequent occupance هنا يمثل طفرة تقفز من النقيض إلى النقيض ، وترمز ببلاغة إلى عملية

(١) راجع فى هذا الموضوع : جمال حمدان . المدينة العربية . معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ١٩٦٤ (مدن البترول) .

الاختزال الحضارى العنيف الذى أحدثه البترول : من مضارب الخيام وحلات البوص والطين إلى أرقى وأحدث مدن البترول والتعدين ـ دون أن تعرف قرى الزراعة بمعنى الكلمة .

أى أن بيئة المدن هنا تظهر بلا أو قبل الريف ، وقد يظهر الريف بعد المدن حيث يبدأ استصلاح وزراعة بعض رقع مجاورة لتغذية المدينة . ومثل هذا الترتيب العمرانى المعكوس معروف فى كل مناطق الريادة والتعدين والكشف الجديد(١) . بمعنى آخر إنه طفح مدنى لا عضوى ذلك الذى يمجه البترول على حافة الصحراء : ولهذا فإذا لوحظ ارتفاع نسبة المدنية ارتفاعا هائلا فى هذه المناطق فإن هذا شذوذ مفهوم لا يفسره إلا البترول . والواقع أن من أهم الحقائق البشرية التى يجب أن ندركها جيداً أن الثورة العمرانية التى حركها البترول فى العالم العربى كانت ثورة مدنية أولا ثم ثورة سكانية فى المحل الثانى . فالطفرة المثيرة لم تكن نمو السكان العام ولكن نمو المدن .

وإذا ذكرنا ما رأيناه من قبل من أن إمكانيات استثمار البترول فى الصحراء ترقد فى الصناعة أكثر منها فى الزراعة ، تأكد لدينا مرة ثانية الصفة الخاصة للنتائج البشرية للبترول الصحراوى . وإذا كنا قد رأينا أن أهم مظاهر النشاط البترولى لم تكن إنتاجية بل استهلاكية ، فيمكننا هنا أن نضيف ان أهم صناعة خلقها البترول فى الدول العربية خاصة الصحراوية هى «صناعة» المدن . ودفعة المدن الكاسحة هنا تفسر مشكلة الإسكان المعقدة فى كل مدن البترول وتفسر الغلاء الخطير فيها .

---

(1) M. Le Lannou, La Géog. Humaine, Paris. 1949. 178:
جمال حمدان . جغرافية المدن . القاهرة ١٩٦٠ . ص ٤٧٦ .

هكذا إذن يصبح الأثر الرئيسى للبترول على اللاندسكيب قاصرا على شبكة من الطرق تعد بدورها من « مشتقات » البترول ـ طرق الأسفلت . ومما له مغزاه أن الخطوط الجوية أصبحت تلعب أيضاً دورا هاما فى الربط بين هذه المدن وذلك لشدة تباعدها من ناحية ، بينما من ناحية أخرى لا تعدو المناطق التى بينها أن تكون مجرد فراغ بينى Inter — space . وبينما تنتشر الخطوط الجوية نجد الخطوط الحديدية شذوذا بين مدن البترول . والخط الوحيد الذى اقتحم الصحراء هو خط الظهران ـ الرياض الذى يخترق إقليم الزيت فى السعودية والذى ينتظر أن يعبر شبه الجزيرة إلى جدة .

هذا ومن المفيد لنا فى دراسة مدنية البترول أن نميز أولا بين المدن الجديدة التى خلقها البترول من لا شىء ، وتلك المدن القديمة التى نماها البترول وجدد شبابها .

المدن الجديدة

وهى أكثر حدوثا فى المناطق الصحراوية البحتة التى لم تكن معمورة تقريبا كالحسا فى السعودية وساحل البحر الأحمر فى مصر . ولنبدأ دراستها بتصنيف وظيفى ثم نردفه بالتعرف على تركيبها المورفولوجى .

تصنيف وظيفى

يمكننا أن نتعرف بين المدن الجديدة على ثلاثة أنواع وظيفية هى مدن الحقول ، مدن المحطات ، موانى البترول .

مدن الحقول

إلى جانب واحات الماء قد أضاف البترول عددا من واحات الزيت التى تعلوها أبراج البترول Derricks كما تظلل آجام النخيل واحات الماء ، حتى لتبدو كأنها غابات الصحراء الجديدة . وتتحول هذه الواحات البترولية

بالضرورة إلى مدينة ـ مدينة عمال على الأقل تضم المساكن « ومزرعة الصهاريج taenk farm » . ومن الأمثلة مدينة الأحمدى التى أنشئت عام ١٩٤٦ وبلغت فى ١٩٦٠ نحو ٧ آلاف وهى الآن ٨٣٠٠ نسمة ، وتعد المركز الإدارى لشركة الكويت . والمقوع مدينة أخرى من مدن الحقول . وكذلك الدخان فى قطر . وبالمثل عوالى فى البحرين وقد بدأت تتجر ثم منذ ١٩٣٨ .

وفى السعودية نجد أبقيق وعين دار ، بينما نشأت حديثا مدينة جديدة فى منتصف حقل الغوار بين الحوية والعثمانية هى العضيلية لتكون مركزا صناعيا وسكنيا . وثمة النعيرية وثقبة ورحيمة وكلها مدن سكنية صغيرة جديدة بين حقول الحسا . والزبير الجديدة قرب البصرة مدينة من مدن الحقول خلقها البترول أخيرا . وقد تقع مدن الحقول على السواحل مباشرة فتكون أيضا من موانى البترول كما فى الغردقة ورأس غارب وبقية مراكز البترول حول خليج السويس . ومن أحدث مدن الحقول والمساكن الساحلية فى مصر أبو رديس التى تخدم كوكبة بلاعيم فى وسط ساحل سيناء وهى الآن قيد توسع عظيم .

ومن الواضح أن هذه المجموعة تحقق عادة أكبر الأحجام بين المدن الجديدة ، ولكنها تتفاوت بشدة فيما بينها بحسب أهمية الحقل ، ومع ذلك فهى بعامة مدن قزمية شأن أغلب مدن التعدين . ومواقعها تتحدد بمواقع الحقول أى الجيولوجيا ، ولذا فهى من « المواقع المواضع » .

مدن المحطات

وحين يخرج البترول من واحته تؤلف الأنابيب هيدرولوجية الزيت وتناظر الأنهار ولكنها مغطاة . وهى لهذا لا تصبح مجرد خط خامد من

الصلب مدفون فى الرمال بل تبث الحياة على طولها : فالأنبوب يتحرك فتتحرك معه الطريق وخطوط التليفون والتلغراف التى تمد عادة على جانبى الأنبوب . ثم ينقط الأنبوب محطات المضخات التى لا تلبث أن تتحول إلى واحات جديدة فى قلب الصحراء تدق فيها آبار الماء وتتدفق عليها جماعات الرحل وتنشأ فيها مدينة كاملة من مساكن العمال والمكاتب والمكتبات والأبنية وسائر المرافق الضرورية(١) .

وبديهى أن مواقع مدن المحطات يحددها الأنبوب وعامل التباعد المعقول على طوله ، ولذا فهى من مدن المراحل villes étapes بالضرورة(٢) وهى بالطبع لا تحقق أحجاما كبيرة ولا تزيد عن بضع مئات فى الغالب . وتشمل هذه المجموعة سلسلة محطات أنابيب العراق والتابلاين .

موانى البترول

على نهايات الأنابيب لا بد أن تنشأ مدينة ميناء إذا لم تكن قائمة من قبل . وإذا لم يكن هناك خليج طبيعى لزم إعداده اصطناعيا وتعميقه وتطهير مدخله . ثم تتركز أجهزة الشحن والأرصفة ونهايات الأنابيب المائية ومزراع الصهاريج وكذلك المصافى ، ثم تجتذب حولها المرافق الضرورية ومنشآت الخدمات المناسبة . ومن الأمثلة رأس تنورة فى السعودية . وفى الكويت خلق التصدير ميناء مؤقتة فى الفحيحل فى ١٩٤٦ إلى أن أنشئت الميناء الدائمة على نهاية الأنابيب وهى ميناء الأحمدى فى ١٩٤٩ لحلت محل الفحيحل . وأصبحت هى ميناء البترول الرئيسية فى الكويت بل هى

---

(١) لونجريج ص ٧٧

(2) G. Chabot, Les Villes, Paris, 1952, pp. 36 ff.

أعظم موانى تصدير البترول فى العالم . وفى السنين الأخيرة ظهرت ميناء عبد الله فى الكويت أيضاً . كما ظهر فى المحايدة ميناء سعود . وهناك أم سعيد فى قطر ومرسى البريجة ورأس السدرة فى ليبيا . وكلها من موانى نهايات الأنابيب الجديدة تماما . وسنلاحظ أن أحجام هذه الفئة من مدن البترول الجديدة تتفاوت كثيرا فى أهميتها بحسب حجم نشاط التصدير منها .

التركيب المورفولوجى

تلك هى مدن البترول الجديدة . وهى جديدة أيضاً فى تركيبها الداخلى ، فهى بنت البترول نشأة وتركيبا . فنجدها فى الأعم الأغلب من صنع الشركة - « مدن الشركات » - أى تحمل طابع الحضارة المدنية الغربية تماما فى تخطيطها . فتكون هندسية خطتها مستطيلة أو مربعة ، وشوارعها واسعة ، الوحدة السكنية السائدة هى الفيلا . وتتعدد فيها طرز العمارة الحديثة بشكل عالمى يجعلها تتنافر فيما بينها ومع الإطار الإقليمى بصورة صارخة . وهذه المدن العصرية تغذيها الخدمات الشبكية البلدية . وقد تعطيها رقع بساتين الخضروات فيها شكل الجاردن سيتى أو واحات الغرب الأمريكى « à l'americaine »(١)

ولهذا جميعا تبدو أنماطا منقولة مفروضة غريبة على البيئة ، خلقتها الجيولوجيا من أسفل وشكلتها السياسة من أعلى دون أن تكون على علاقة مع الجغرافيا بين الطرفين . إنها أشبه بين المدن على صفحة اللاندسكيب الحضارى « بالصخور الضالة » على صفحة اللاندسكيب الطبيعى . وهنا يلاحظ أن البترول يختلف عن الفحم تماما فيما خلق من مدن . فمدن البترول عامة مدن

(1) Birot & Dresch, p. 428.

جديدة عصرية. أنيقة من أحدث طراز ، بينما مدن الفحم كالحة قبيحة متحجرة . والحقيقة أن هذا الفارق وحده تعبير بليغ عن الفارق التكنولوجى بين حضارتين أو عصرين : المرحلة الباليوتكنية Palaeotechnic والمرحلة النيوتكنية بتعبير باتريك جديس ولويس ممفورد . فالأولى حضارة الفحم والثانية حضارة الكهرباء والبترول(٢) .

وكثيراً ماتحاول الشركة — كما فعلت شركة أرامكو — أن تتجنب إنشاء مدن الشركات لتتفادى مشاكلها ومسؤولياتها الاجتماعية وروح « الأبوة » التى تسيطر عليها والعشش التى لا تلبث أن تنمو حولها وتحولها إلى مدن العشش Bidonvilles, Shanty towns كما حدث فى عبدان مثلا . ولذلك فهى تشجع عمالها على أن يقيموا مساكنهم لأنفسم أو على إنشاء قرى توابع جديدة مثل النعيرية وعين دار وثقبة ورحيمة وأبقيق ، أو إنشاء أحياء جديدة فى المدن القائمة مثل الخوبر والمشعاب والدمام . ولكن هذا ليس القاعدة السائدة .

ونظراً لاتساع هذه المدن الجديدة بالنسبة لعدد سكانها ، فقد ظهرت السيارة والدراجة كعنصر أساسى فى مواصلاتها الداخلية والخارجية . فكما ورثت أفخم طرز العمارة والفيلا أحقر أنواع الكوخ والخيمة ، ورثت أفخر السيارات والشوارع الجمال والدروب الصحراوية . بل نلاحظ أن وسائل المواصلات تطفر بأسرع من الطرق الصالحة لها حتى تطفح بها هذه الأخيرة بصورة خطيرة . كما يلاحظ أن وسائل المواصلات هنا تعنى دائماً الوسائل الخاصة أما العامة فمنعدمة أو تكاد . . .

---

(1) Cities in Evojution, Lond, 1915; Culture of Cities, Lond., 1946, pp. 395 ff.

أما من حيث الحجم فالواقع أن كل مدن البترول الجديدة فى العالم العربى قزمية الحجم جداً إذا ما قورنت بالمدن التى خلقها الفحم مثلا فى غرب أوربا . فإذا كان الكيف كما رأينا من نصيب مدن البترول فإن الكم يظل نصيب مدن الفحم . والحقيقة أن البترول بعكس الفحم تماماً لا يخلق مدنا ضخمة . فالفارق تكنيكياً بين تعدين الفحم والبترول هو أن دور الإنسان فى الأول « كالقوارض » بينما دوره فى الثانى « كالماصة » ، ولذا فالأول يحتاج إلى قوة عاملة ضخمة لا إلى رأس مال كبير لتعدينه ، بينما يأتى رأس المال فى المحل الأول فى البترول ويتضاءل دور العمل كثيرا[1]. ثم إن صعوبة نقل الفحم الصلب تكاد تلزم بالصناعة محلياً in situ ، بينما البترول السائل ينتقل بعيداً ورخيصاً كالكهرباء بحيث يمكن للتبعثر . ولهذا فإن هذه المدن البترولية هى مدن تعدين لا مدن صناعة . وأخيراً يمكننا فى النهاية أن نضيف أن مصير هذه المدن رهن بمستقبل خزان الزيت الذى تقوم فوقه . ولهذا لا يمكن أن ينتظر لها عمر طويل أو مستقر ، ومن قبل قد أصبحت جمسة مدينة ميته من « المدن الأشباح Ghost towns » .

المدن القديمة

قلنا إن أثر البترول لا يقتصر على خلق المدن الجديدة ، بل يمتد إلى المدن القديمة بالتطوير والتنمية . فكثير من مدن البترول الحالية بدأ من نواة سابقة للبترول ، ثم تضخمت بعده ـ أحيانا بدرجة قد تطمس معالم النواة حتى لا تكاد تبين فى الامتداد الجديد . ولذا يتعين علينا أن نتتبع آثار البترول على هذه الفئة نموا أو توسعا أو تغييرا . وفى هذا ينبغى أن نميز فى هذه المجموعة بين المدن البترولية والمدن غير البترولية .

---

(١) محمد لبيب شقير . التنظيم الاحتكارى للسوق العالميه للبترول . القاهرة ١٩٦١ ص ١٥ .

المدن البترولية

هذه المدن كانت قائمة من قبل ثم اتفق أن تفجرت الآبار قربها ولذلك انصرفت إلى شؤون البترول وأصبحت اقتصادياتها خاضعة له تماما . وهى تقع غالبا قرب الحقول وليس عليها تماما ، كما أن بعضا منها موان ساحلية . ولا يلبث اقتصاد البترول أن يقفز بالمدينة نموا حتى تحقق أحجاما تعد أعلى مما تعرفه مدن البترول الجديدة الخالصة وحتى يطغى النمو الحديث فى لاند سكيب المدينة على النواة القديمة بدرجة أو بأخرى . ومن الأمثلة الداخلية كركوك التى أخذت تنمو حتى وصلت إلى ٨٥ الفا فى ١٩٤٧ ولم تكن تكفى إسكان كل العمال فتوسعت وظهرت قربها مدينة كركوك الجديدة ومستعمرات سكنية أخرى على الزاب الأصغر [١] . وقد تعدت كركوك الآن المائة الف (١٢٠ الفا) وأصبحت رابعة مدن العراق حجما . كذلك تحولت عين زالة القديمة الصغيرة إلى مدينة بترول نامية . وفى البصرة أصبح مستودع ومخزن ماكينا مركزاً عامراً بالسكان وتحول إلى ضاحية زيتية للبصرة .

ولعل مدن البترول القديمة الساحلية أكثر حدوثا وأكبر أحجاما من الداخلية . وأبرز الحالات مدينة الكويت العاصمة التى تتجمع فيها كل مكاسب البترول فى النهاية والتى نمت من أقل من ٤٠ الفا فى ١٩٤٠ [٢] إلى ٨٠ الفا فى حوالى ١٩٥٠ إلى ٢٢٠ ألفا حاليا.[٣] ومعنى هذا أنها ضاعفت نفسها فى ٢٠ عاما نحو ٦ أو ٧ مرات ، وهو معدل لامثيل له بالتأكيد بين

---

(١) لونجريج ص ١٧٨

(2) L. Dubertret & J. Weulersse, Manuel de Géog., Syrie, Liban & Proche Orient, Beyrouth. 1940., p 147.

(3) Beaujeu—Garnier. op. cit.. p. 95.

كل العواصم العربية (بما فى ذلك عمان التى نمت من مدينة حفرية آسنة إلى عاصمة ضخمة خاصة بعد قيام إسرائيل) . هكذا لتصبح الكويت نحو ½ مليون حاليا أو نحو ⅔ سكان الدولة كلها. وقدأصبحت الكويت بذلك كبرى مدن الجزيرة العربية برمتها وأكبر ميناء تطل على الخليج العربى . كل هذا رغم أنها عاصمة لوحدة سياسية من أصغر ما فى الجزيرة مساحة وسكانا . وهى بهذا الوضع الشاذ تذكر ببيروت فى لبنان حيث تعدأ كبر مدن وعواصم الشام رغم أنها أصغر وحداته مساحة وسكانا . ومن أسباب تكدس السكان فى العاصمة صغر مساحة الدولة ككل وشدة انتشار السيارات الخاصة من ناحية وصعوبة تعدد المراكز المدنية الكفء فى البيئة الصحراوية الفقيرة .

ولهذا جميعا تبدو هذه المدينة وأمثالها قائمة فى فراغ سكانى كالمدن « المسلات » لا كالمدن « الأهرام » التى تتدرج من فرشة matrix سكانية كثيفة . والواقع أن سيادة مدينة طاغية فى أى وحدة سياسية هو من خصائص الدول المتخلفة ويجعل من الكويت رأسا بلا جسم فى الحقيقة . بل إن لهذه الظاهرة مغزى يجب ألا يغيب عن البال ، وهو أن معظم وحدات البترول الصغيرة المساحة هنا هى الآن ترجمة حديثة معاصرة ونسخ عصرية لدول المدن City States التى عرفتها هذه المناطق وغيرها فى التاريخ القديم . فدولة الكويت مثلا ليست إلا مدينة الكويت . وهذا يصدق بدرجة أقل على قطر والبحرين .

وفى السعودية فى الحسا عدد من المدن القديمة التى جدد شبابها البترول كالقطيف والدمام والهفوف والخوبر والمشعاب. وقد نمت جميعا نموا متفاوتا بمستعمرات العمال ، وأصبحت الهفوف بالذات واحة انتاج زراعى ونخيل كبرى فى هذه المنطقة القفر وأصبحت ٧٥ الفا ، ولعلها بذلك تكون كبرى

مدن الحسا(١) . وفى البحرين تجمعت مكاسب البترول فى العاصمة المنامة حتى نمت من بضعة آلاف إلى ٤٠ الفا أخيرا إلى ٨ر٦١ فى ١٩٥٩ أى ٧ر٤٣٪ من سكان البحرين(٢) . وقد ساعد على تركيز النمو فيها أن عمال البترول يفضلون الإقامة فيها مع الرحلة إلى العمل على الإقامة على الحقول .

أما فى قطر فلم تكن الدوحة إلا « عاصمة قرية » ، ولكن البترول غير جلدها بل وجسمها إلى عاصمة حديثة نامية فقد تجددت المدينة من الداخل وتوسعت من الخارج خاصة فى ضاحيتيها الريان الجديد والريان القديم . ومرة أخرى تشبه قطر الكويت من حيث أن عاصمتها الدوحة تبتلع الأغلبية العظمى من سكان « الدولة » - نحو ٦٤ ألفا من ٨٠ ألفا أى بنسبة ٨٠ ٪ . فهنا دولة أخرى من « دول المدن » لاشك فيها . ويمكن أن نضيف إلى هذه الطبقة من مدن البترول القديمة السويس التى أصبحت عاصمة الزيت فى مصر ، والتى خلق فيها الزيت ضاحية زيتية كاملة هى الزيتية . والفاو على رأس شط العرب تحولت من قرية نخل النخيل إلى ميناء أمامية للبترول .

وتختلف المدن القديمة عن المدن الجديدة الخالصة من حيث مورفولوجيتها . ففيها يأخذ تركيب المدينة الداخلى نمطا ثنائيا يلخص الاحتكاك الحضارى ويجعل المدينة مخلوقا خلاسيا pseudomorph يجمع بين القديم والجديد ، الأصيل والدخيل ، اللاتخطيط والتخطيط . وقد يتجاور القطاع الجديد مع القديم دون أن يعدله كثيرا ، ولكن قد يمتد القطاع الجديد على حساب القديم فيهدم ويعاد تخطيطه وبناؤه . وهنا لامفر من أن ترتفع قيم الأرض ارتفاع المضاربات ، ففى الكويت هدم السور القديم الذى بنى للحماية وتوسعت

(1) R,I.I.A.. p, 74

(2) Id.. p. 131 ; Statesman's Year—Book. 1961.

المدينة خارجه كما أعيد تخطيط النواة القديمة . والدوحة هدمت أجزاء كثيرة منها وأعيد بناؤها وتوسيعها حتى أصبحت كالجديدة تقريبا .

المدن غير البترولية

هذه لا يمثل البترول مبرر وجودها أو أصل نشأتها لكنها تأثرت عمرانيا بالبترول مثل عواصم وقواعد دول البترول التى ينصب فيها نهائيا أكبر قسط من دخل البترول فتنتعش وتتمدد عمرانيا . وفى مقدمة الأمثلة تأتى الرياض التى بدأت عاصمة سياسية اصطناعية متواضعة لم تتعد حتى ١٩٤٠ نحو ٢٠ ألفا يغلفها حائط طينى(١) ، فتحولت بدخل البترول إلى مدينة قصور ، مدينة بلاط Court city ، Residenzstadt بكل معنى الكلمة كما لو كانت فرساى السعودية أو بوتسدام الجزيرة ، وتعيد إلى الأذهان مدن الباروك الأوتوقراطية . ويكفى أن مدينة القصور فى الرياض تعد مدينة كاملة خارج المدينة : الناصرية التى تمتد عدة أميال بلا انقطاع .

كذلك شاركت مكة وجدة ومدن الحجاز الكبرى بدرجات متفاوتة فى الانتعاش العمرانى الذى أطلقه البترول من أقصى الساحل المقابل . وقد ارتفع حجم الرياض من ٨٠ ألفا إلى ١٥٠ ألفا فى السنوات الأخيرة ، كما ارتفعت مكة من ١٢٠ الفا إلى ١٥٠ الفا وبلغت جدة ١٢٠ الفا(٢) . وسيلاحظ أن البترول جعل الرياض المدينة الأولى فى السعودية ، وكانت من قبل من الحالات الشاذة النادرة فى العالم العربى التى لم تكن فيها العاصمة هى المدينة الأولى فى الدولة .

---

(1) Dubertret & Weulersse. p. 143,

(1) R.I.I.A..pp. 74. Oxford Atlas. the Gazetteer.

وفى العراق زادت اقتصاديات البترول من سرعة الخروج الريفى والهجرة إلى المدن الكبرى ، فنالت بغداد الحظ الأكبر من النمو ، كما أصاب المدن الكبرى البصرة والموصل حظ آخر ، كما توضح الأرقام الآتية (١).

	١٩٣٠	١٩٤٧	١٩٥٧
بغداد	٢١٥,٠٠٠	٥٥٣,٠٠٠	٧٨٥,٠٠٠
البصرة	٤٦,٠٠٠	٢٠٦,٠٠٠	١٦٥,٠٠٠
الموصل	٧٩,٠٠٠	٣٤٠,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠

وفى ليبيا بدأت عاصمتاها تعرفان أثر البترول(٢) . فكل النشاط الإدارى والمالى للشركات مركز فيهما ، ومن حوله كل أنوع النشاطات التابعة من خدمات وتجارة وتموين . . . اخ فتقاطرت الهجرة من الريف والصحراء إليهما . فأخذت المدينتان تتوسعان فى داخل حى « المدينة » القديم بالهدم وإعادة بناء العمارات الضخمة الحديثة ، وفى خارجها إما بضواحى الفيللا الباهظة العصرية وإما بمدن العشش المترامية ومدن الإسكان الاقتصادى . وفى كل الحالات أصبحت مضاربات الأراضى ومغالاة الإيجارات علما — فمن ضواحى الجاردن سيتى برزت جورجيمبوبولى Giorgimpopoli إلى الغرب من طرابلس والفويحات إلى الجنوب الشرقى من بنغازى . ومن مدن العشش ثمة باب عكارة Bab Accara فى طرابلس وقد أغرقها الفيضان فى ١٩٥٧ ، والصبرى فى بنغازى حيث تنساح على الكثبان الرملية شمال المدينة . أما عن أرقام السكان فقد كانت طرابلس أسرع نموا

---

(١) العبوسى ص ٢١٠ ، الحلف ص ٤١٥

(2) Clark-. « Oil in Libya », pp. 53—4,

من بنغازى أولا ، ولكن مع ظهور البترول فى شرق ليبيا أصبحت بنغازى الآن أسرع معدلا . وهذه حركة النمو فى كل من المدينتين .

	١٩٥٤	١٩٦٢
طرابلس	١٣٠ر٠٠٠	١٩١ر٠٠٠
بنغازى	٧٠ر٠٠٠	١٢٠ر٠٠٠

وفى خارج دول البترول نجد موانى نهايات الأنابيب وموانى التكرير قد أفادت فى نموها من النشاط البترولى . مثلا منطقة المينا فى طرابلس ومستعمرة الزيت حول خليج عكا وما ارتبط بها من مصانع ومخازن وخزانات فى حيفا ، وكضاحية عدن الصغرى التى أضافتها مستعمرة المصفى إلى عدن .

خلاصة

تقييم الثورة البترولية إجتماعياً

وبعد ، هى محصلة آثار البترول الجادة على المجتمع العربى ؟ لقد خلق البترول رواجاً مادياً لا شك فيه فى بلاده ، ولكن دائرة انتشار هذا الرواج ضيقة جداً وجزئية جداً . ثم هو رواج مزيف ورخاء مصطنع لأنه يقوم على أساس خطر هو تحويل ثروة رأسمالية غير منظورة إلى مجرد سلعة استهلاكية بحته غير إنتاجية . وبدل أن يثمر وينمى مواردالاقتصاد القاعدى تحول إلى الكماليات والبذخ ، إلى الإنفاق المظهرى . ولازال البترول العربى اقتصاد خامات تصديرية لا يصنع منه محلياً إلا نسبة قليلة ولا يستهلك منه إلا نسبة أقل . فهو إذن لم يدفع بدورة دموية نشطة فى جسم الاقتصاد العربى تجدد خلاياه وتعيد بناءه حتى النخاع ،لا ولا هو يتكامل أو يتفاعل

جدياً مع بقية عناصر الاقتصاد القومى . إنه فقط يمثل صورة صارخة من الاقتصادالهدمى الانتهازى Raubwirtschaft ، شعاره «akim the cream» إن اقتصاديات البترول كما هى الآن اقتصاديات شيطانية mushroom econs تنذر إذا دامت أن تتحول إلى اقتصاديات الأشباح ghost econs .

وأما قصارى بصمات أصابع البترول على اللاندسكيب العربى فلا تزيد عن أنه خلق بضع واحات جديدة هنا وهناك فى الصحراء إلى جانب الواحات الزراعية القديمة . وقد نضيف إلى هذا بضع رقع من الأرض للزراعة ، وبعض طرق ومواصلات محدودة ، وعدة آلاف من الرحل ثبتهم هنا وهناك وحولهم من الرعى إلى الزراعة أو التعدين . ولا يبقى فى القائمة بعد هذا إلا زيادة محدودة فى عدد السكان فى بعض الوحدات . وهذا سجل لا يتكافأ مع الإمكانيات الكبرى لهذه الثورة البترولية ، وهو لا شك يصمها حتى الآن بالعقم ويتركها ثورة منقوصة . أما خارج بلاده ، فالبترول لم يـــؤثر فى بقية العالم العربى إلا بجرعات ضئيلة إما عبورية أو تموينية أو سياحية وكثيراً ما تكون انتهازية . وهكذا إذا كانت الصحراء قد صدرت ثورتها الأولى — الاسلام — إلى العالم العربى كله وحولته تحويلا جدرياً وأكدت وقعها على العالم الخارجى ، فإنا نرى أن ثورة الصحراء الثانية — البترول — ثورة فطيرة تستهلك نفسها محلياً إلى حد كبير : لقد عقم البترول حضارياً واقتصادياً ، خارجياً وداخلياً — فلماذا ؟

هناك مدرستان من مدارس الفكر ، مدرسة طبيعية ومدرسة بشرية . المدرسة الأولى تدعى أن بترول العرب عقمته الطبيعة والجغرافيا ، بمعنى أنه فى معظمه صحراوى الموقع ، ويكاد البترول والماء يتناسبان فيه تناسباً عكسياً : فالبترول تفجر حيث لا ماء ، وحيث يفيض الماء يغيض البترول :

فبحكم هذا الوراء الصحراوى الذى تفجر فيه والإطار الجغرافى الذى يحيط به لا مفر له من أن يدور فى حلقة مفرغة وأن يستهلك نفسه استهلاكا هدمياً غير بناء حيث أنه فاقد للقاعدة الأرضية التى يمكن تثميرها وتعميرها . بتعبير آخر ، إن أساس المجتمع والاقتصاد فى دول البترول هو « باطن الأرض » — يعنى الجيولوجيا . ولكن الجغرافيا — « سطح الأرض » — تتخلى عن الجيولوجيا وتتنافر معها ، فتعدم الثروة الفجائية الضخمة قاعدة طبيعية أو بشرية حقيقية تقوم عليها وتستثمر فيها استثماراً رأسمالياً .

مثل هذا الدفاع يبدو على السطح منطقيا ، ولكنه فى الواقع منطق تبرير محض لا يبرر ولا يبرىء ولا يقوم إلا على نظرة ضيقة من الحتم الجغرافى الخبىء crypto—detecrminism تخفى مغالطة علمية وقلبا للحقيقة تكشفها المدرسة البشرية . فهذه توضح أن العوامل البشرية هى المسئولة عن حيرة وضياع الثروة البترولية فى بلادها . ويمكن أن نحدد فى هذه العوامل ثلاثة : الاستعمار الخارجى والاقطاع الداخلى والتقسيم السياسى .

فأما الاستعمار الخارجى فإن نصف مكاسب البترول — إن لم يكن أكثر ! — تذهب ابتداء إلى الشركات الاحتكارية صاحبة الامتياز . وهى بعد هذا تتحكم فى الأسعار لصالحها ، وتتعمد ألا يخرج تصنيع البترول المحلى عن حدوده الدنيا حتى جدد الاحتكار الاستعمارى شباب ثورته الصناعية ببترول العرب فى الوقت الذى سلب من العرب جزءا من ثورتهم الصناعية المأمولة(١) . ولسنا وحدنا الذين نقول بهذا ، بل يردده من قبل هوسكنز ولنتشوفسكى بلا مواربة . فكما يقول هوسكنز عن ثورة التكرير فى أوربا (٢) :

---

(١) لبيب شقير . التنظيم الاحتكارى . ص ١١٩ — ١٢٠ .
(٢) هوسكنز . ص ١٩٤ .

« It meant also the placing of strict limits on plans and ambitions for the industrialisation of the Middle East producing states, which thereafter for an indefinite time to come would be denied the opportunity and the advantage of processing at home the bulk of one of their main natural resources. »

أما العامل الثانى فهو الإقطاع الداخلى . فابتزاز الإقطاع الأسرى حول المكاسب الشرعية لشعوب برمتها إلى دخل فردى أو أسرى بحت . وبين الإستعمار الخارجى والإستبداد الداخلى ضاع البترول بددا ما بين نزيف خارجى ونزيف داخلى . لقد عقم البترول حضاريا وإقتصاديا لأنه تحول من بترول قومى إلى بترول إستعمارى ، ومن بترول إشتراكى إلى بترول إقطاعى . ومن تفاعل الإستعمار الخارجى والإستبداد الداخلى خرجت ثالثة الأثافى وهى التقسيم السياسى للعالم العربى .

إن التقسيم السياسى المصطنع الممزق هو وحده الذى يحبس الثروة البترولية فى إطارات خانقة يمكن أن يتخذ منها إعتذار خبيث عن التبديد والنزيف . ولقد كانت دورين واربنر ثاقبة فى نظرتها حين قالت فى جملة عابرة ولكنها معبرة « هكذا تقف الأقسام السياسية بين مناطق الشرق الأوسط فى سبيل التنمية البعيدة المدى ؛ ولو أنها كانت إقتصاديا وسياسياً أكثر إتحاداً لكان توزيع الأرباح التى تؤول إلى حكام العرب السعودية والشياخات أكثر مساواة ولأدت إلى إرتفاع طويل المـــدى فى مستويات المعيشة(١) » . إن البترول فى انبثاقه صدفة سياسية كما هو صدفة جيولوجية ، وهو فى الواقع لا ينتمى إلى نقطته الموضعية الصارمة وإنما ينتمى إلى أقاليم جغرافية برمتها متكاملة وإلى شعوب بأسرها متضامنة . وكثير من دول البترول ليست أقل إصطناعية وانحرافا عما لو قلنا إن منطقة

---

(١) ص ١٣٨ .

رأس غارب حتى البلاعيم - مثلا - يجب أن تتمتع وحدها ببترولها كدولة مستقلة ! والكويت مثلا لا تزيد فى مساحتها عن مزرعة ranch كبيرة من مزارع تكساس ومثلها فى ذلك البحرين وقطر . . إن إستثمار البترول لا ينبغى أن يخضع مطلقا للنمط السياسى المزيف ، بل إن شيئا لم يكشف زيف هذا النمط المفروض أكثر مما فعل البترول . وسيظل البترول العربى فاقدا للقاعدة الجغرافية العمرانية طالما هو يبدأ من النمط السياسى الراهن وإليه ينتهى . ومعنى هذا أن الإطار الجغرافى الصحراوى ليس هو بالضرورة المسؤول عن ضياع الثورة البترولية العربية ، وإنما هو الإطار السياسى الممزق .

والواقع أن البناء العمرانى الذى تجمع عناصره جمعا ، عنصرا عنصراً من كل بقاع الأرض إلا حيث يقوم ، ليس بناء على الرمال فحسب ولكنه بناء غير اقتصادى على الإطلاق ، باهظ النفقات بصورة تتحدى كل قوانين الاقتصاد أو المنطق ولا يمكن أن يحتج له بالحتم الجغرافى . فنحن هنا فى الحقيقة إزاء نوع شاذ من الحتم هو « الحتم البشرى » الذى يمكنه فنيا أن يبنى مدينة هائلة تحت القطب - ولكن لماذا ولحساب من (١) ؟ والخلاصة إذن من حصيلة هذه العوامل الثلاثة هى أن الجغرافيا الطبيعية بريئة من تعقيم الثورة البترولية وأن الذى عقمها إنما هى الجغرافيا السياسية : داخلية وخارجية . وسيظل البترول العربى يضيع بددا ما بين نزيف خارجى ونزيف داخلى حتى تزاح كل العقبات والحواجز الدخيلة الاستعمارية والداخلية الاقطاعية . أى حتى يتم تحرير البترول وتأميم البترول Socialisation أو بتعبير آخر حتى يتحقق مبدأ « بترول العرب للعرب » « وتعريب البترول » .

---

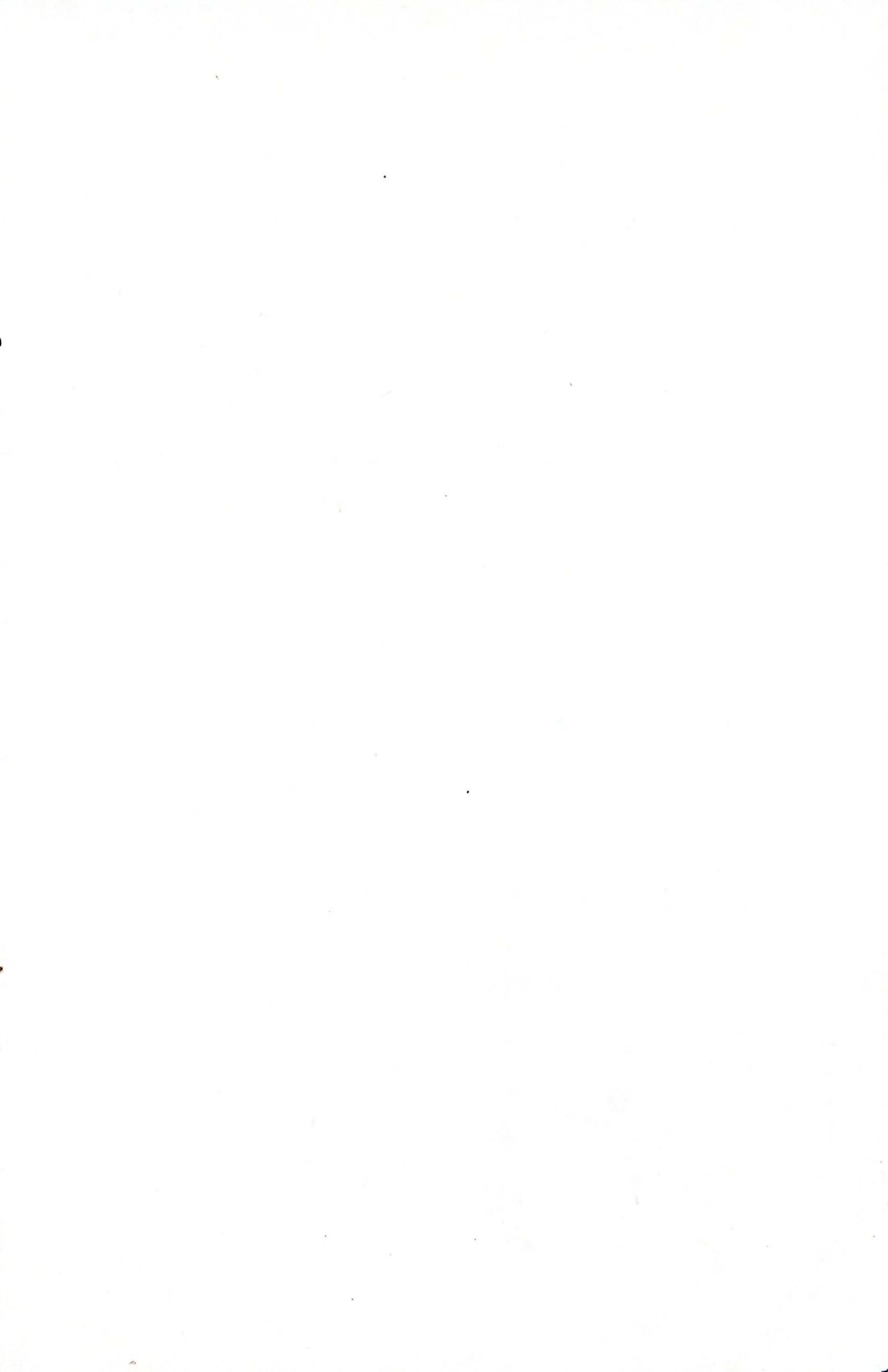
(1) F. Debenham, The Use of Geography, Lond., 1950, p. 147

هذا وحده هو الذى يمكن أن يحول ثورة البترول العربى من ثورة مضيعة منقوصة إلى ثورة إقتصادية عارمة وثروة إنتاجيه هائلة تتكامل فيها الجغرافيا والجيولوجيا ، الزراعة والتعدين ، أو الماء والبترول ، لتعطينا الثورة الصناعية المأمولة . الجغرافيا السياسية للعالم العربى إذن لا الجغرافيا الطبيعية هى التى ستقرر مصير بترول العرب : هل يتحول فى يوم ما إلى « الفردوس المفقود » أم يكون « جنة الخلد » . . . ومن حسن الحظ أن بترول العرب لازال فى دور مراهقته ولا زال من الممكن تغيير النظرة الانتهازية العشوائية الراهنة إلى سياسة تخطيطية متكاملة بعيدة المدى . ولكن هذا كله موضوع أدخل فى السياسة منه فى الاجتماع ، وهو ما ينقلنا إلى دراسة الجغرافيا السياسية للبترول .

الباب الثالث

بترول العرب

دراسة فى الجغرافيا السياسية



الفصل التاسع

البترول وجغرافية الاستعمار في العالم العربي

قبل البترول

لكي نحلل الدور السياسي الخارجي لبترول العرب ، لابد أن نحدد استراتيجية الاستعمار في العالم العربي قبل وبعد البترول . فبعد تاريخ طويل من « الاستعمار الديني » التركي بدأ « الاستعمار السياسي » الأوربي في القرن ١٩ . وقد غطى الاستعمار الأوربي كل رقعة العالم العربي — فيما عدا قلب الجزيرة العربية الميت — في ثلاث موجات زمنية واضحة ، يلاحظ في كل منها تناظر غريب بين كل من المشرق والمغرب العربي :

ثلاثينات القرن ١٩ . في الجزائر منذ ١٨٣٠ ، وفي عدن والجنوب العربي منذ ١٨٣٩ .

— ثمانينات القرن ١٩ ، في تونس منذ ١٨٨١ ، وفي مصر منذ ١٨٨٢ - ومن مصر امتد بعد قليل إلى السودان منذ ١٨٩٨ .

— العقد الثاني من القرن ٢٠ ، في ليبيا منذ ١٩١١ ، وفي مراكش منذ ١٩١٢ ، ثم في كل وحدات الهلال الخصيب منذ ١٩١٨ .

واضح على الفور أن الاستعمار الأوربي في الوطن العربي سابق بالقطع على البترول . ذاك نيف في أقصى حدوده على القرن فبلغ أرذل العمر

وهذا لم يتعد فى متوسطه إلا عقداً وبعض عقد ولا زال فى فترة مراهقته. ولقد عرف كل جزء من العالم العربى فى الاستعمار أنواعه الثلاثة من استراتيجى إلى استغلالى إلى سكنى ، بدرجات متفاوتة . ولكن إذا غلبنا اللون السائد ، فيمكن أن نقول إنه كان استراتيجياً سكسونيافى الصف الأول فى المشرق العربى ، سكنياً لا تينياً فى المحل الأول فى المغرب العربى . ويترتب على هذا أنه كان يستهدف « الموقع » فى المشرق ، بينما كانت موارد « الموضع » فى المغرب عنصراً أهم . ومن المؤكد أن المشرق من وجهة نظر الاستعمار كان ، اقتصادياً ، « ممراً » أكثر منه « مقراً » ، أى أن الذى جذبه إليه ليس غنى غير عادى فى موارده المحلية وإنما حساسية فذة فى فى موقعه الاستراتيجى الحاسم الفيصل كطريق مواصلات امبراطورية وكشريان إلى الشرق الأقصى .

تلك فى إيجاز الصورة الاستراتيجية للاستعمار قبل البترول . ومنذ بدأت إرهاصات البترول فى المنطقة أصبح طرفا خطيرا فى معادلة الاستعمار وأخذت هذه الصورة تتعدل إما بسببه مباشرة وإما لتغيرات خارجية . على أن النتيجة كانت واحدة ، وهى أن البترول بدأ يلعب دورا حاسما فى جغرافية الاستعمار فى المنطقة ، بل لا شك أنه قد طور الاستعمار فيها هدفا وشكلا بل ومصيرا . لقد أصبح البترول وحده « البعد الرابع » فى جغرافية الاستعمار فى العالم العربى ، أو كما عبر البعض أصبح «الاستعمار السائل». والواقع أنه لكى نفهم العلاقات الخارجية والتوجيه السياسى للمنطقة منذ ذلك الحين ، لا بأس أن نضع كبوصلة مؤشرة مبدأ أساسيا هو « فتش عن البترول » بعد أن أصبح هذا بعدا أساسيا من أبعاد الجغرافيا السياسية للعالم العربى . وقد التقى الاستعمار مع البترول على أرضنا فى جولتين ، الأولى مع

الحرب الكبرى الأولى ، والثانية مع الحرب الكبرى الثانية – كأنما كان ثلاثتها على ميعاد .

استراتيجية البترول والاستعمار

مسح تاريخى

ولقد بدأ الدور السياسى للبترول بصورة ما مع الموجة الثالثة للاستعمار فى العالم العربى فى العقد الثانى من القرن قبل وبعد الحرب الكبرى الأولى . ويتلخص هذا الدور فى أنه إما جذب الاستعمار وإما ثبته . جذبه كما حدث فى العراق ، وثبته كما عرفت دويلات الخليج . ففى العراق كانت الأبحاث الألمانية فى الربع الأخير من القرن الماضى قد أثبتت أن « العراق يعوم على بحيرة من البترول » . ولما كان النفوذ السياسى فى الامبراطورية العثمانية المتهاوية هو لألمانيا فقد استطاعت ألمانيا عن طريق شركة ألمانية اسمها الشركة التركية أن تحصل على امتياز خط حديد برلين – بغداد مع امتياز للبترول على جانبى الخط لعمق ٢٠ كم فى ولايتى الموصل وبغداد . وإذا كان مشروع برلين – بغداد أو همبرج – الكويت عمودا فقريا « للزحف نحو الشرق » – حلم ألمانيا القيصرية – فمن الواضح أنه أصبح كذلك محورا للزحف نحو البترول . أى أن الزحف نحو الشرق أصبح جزئيا زحفا نحو البترول : Drang nach Osten, Drang nach Erdöl .

وقد كان هذا الزحف نحو البترول ردا على حصول شركة بريطانية اسمها الفارسية (الإيرانية فيما بعد) على امتياز البترول فى جنوب غرب إيران . ولكن هذا كان إيذانا ببدء صراع القوى الأوربية ممثلة فى شركات البترول ، للسيطرة

على موارده . فكما وجهت الحملة الفرنسية من قديم نظر بريطانيا إلى خطورة طريق البحر الأحمر ، وجه « الزحف شرقاً » نظرها إلى خطورة الخليج العربى. هكذا استمر هذا الصراع البترولى بين الشركة الألمانية (التركية اسما) والبريطانية (الفارسية إسما) كما دخلت امريكا الميدان إلى أن سوى الموقف قبيل الحرب الأولى على أساس قسمة تغلب فيها المصالح البريطانية ولا تترك للألمان إلا ¼ الأسهم . ولكن الحرب قامت مباشرة فاستبعدت ألمانيا توا وكادت بريطانيا تنفرد ببترول العراق الذى احتلته عسكريا ، لولا أن حاولت تركيا العودة إلى الموصل وظهرت فرنسا على مسرح الصراع البترولى كما عادت امريكا بعد الحرب مباشرة .

فأما تركيا فقد طالبت فى الصلح بالموصل على أساس أن بريطانيا لم تدخله إلا بعد الهدنة ، ولكنها أعلنت استعدادها لمنح امتيازات بتروله إلى بريطانيا ثم فيما بعد إلى أمريكا التى أيدت مطالب تركيا فى الولاية . ولكن بريطانيا نجحت فى استبعاد تركيا عن الولاية وعن بترولها بإعطائها حصة فى عائدات الحكومة العراقيـــة من البترول تبلغ العشر لمدة ربع قرن . وأما فرنسا فبحسب معاهدة سايكس - بيكو السرية ١٩١٥ التى اقتسم الحلفاء فيها مناطق النفوذ فى الأمبراطورية العثمانية كان المفروض أن تسيطر على ولاية الموصل . ولكن بريطانيا وقد احتلت العراق كأمر واقع وأدركت أهمية الموصل البترولية تمسكت به لنفسها ، وكحل وسط حولت إلى فرنسا الحصة الألمانية السابقة (الربع) وذلك فى معاهدة سان ريمو ١٩٢٠ .

أما أمريكا فرداً على رفض بريطانيا الترخيص لشركاتها بالبحث عن البترول فى العراق وفلسطين فقد أصرت على سياسة « الباب المفتوح » التى

تفتح باب الإستثمارات أمام جميع القوى فى دول الانتداب بحكم نظام الانتداب . ومن المحتمل هنا — بين قوسين — أن بترول الشرق الأوسط كان من بين العوامل الهامة فى إخراج الولايات المتحدة من «عزلتها» وظهورها على مسرح العالم القديم . وبعد صراعات ومساومات تحاول فيها أمريكا المشاركة فى بترول العراق وتحاول بها بريطانيا إبعادها عنه ، حتى تأزمت العلاقات بينهما تماما — بعد هذا تغلب الضغط الأمريكى فدخلت شريكة فى بترول العراق بنسبة الربع منذ ١٩٢٧ ، ولكن ظل التفوق لبريطانيا حيث تبقى لها نصف الامتياز .

وهكذا أصبح للبترول فى العراق طابع دولى واضح كما يتمثل فى شركة بترول العراق .I.P.C التى تتصدرها بريطانيا والتى حاولت أن تمارس وصاية بترولية على المشرق العربى فى صورة اتفاقية « الخط الأحمر » ١٩٣٠ وهى التى بمقتضاها لا يجوز للشركات الأعضاء منفردة ممارسة أى نشاط بترولى فى منطقة الخط الأحمر — وهى الممتلكات العثمانية فى المشرق العربى باستثناء مصر والكويت . كذلك كانت بريطانيا من ناحية أخرى قد سارعت أثناء الحرب إلى تأكيد سيطرتها المفردة فى ولايات الخليج التى كانت تخضع لها منذ القرن ١٩ . ففرضت إتفاقيات على كل من الكويت والبحرين وقطر وشياخات ساحل المعاهدات تنص على عدم منح إمتيازات للبترول لدولة غير بريطانيا إلا بموافقة بريطانيا . أصبح ساحل المعاهدات — بمعنى آخر — ساحل المعاهدات البترولية . . .

صورة استراتيجية

هذا هو الفصل الأول فى التاريخ السياسى لبترول العرب . ويمكن أن نلخص مغزاه الاستراتيجى فى اثنتين . فأولا لم يكن النفوذ الاستعمارى

والأطماع الاستعمارية شيئاً جديداً على المنطقة ، إلا أن أهدافه كانت استراتيجية أساسا بمعنى المواصلات الامبراطورية . ولكن احتمالات البترول أضافت إلى أغراض الاستعمار فى المنطقة بعداً جديداً ، فلقدسعى الاستعمار إلى المنطقة كشريان ولكنه تعثر فى طريقه إليها فى ثروة لم تكن بباله فالتقطها بسرعة . وهكذا لم تعد المنطقة ممراً فقط للاستعمار وإنما أصبحت مقراً له كذلك .

وقد جاء وضع المشرق العربى تحت انتداب الاستعمار تحقيقاً للهدفين القديم والجديد . ولا يصدق هذا على العراق فقط حيث كان وجود البترول مؤكداً وإنما يصدق أيضا على وحدات الشام حيث كان أملا ، ويؤكد هذا مسارعة بريطانيا إلى تجديد وتحديد سيطرتها فى دويلات الخليج حيث لم يكن البترول أكثر من مجرد احتمال كذلك . ويمكن هنا أن نسمى صراع القوى الاستعمارية من أجل بترول الشرق الأوسط والعالم العربى منذ أوائل هذا القرن « بالتدافع أو التكالب على البترول « Scramble for Oil » على غرار « التكالب على أفريقيا » الذى كانت قد عرفته نفس القوى منذ نصف قرن أو نحو ذلك .

ثانيا كان البترول عنصراً أساسيا فى الصراع الاستعمارى على المنطقة . والحقيقة الكبرى فى هذا الصراع البترولى أنه يكرر فى نمطه الصراع الاستراتيجى بين القوى على طرق المواصلات . أى بدأ يضيف إلى الصراع الدولى على « الموقع » صراعا مماثلا على « الموضع » . وفى كلا الحالين تتلخص ميكانيكية الصراع فى عملية عزل واستبعاد لقوة بعد أخرى حتى تنفرد أو تسود قوة بعينها . فبدأت باستبعاد « دول الوسط » المانيا ثم تركيا ، فإذا ذكرنا أن الروسيا التى كانت لها مطامعها فى الخليج قد أبعدت عنه وأخرجت من

الصراع من قبل فسنلاحط أن القوى البرية هي التي خسرت السباق الاستراتيجي والبترولي معاً ، بينما كسبته القوى البحرية بريطانيا وفرنسا وأمريكا. ولكن سنلاحظ أن أمريكا أتت إلى المشرق العربي من أجل البترول فقط ، وأن البترول وحده هو الذى أدخلها لأول مرة إلى الشرق الأوسط . ومن الصراع بين هذه القوى البحرية الثلاث خرجت بريطانيا بنصيب الأسد فى بترول العراق بينما كان موقفها احتكارياً مطلقاً فى ولايات الخليج .

وكان البترول بهذا عاملا فى تشكيل التبعيات السياسية الجديدة أى فى اقتسام المنطقة استعمارياً بل وفى تشكيل الكيان الجغرافى للوحدات السياسية الجديدة فى المنطقة حيث انتهى بالموصل إلى العراق البريطانى ، وبعد أن كان مفروضاً أصلا أن يصبح جزءاً من سورياً الفرنسية . أى أن الصراع الاستعمارى على بترول العرب لعب دوراً واضحاً فى رسم حدود العرب على موائد الانتداب . وفى هذا تقول كاتبة فرنسية :

« … L'Irak fut crée pour prèserver à la fois d'eventuel champs petrolifères et la route stratégique qui interessait l'Angleterre » (1) .

تطور استراتيجية البترول

مسح تاريخى

ذلك كان النمط السياسى للبترول فى الشرق الأوسط العربى كما تحدد فى الجولة الأولى من الصراع الإستعمارى فى المنطقة حوالى الحرب الكبرى الأولى . ولكنه أخذ يتعدل تدريجيا فيما بين الحربين منذ الثلاثينات حتى

---

(1) Jacqueline Beaujeu—Garnier, L'Economie du Moyen—Orient, 1951, p. 98.

تغير كثيرا مع الحرب الثانية . ولقد تركزت الجولة الثانية من الصراع البترولى بين بريطانيا كقوة تسيطر سياسيا على المنطقة ولكنها متدهورة كقوة عظمى، وبين أمريكا كقوة عظمى طافرة وإن كانت لا تسيطر سياسيا فى المنطقة . وقد بدأ الصراع أولا فى البحرين حيث نفذت شركة أمريكية إلى إمتيازات البترول فيها سنة ١٩٢٧ ولكنها إصطدمت بالاحتكار البريطانى الذى تضمنه الإتفاقية السياسية . وتحت ضغط الحكومة الأمريكية جاء الحل الوسط مخلوقا غريبا فى عالم المساومات الاحتكارية، وذلك فى شكل شركة أمريكية خالصة ، مسجلة فى كندا الدومنيون البريطانى ، أغلب موظفيها من الانجليز أصحاب السيطرة السياسية ! شركة بترول البحرين Bahrein Petroleum Co أو بابكو Bapco .

وكان الصدام الثانى فى السعودية . ولم تكن هذه ترتبط ببريطانيا سياسيا ولو أنها فى بداية نشأتها لم تنج من نفوذها السياسى والاقتصادى حيث ثبت أنها كانت فى وقت ما دولة على المعاش البريطانى a British pensioner ولكن السعودية كانت حذرة من كل ما يتعلق ببريطانيا بحكم تاريخها الاستعمارى الطويل فى العالم العربى عامة . ولهذا حين ظهرت إحتمالات البترول كانت أسرع إلى قبول العروض الأمريكية فى ١٩٣٣ . وحين تقدمت بعض الشركات الأمريكية المساهمة فى شركة بترول العراق للمشاركة فى إمتياز السعودية اعترضت بريطانيا وفرنسا على أساس إتفاق الخط الأحمر . ولكن ضغط الحكومة الأمريكية مرة أخرى حطم إتفاقية الخط الاحمر إلى الأبد فى ١٩٤٨ وأعطى حرية العمل للشركات الأمريكية وانفردت أرامكو الأمريكية ببترول السعودية حيث تتمتع بحق الأفضلية فى مناطق خارج الامتياز كما نالت إمتياز البترول فى النصف

غير المحـــدد من المنطقة المحايدة بين السعودية والكويت . ومن الناحية الأخرى سيطرت بريطانيا على بترول قطر حيث تكونت شركة بترول قطر فى ١٩٣٥ كفرع لشركة البترول العراقية I . P . C .ومع هذا فمعنى ذلك أن المصالح الأمريكيه إستطاعت أن تمتد أيضا إلى بترول قطر . وهذا يصدق أيضا على كل ساحل المعاهدات وعمـــان الذى نالت إمتيازه شركة البترول العراقية منذ١٩٣٧ .

ومرة ثالثة اصطدمت المصالح الأمريكية والبريطانية فى الكويت. فقد استطاعت شركة امريكية ـ شركة الخليج ـ أن تنفذ إلى امتياز الكويت ، فاعترضت بريطانيا بمعاهدتها الاحتكارية مع الكويت محاولة أن تمنح الامتياز لشركتها فى إيران .A.I.O.C (التى أصبحت Brit. Petroleum بعد التأميم) ولكن تدخل الحكومة الامريكية لمصلحة شركتها انتهى فى ١٩٣٤ إلى تكوين « شركة بترول الكويت » على أساس المناصفة بين شركتى الخليج والايرانية ولقد كانت الفرصة أسهل أمام المصالح الامريكية فى المنطقة المحايدة . ففى ١٩٤٧ نالت امتياز البترول فى النصف الكويتى غير المحددمن المنطقة ؛ بينما كان النصف السعودى قدمنح من قبل إلى ارامكو التى تنازلت عنه لشركات أمريكية أخرى فى مقابل تأكيدامتيازها فى الرصيف القارى للسعودية. بهذا أصبحت شركة أمينويل Aminoil (American Independent Oil Co.) فى المحايدة عمليـــة أمريكية بحتة . وقد يمكن أن نرى فى مشكلة البوريمى بعض ظل للتعارض بين المصالح البريطانية والامريكية على البترول العربى . فهذه الواحة على أرض التخوم غير المحددة بوضوح بين ساحل المعاهدات وبين السعودية أصبحت منطقة نزاع دولى بين بريطانيا المستعمرة للساحل والتى تطمع فيها بعد أن ظهرت احتمالاتها البترولية، وبين

السعودية التى تعتبرها جزءاً من رقعتها وتسـاندها فى ذلك المصالح الأمريكية .

وقد أضيف إلى الصراع الاستعمارى على امتيازات البترول على القارة صراع جديد عليها فى « الرصيف القارى » الذى يبدأ قانونا بعد نطاق « المياه الاقليمية ». وفى هذا المجال نجد فى كل وحدة سياسية بوجه عام أن أصحاب الامتياز على القارة هم فى الأعم الأغلب أصحابه على الرصيف القارى أيضا . ولـكن استطاعت المصالح الأمريكية أن تـكسر هذه القاعدة لمصلحتها حتى خارج مناطق امتيازها كما فى بعض وحدات ساحل المعاهدات .

صورة استراتيجية

بعد هذا العرض يمكننا الآن أن نحدد استراتيجية الصراع البترولى فى جولته الثانية فى المشرق العربى . فنجد أولا أن الصراع قد انتقل من الشمال فى الهلال الخصيب إلى الجنوب فى الجزيرة العربية ، من العراق خاصة إلى الخليج خاصة. ثم إن الصراع هذه المرة كان اقتصاديا ـ بتروليا فقط بينما كان فى الجولة الأولى سياسيا ـ استراتيجيا ، واقتصاديا ـ بتروليا معا. فلقد كانت مناطق البترول الجديدة هنا إما خاضعة أصلا لبريطانيا كالخليج وإما مستقلة قلقة على المحافظة على استقلالها كالسعودية . ولهذا كان هدف السياسة الأمريكية اقتصاديا أساسا ، بمعنى آخر نوع من « الاستعمار الاقتصادى » منفصل عن « الاستعمار السياسى » ، بعكس الاستراتيجية البريطانية التى جمعت بين الاستعمارين السياسى والاقتصادى معا .

ومن المهم هنا أن نلاحظ أن قلب الاستعمار البريطانى فى العالم العربى كان الهلال الخصيب ومصر قبل عصر البترول وفى عصر الموقع الاستراتيجى ،

ولكن فى عصر البترول انحسر ذلك الاستعمار إلى أطراف الجزيرة العربية فى نطاق البترول .

كذلك نجد أن التفوق فى هذه المرحلة هو للقوة الجديدة على المسرح أمريكا ـ بالضرورة على حساب القوة القديمة بريطانيا . ويرجع اكتساح أمريكا إلى قوتها الذاتية الهائلة وطاقتها المادية الديناميكية التى أعطت شعورا فى كل مناطق البترول بالعالم العربى بعجز بريطانيا عن المشاريع والاستثمارات الضخمة السريعة مما ارتبط به تأخر الإنتاج وتعطله طويلا فى المناطق الخاضعة لها عنه فى مناطق الامتيازات الأمريكية المطلقة أو التى تشارك فيها أمريكا ـ مثلا قطر بالنسبة للسعودية . وتزيد الآن قيمة الاستثمارات الأمريكية قليلا عن الاستثمارات البريطانية فى بترول العرب ، ولو أن كلا منهما لا يقل عن بضعة آلاف من ملايين الدولارات . وقد تكون أمريكا شريكا أصغر فى أكثر الشركات فى المنطقة . ولكن ليس المهم عدد الشركات ولكن نوعها فهى تتقاسم مع بريطانيا أعظم مصدر للبترول وهو الكويت بينما تنفرد وحدها بثانى مصدر وهو السعودية التى لا تقل كثيرا عن الأولى فى رصيدها .

ومن الثابت أن التناقض بين المصالح الأمريكية والبريطانية كانت تقف خلفه الحكومتان ـ حتى فى مشاريع الأنابيب مثل التابلاين حيث عارضت بريطانيا بشدة محاولة الحكومة الأمريكية فى المساهمة فى المشروع خوفا على نفوذها السياسى والاقتصادى فى المنطقة . ومن المؤكد بوجه عام أن المصالح الأمريكية غزت المصالح البريطانية فى عقر مستعمراتها وأخذت تزحزحها وتزيغها بالتدريج سواء على الأرض أو فى البحر . ويحاول بعض الكتاب البريطانيين أن ينفى هذه الصورة(١) ، ولكننا نفشل فى ألا نراها أبرز خط

---

(١) Longrigg, p. 361.

فى تاريخ البترول السياسى الحديث فى المشرق العربى والشرق الأوسط ، وإن يكن من المغالاة أن نسمى هذا حربا سرية أو بادرة .

والكتاب الأمريكيون أنفسهم خير مؤيد لهذا الرأى . مثلا هوسكنز يكرر فى كل مرة دور الحكومة الأمريكية فى الضغط السياسى على الحكومة البريطانية لمصلحة شركات البترول الأمريكية (١) . كذلك يرى جغرافيان فرنسيان مثل بيرو ودريش أن صراع المصالح الأمريكية والبريطانية فى العالم العربى والشرق الأوسط هو أبرز حقيقة فى الإطار السياسى للمنطقة ويعدانه وريثا للصراع البريطانى الفرنسى الأسبق فى المنطقة :

«Mais les intérêts anglais et américains sont l'objet d'une rivalité constante, plus ou moins ouverte. Elle a des aspects non seulement économiques mais aussi strategiques. Elle recouvre la traditionelle rivalité anglo-française et est devenue un facteur préponderante de l'évolution politique des pays du Moyen Orient» (٢)

وأخيراً ينبغى أن نذكر أن « نادى البترول » فى المنطقة لم يعد قاصراً على « الثالوث المقدس » بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، بل بدأ أخيراً يتسع للقوى التى كانت قد استبعدت فى الجولة الأولى أو بعدها . فعادت ألمانيا من الباب الخلفى - أو الجانبى ؟ - تسعى لامتيازات جديدة ، كما دخلت اليابان وإيطاليا منافسة قوية خاصة فى الإمتيازات البحرية فى مناطق الرصيف القارى فى الخليج العربى . ومع ذلك فلم يزد نصيب هؤلاء المتأخرين عن فتات المائدة . وعموماً يمكن أن نقول إن « الاحتكار المنفرد monopoly الذى تمتع

---

(١) Hoskins, pp. 204—8 : Beaujeu-Garnier, p. 114.

(٢) P. 346.

به بريطانيا فى الجولة الأولى تحول إلى احتكار ثنائى duopoly فى الجولة الثانية دون أن يتحول إلى أكثر من ذلك - إلا كما سنرى فى المغرب العربى.

ولنختتم هذه الدراسة بعرض إحصائى لقوى وأوزان القوى السياسية الرئيسية فى إحتكارات بترول العرب . فنجد أولا أن الشركات الفعالة ثلاث هى شركة البترول العراقية والأرامكو والكويت . هى فيما بينها وحـــدها تسيطر على نحو ٩٠ ٪ من بترول العرب رصيداً وإنتاجاً . الأولى تسيطر على رصيد قدره ٣٣٫٧ بليون برميلا (١٩٦٢) أو ١٩ ٪ من رصيد العرب ، هو مجموع رصيد العراق وقطر وساحل المعاهدات . أما أرامكو فتحتكر ٣٢٪ من كل رصيد العرب هى كل رصيد السعودية . وأما شركة الكويت فتحت يدها ٣٨ ٪ من رصيد العرب هى رصيد الكويت وحدها .

وبحسب مساهمة الدول المختلفة فى هذه الشركات الثلاث يتحدد مدى سيطرة كل دولة على بترول العرب . فتسيطر المصالح البريطانية على حوالى ٢٩ ٪ من رصيد المشرق العربى مقابل نحو ٥٦ ٪ للمصالح الأمريكية ، بينما لا تزيد المصالح الفرنسية عن ٥٫٤ ٪ من احتياطى المشرق العربى . أى أن أمريكا تسيطر الآن على ضعف ما تحت يد بريطانيا من احتياطى فى المنطقة . أما فرنسا فذيل ضئيل . ولا تتغير النسب كثيراً إذا ما وزعنا الحصص المختلفة فى المغرب العربى .

أما من حيث الإنتاج فإن أرقام ١٦٦٢ تعطى الشركات الأمريكية ١٥٤ مليون طن أو ٥٧٫٧ ٪ من كل الإنتاج العربى ، مقابل ٧٣ مليوناً أو ٢٦٫٨ ٪ للشركات البريطانية - أى مرة أخرى أقل من نصف النفوذ الأمريكى ، بينما ترتفع حصة الشركات الفرنسية هذه المرة إلى ٣٤ مليون

طر أو ١٢٫٥٪ من الإنتاج العربى أى أقل كثيراً من ربع أمريكا(١). كذلك لا تقل نسبة رءوس الأموال الأمريكية فى المنطقة عن ٦٠ ٪ من مجموع الرؤوس الموظفة فى صناعة البترول العربى . وبهذا يتضح سيادة المصالح الأمريكية المطلقة رؤوس أموال وإنتاجاً وإحتياطياً إذا ما قورنت بالمصالح البريطانية أو الفرنسية .

إستراتيجية البترول فى المغرب العربى

جاء ظهور البترول متأخراً جداً فى المغرب الغربى ، فالاستعمار هنا سابق جداً على البترول . وكما شهدت الحرب الثانية ازدواج امتياز البترول فى العالم العربى ، شهدت ازدواج الانتاج فيه . ففى هذه الفترة دخل المغرب العربى نادى البترول كأخ أصغر للمشرق العربى . ومن حينها أصبح مباشرة عنصراً أساسيا فى جغرافية الاستعمار والتحرير على السواء . ففى ليبيا ظهرت إمكانيات الزيت أثناء الحرب بعد١٩٤٣ على يدالفرنسيين حين احتلوا فزان آتين من الكفرة من تشاد . فوجدوا أن فزان « تطفو على بحيرة من الزيت » وأنها « ستكون أغزر انتاجا من ايران والعراق » . وكان هذا انذاراً بما ينتظر المنطقة من أطماع استعمارية تحققت بعد الحرب حيث اقترح تقسيم ليبيا بين ثلاث وصايات بحيث تكون فزان من نصيب فرنسا .

ولو تم هذا لربما كانت فزان اليوم جزءا من الجزائر الفرنسية . أى أن صراع الاستعمار على بترول العرب لعب مرة أخرى دوره فى رسم حدود العرب هنا . ويكاد الموقف فى هذا الصدد يكرر ما حدث فى الموصل أثناء الحرب الأولى . وكأنما ليعيد التاريخ نفسه ، فكما خسرت فرنسا الموصل

---

(١) الموارد الاقتصادية فى الوطن العربى ، سبق ذكره ، ص ٣٠٠ — ٣٠٢

خسرت فزان ، ولمصلحة النفوذ البريطانى فى الحالين على أن الأمر انتهى أخيرا بفزان إلى ليبيا المستقلة . وحين بدأ استثمار البترول فيها أخيرا لم يبدأ فى فزان ، ولكنه على العموم امتاز بطابع دولى واسع اشتدت فيه المنافسة بين المصالح البريطانية والفرنسية والأمريكية والهولندية والألمانية والايطالية . وإنها لسخرية ـ حقا ـ كما يعلق كلارك ـ أنه الآن فقط بدأت إيطاليا تبحث عن البترول فى ليبيا(١) !

أما فى الجزائر فقد تأخر ظهور البترول حتى العقد الأخير . وهذه أيضا سخرية أخرى ألا تكتشف فرنسا البترول فى الجزائر إلا ـ بتعبيرهم ـ فى « الربع ساعة الأخير » من تاريخ استعمارها الذى يعد أطول ما عرفه العالم العربى ! وثمة سخرية أخرى هى أنها عجزت عن استثماره وحدها ، ولهذا شاركت المصالح الأجنبية من أمريكا وألمانيا وإيطاليا . ومنذ بدأ البترول أصبح عنصراً خطيراً فى الجغرافيا السياسية للجزائر . فهو من ناحية قد زاد من عناد الاستعمار وتشبثه ، وجعله يحاول أن يستميت إلى آخر لحظة ممكنة . وهو بهذا قد مد فى عمر الاستعمار بضعة أعوام أخر فيها تحقيق الاستقلال . ولكنه من الناحية الأخرى زاد من إصرار التحرير وأذكى نار المقاومة . فى الجزائر لم يأت البترول وقوداً لثورة صناعية وإنما وقوداً للثورة التحريرية جاء وقد حاولت فرنسا بإشراك المصالح الأمريكية خاصة وغيرها عامة أن « تحيد » هذه الدول فى موقفها من حرب التحرير الجزائرية . وبعد ذلك نرى أن الولايات المتحدة قد أصبحت قاسما مشتركا أعظم فى استثمارات البترول فى كل وحداته المنتجة فى العالم العربى مشرقه والمغرب .

---

(١) Clarke, "...Changes in Sahara", p. 114.

وقد مرت المناورات والمساومات الفرنسية فى الجزائر بثلاث مراحل كان البترول فى جميعها خطا متصلا أو قاسما مشتركا أعظم. فكانت الأولى مرحلة « الجزائر فرنسية » ، فلما فشلت تنازلت إلى فكرة التقسيم « والصحراء غير جزائرية » ، ومن الواضح أن هذا قصد به مباشرة السيطرة على البترول . وقد كان من خطوات هذه السياسة فى ١٩٥٧ منظمة الصحراء الكبرى OCRS (Organisation Commune des Règions Sahariennes) التى حاولت بها فرنسا ضم مستعمراتها الصحراوية من السودان حتى المغرب فى منظمة اقتصادية واحدة وبذلك تسلخ الصحراء عن الجزائر اقتصاديا(١) . ولما فشلت هذه المرحلة اضطرت إلى مبدأ الاستقلال والوحدة . ولكنها إذا كانت قد تنازلت عن دعوى تقسيم الأرض الجزائرية فقد اشترطت تقسيم البترول الجزائرى - بمعنى أن تشترك مع الجزائر مناصفة فى استثمار البترول . وهكذا كان . وهذا ترتيب لا يؤثر على استقلال الجزائر لأنه لا يعدو أن يكون تطبيقاً لمبدأ المناصفة على غرار ما فى دول المشرق العربى المستقلة .

وسواء فى ليبيا أو فى الجزائر فالسمة المشتركة التى تميز عن المشرق العربى هى أن الاحتكار الضيق المنفرد أو الثنائى تميع هنا إلى احتكار أوسع نطاقاً ، احتكار يضم أمريكا وبريطانيا وفرنسا كما يضم إيطاليا وألمانيا بل وبعض مصالح هولندية وغير ذلك . بمعنى آخر توسع إلى احتكار القلة oligopoly . وبديهى أن هذا فى مصلحة الدولة العربية ليس فقط من حيث المساومة الاقتصادية وإنما أيضا من حيث التحصن ضد الأخطار السياسية . (وبالمناسبة ، نصل إلى قمة التراتب فى مصر حيث تكسر الاحتكار الأجنبى تماما وأصبح البترول عملية قومية بحتة) .

(١) Barbour, A Survey of North West Africa, pp 259-262.

والواقع أن لنا أن نقول إن المشرق العربي كان فى أكثر من معنى وفى أكثر من مرة ضحية مبكرة تفدى مناطق أخرى بعدها وتفيدها بتجربتها . فقد كان المشرق هو أول وأطول من قاسى من الاستعمار البترولى ، ولم يسع الاستعمار إلى بترول المغرب إلا بعد أن كان قد استنزف المشرق ويأس أخيراً منه سياسيا . وبينما ظل المشرق خاضعا طويلا لشروط احتكارية مجحفة ثم كافح من أجل تعديلها بعنف ، نجد المغرب (وأفريقيا) تنال الشروط المعدلة الجديدة بلا مشقة ولا أدنى كفاح . بل حتى فى الناحية السياسية البحتة نرى أن العالم العربى قاسى من ضراوة الاستعمار وخاض معارك نضالية مريرة حتى نال التحرير ، بينما تجد منطقة كأفريقيا تنال الاستقلال فجأة وبسهولة نسبية غير مألوفة . ولكن الفضل كان لدرس الكفاح العربى دائما سواء فى مجال الاستعمار أو مجال البترول .

تلك إذن قصة اللقاء بين الاستعمار والبترول فى وطننا العربى مشرقه والمغرب . لاجدال فى أنها إن لم تكن تعنى أن الثانى كان مغنطيسا للأول ، فهى تعنى على الأقل أنه كان ثقلا له . إن لم يكن البترول هو الذى بدأ الاستعمار فهو الذى جدد شبابه وأطال عمره . بتعبير آخر لقد جاء دور البترول فى جغرافية الاستعمار فى العالم العربى دور « المكثف » لا « المولد » . وفى هذا المعنى قد يبدو للبعض أن لا مفر من أن نقول إن البترول قد جنى علينا بمثل ما أن قناة السويس قد جنت كما قالوا على مصر من قبل . ولكن أى منطق هذا الذى يجعل من هذه الثروة العظيمة مصدر ضعف لا قوة لصاحبها ؟ أى منطق يمكن أن يكون هذا أو ذاك إلا منطق المدى القصير ـ ولا نقول النظر القصير ؟ لنلتمس الإجابة إذن فى جغرافية التحرير العربى ، ففيها وحدها تنعكس القوة الكامنة للبترول كسلاح عربى حقيقى .

الفصل العاشر

البترول والوزن السياسى للعرب

إذا كان البترول قد جذب الاستعمار إلى العالم العربى فى حالات أو زاده تشبثا فى حالات أخرى أو أخر التحرير فى بعض أجزائه، فإنه قد لعب دوراً هاما فى جغرافية التحرير ودفعها فى المنطقة وأضاف كثيراً إلى وزنها السياسى العام فى المحيط العالمى. ذلك أمر لا يمكن أن يكون موضع سؤال، إنما السؤال هو إلى أى حد؟ وماهى نقط القوة والضعف فى بترول العرب كسلاح سياسى؟

لاشك أن البترول قد ضاعف من الثقل السياسى للعالم العربى فى ميزان القوة السياسية فى العالم. فقد كان رأسمال الاقليم الحقيقى فى المسرح العالمى هو الموقع الاستراتيجى الفذ. ولكن هذا كان يخفى - أولا يخفى! - ضعفا أصيلا داخليا فى موارده المحلية وطاقاته الموضعية كرقعة تسودها الصحراء. والواقع أن المنطقة لم تسقط فريسة سهلة للاستعمار إلا لهذا التناقض الجذرى الكامن بين قيمتها وقوتها، بين موقعها وموضعها. فقد كانت دائما فى موضع الأهمية الاستراتيجية الذى يغرى كل القوى، ولكنها لم تكن فى موضع القوة المادية الرادعة الذى يمكنها من صد هذه القوى.

ومن المؤكد أن قيمة الموقع هذه قد اهتزت بصورة أو بأخرى منذ بدأت الاستراتيجية الذرية من ناحية وانطلق المد التحريرى فى العالم من ناحية أخرى (١). بل إن من المرجح أن هذا التناقص فى أهمية وخطر الموقع كان من العوامل المساعدة على تقلص الاستعمار وانحساره فى المنطقة

---

(١) R. I. I. A., The Middle East, p. 4.

نفسها . على أنه فى الوقت نفسه ظهر البترول فى الوقت المناسب وبدأت أهمية الموضع المتواضعة تزداد وتتعاظم منذ البترول بصورة جعلت الوزن السياسى للمنطقة تزيد عما كان عليه من قبل فى أى وقت مضى وبصورة أدخلتها أكثر وأكثر فى قلب دوامة السياسة الدولية . وتأتى هذه الاضافة من عدة نواح . فقد صب البترول أولا دخلا ضخما فى المنطقة ورفع مستواها الحضارى والمادى بصورة أو بأخرى بحيث رفع الكفاءة المادية والفاعلية السياسية للمنطقة بدرجة أو بأخرى . ثم إن المنطقة تملك أكثر من نصف رصيد العالم من مادته الاستراتيجية الأولى فى الحضارة الحديثة ـ حضارة البترول كما سماها البعض ـ سواء فى السلم أو فى الحرب . وهى بعد هذا تنتج فعلا أكثر من خمس إلى ربع الانتاج العالمى وتساهم بأكثر من هذه النسبة فى تجارته الدولية . وكذلك أصبحت أوربا الغربية بالذات ـ مركز القوى الاستعمارية التقليدية ـ تعتمد على بترول الشرق الأوسط والعالم العربى بنسبة ٨٠٪ من استهلاكها المتزايد. وقد كانت دولة واحدة من العالم العربى ـ الجمهورية العربية المتحدة ـ تسيطر وحدها على مرور ٩٠٪ من بترول الشرق الأوسط . ورغم ما فى قولها من مغالطات ، فقد كانت فرنسا تردد دائما رغبتها فى التحرر من تحكم العالم العربى فيها بتروليا . على أن مما لا شك فيه نظريا أن هذا يعنى أن فى يد العرب سلاحاً سياسيا خطيراً يضيف كثيراً إلى وزنهم السياسى ووقعهم الاقتصادى فى المجتمع الدولى .

ولقد وضعت هذه القوة السياسية للعالم العربى بالفعل موضع الاختبار فى مناسبات سياسية عديدة بدأت بمنع البترول العراقى عن أنبوب

---

(١) Hoskins, p. 189.

حيفا فى اسرائيل وانتهت بكبرى هذه التجارب السياسية بلا ريب حرب السويس حين أوقف تدفق البترول العربى إلى موانى تصديره إلى الغرب فشل جهازه الصناعى والاقتصادى طويلا وكان « فطاما » هد وهدد كيان الوليد الحضارى الأوربى الجديد . فالواضح إذن أن البترول أداة كامنة للضغط السياسى على الاستعمار ، أو بالأحرى لمواجهة الضغط السياسى للاستعمار . وبتعبير جيوبولتيكى ، يمكن أن نقول إن البترول حول الدول العربية من دول سالبة passive states إلى دول موجبة activestates ، من مفعول به إلى فاعل (١).

كذلك ربما جاز أن نقول إن بترول العراق المبكر قد مكن له من الوعى السياسى ومن القوة على الكفاح المبكر لطرد الاستعمار ـ ولو أنه أيضا جعل هذا الأخير يتشبث بموقفه أطول مدة ممكنة . كذلك ليس من تفسير مباشر لاستقلال الكويت أخيرا وتطور بنائها السياسى إلى شبه الدولة الحديثة إلا فى البترول ، وإن كان الاستعمار لم يخرج إلا بعد أن ضمن امتيازات البترول . وبالمثل فى الجزائر ألهب البترول الطارىء خيال التحرير وكان سلاحا فى المعركة ، وإن كان قد جدد شباب الاستعمار وأطال عمره أو كاد . ومن المحتمل بوجه عام أن تبلور القومية العربية وتفجر ثورة التحرير فى صورة الحياد الايجابى وعدم الانحياز ساعد عليها شعور كامن بقوة جديدة داخلية ووزن سياسى متزايد بفضل البترول ـ ولو أن أكثر الدول العربية بترولا لم تكن هى أكثرها حماسا لتحقيق هذه الحيثية والقيمة الجديدة للمنطقة فى المجال الدولى . والواقع أن تعاصر توقيت كل من الثورة البترولية والثورة القومية فى العالم العربى هو حقيقة بارزة لا يمكن أن تكون صدفة بلا مغزى .

ولكى ندرك جيدا دور البترول فى زيادة الوزن السياسى للعالم العربى

(1) A. E. Moodie, Geography Behind Politics, Lond., 1947. p, 67.

وفى المد التحررى والدفع الثورى فى المنطقة ، يمكن أن نتصور ماذا يكون وضعه السياسى إزاء القوى الخارجية المسيطرة والمعادية ، لولم يكن البترول من نصيب العالم العربى . ولكن السؤال مرة أخرى هو ـ الى أى حد حرك حجر البترول بحيرة السياسة الآسنة فى العالم العربى ؟ هل استغلت كل الامكانيات السياسية للبترول ، وهل أدى كل وظيفته السياسية التحررية الكاملة ؟ أم هو أداة سياسية معطلة أكثر مما هو قوة فعالة ؟

لا شك أن من المتناقضات المثيرة حقا أن يسيطر العالم العربى على ما يسيطر عليه من رصيد وانتاج بترولى وتموين لأوربا ثم يظل مع هذا فى ظل التبعية الاقتصادية لأوربا شأن أى دولة أخرى من « دول الخامات ». وأبعد من هذا أنه طالما أن فى المنطقة وحدات مستعمرة ، فهذا دليل كاف على أن البترول لم يجند تجنيداً كاملا فى معركة التحرير . فهناك أولا وحدات بترول تخضع للاستعمار مثل قطر والبحرين — وحتى الأمس القريب الكويت والجزائر . وعدا هذا فإن أكثر دول البترول فى العالم العربى رغم أهميتها بالقوة وثرائها الاقتصادى النسبى تظل دولا ضعيفة جدا من الناحية الفعلية العسكرية مما يجعلها فى الحقيقة الفريسة المثالية لأى طامع — مهما بلغ هذا من ضآلة ! .

ولعل المثل البارز هو البحرين التى تدعى إيران ملكيتها منذ القرن الماضى وتزعمها اليوم فى دستورها مقاطعة جديدة من مقاطعاتها (!) ولا شك أن الذى جدد دعاوى ايران هو ثروة البحرين البترولية ، والذى شجعها عليها انما هو ضعف البحرين السياسى والعسكرى الشديد . ومن أسف أننا لا نريد أن نعترف بأن الذى «يحفظ» البحرين للعرب حتى الآن من ابتلاع الاستعمار الإيرانى إنما هو الاستعمار البريطانى (!) وليست القوة الرادعة

للعرب . وفى هذا الصدد نذكر أيضا أطماع ومناورات إيران مع بقية شيوخ الخليج خاصة ساحل المعاهدات والرصيف القارى للكويت . على أن بعض العزاء أن البترول قد أعاد على الأقل الشعور بعروبة مثل هذه الأطراف المتطوحة المنعزلة من العالم العربى والتى كانت وهى منسية مهملة فى فقرها تكاد أن تطفو منشطرة عن الوطن الأب لتبتلعها التوجيهات الأجنبية المواجهة إيرانية كانت أو هندية . لقد زاد البترول من الأخطار الأجنبية على هذه الهوامش ومن الأطماع الخارجية فيها ولكنه فى نفس الوقت استردها وكسبها ثانية للعروبة من خطر الضياع والتميع السياسى

تلك كلها أمثلة من دول عربية بترولية. ولكن هناك بعد هذا مناطق غير بترولية تخضع حتى الآن للاستعمار كالجنوب العربى برمته ابتداء من ساحل المعاهدات حتى عدن . ومن المحقق أن الاستعمار إنما يتشبث هنا ، حتى بعد أن زال المبرر الاستراتيجى القديم وهو الهند وتفتت المبرر الجديد شرق إفريقيا ، طمعا فى إمكانيات أو احتمالات بترول مأمول . أى أن وظيفة الاستعمار قد تطورت هنا من الموقع إلى الموضع ، وأن البترول بالتأكيد قد جدد شباب الاستعمار فى أجزاء من العالم العربى بدلا من أن يصفيه .

ولكن من المرجح أن ليس ثمة ما يوضح عجز البترول السياسى أكثر من فلسطين . لقد تعاصر ميلاد البترول تقريبا مع تاريخ صنع اسرائيل ، وكلاهما الآن فى سن المراهقة . ولئن كان من الصعب أن نتصور استخدام سلاح البترول السياسى عند خلق اسرائيل ، فمن المحقق أن حركة فدائية بترولية - حتى وإن بدت انتحارية - تقوم بها الدول العربية يمكن أن تفرض « تحييد » القوى الغربية التى تسند اسرائيل كإطار لا بد منه للمعركة الفاصلة .

ولكن الواضح حتى الآن أن البترول لم يكرس للإعداد « لحرب صليبية » من أجل فلسطين ، ولم يجند لإنشاء جيش فلسطيني قوى ، لا ولم يلعب أى دور معقول فى رفع مستوى اللاجئين العرب وهو أضعف الايمان .

ولنا فى هذا الصدد أن نذكر المساعدات الأجنبية التى يتلقاها العرب من الخارج لأن لها علاقة غير مباشرة بالبترول . ففى مؤتمر البترول العربى الرابع الذى عقد أخيرا فى بيروت أثيرت نقطة هامة وهى أن الولايات المتحدة تقدم للبلاد العربية سنويا أقل من ١٨٣ مليون دولار من المساعدات ، بينما يدخل لشركاتها البترولية العاملة فى المنطقة ٨٨٠ مليون دولار سنويا . والنقطة الهامة الأخرى التى لم تثر هى أن الولايات تأخذ هذا الدخل الخطير من العرب لتعيده ـ بطريقة غير مباشرة ـ إلى عدوة العرب الأولى اسرائيل فى صورة المساعدات والمعونات التى لا حد لها . إن الدور والدورة واضحان وإن كان بطريق غير مباشر : تأخذ الولايات المتحدة عائد بترول العرب باليسار لتقدمه لعدوة العرب باليمين : جريمة نقل دم غير شرعية ، مستترة وغير مستترة وهى غير شرعية لأنها تأخذ من المجنى عليه للجانى ، وهى مستترة لأنها تتم عن طريق ملتو ملفوف ، وهى غير مستترة لأنها لن تخفى فى النهاية على العرب مهما كان .

الانتهاء الذى لا مفر منه إذن هو أن البترول قد عقم سياسيا فى الميدان الخارجى كما عقم من قبل حضاريا واقتصاديا فى الميدان الداخلى . وتكاد تكون الأسباب واحدة فى الحالين . فقد حاول الاستعمار دائما أن يضعف من فاعلية البترول السياسية ويميع الوعى البترولى فى البلاد العربية التى خضعت له ، كما حاول من الخارج أن يتحكم فى أسعار البترول ، وهو يتلقف كل تطور فى الانتاج ليضارب به الدول العربية بعضها بالبعض كما

حدث بعد ظهور بترول المغرب العربى . كذلك كانت الشركات الاحتكارية تلعب دورا سياسيا تخديريا فى مناطق امتيازها وتحاول أن تشد الجانب السياسى للبترول بجلب أقليات أجنبية على نطاق كبير وبلا مبرر حقيقى . والواقع أن نفوذ الشركات فى الدولة بلغ حداً خطيرا يصل إلى مرتبة Extraterritorialities (١) يجعل منها ـ باعتراف بعض الكتاب الغربيين — « دولة داخل الدولة Imperium in imperia » حتى لتكاد تطغى على الدولة التى كثيرا ماتجد نفسها متهالكة أمامها ، وبهذا لا تصبح دولة داخل الدولة فحسب بل فوق الدولة . ولسنا نحن الكتاب العرب وحدنا الذين نقول هذا . فهذه جاكلين بوجيه — جارينيه تقول مباشرة :

«Politiquement, les concessions représentent un veritable état dans l'Etat, jouissant des droits d'exterritorialitê étendu, amenant du personnel étranger et reduisant incontestablement la souveraineté interieure des Etats.»(2)

ولقد وجهت إلى هذه الشركات اتهامات سياسية عديدة منها تخطى الدولة وسلبها جزءاً من سيادتها بالاتصال المباشر وعقد الاتفاقات مع شيوخ القبائل فى منطقتها — كما كانت الشركة البترولية العراقية تفعل مع شيوخ شمر ، وكما فعلت فى ترتيب العمل فى مناطق الأسرات الكبيرة فى لبنان عند مخارج الأنابيب . ومنها محاباة الأقليات القومية أوالدينية لأغراض التفرقة السياسية وتقوية مركزها ، كما وجه لشركة البترولية العراقية أيضا فى مفاضلتها للأكراد (٣). كذلك فقد ثبت تاريخيا أن الشركات تعاونا مع

---

(١) العبوسى . ص ١٠٣ .

(2) L'Econ. du Moyen - Orient, p. 117.

(٣) لونجريج .

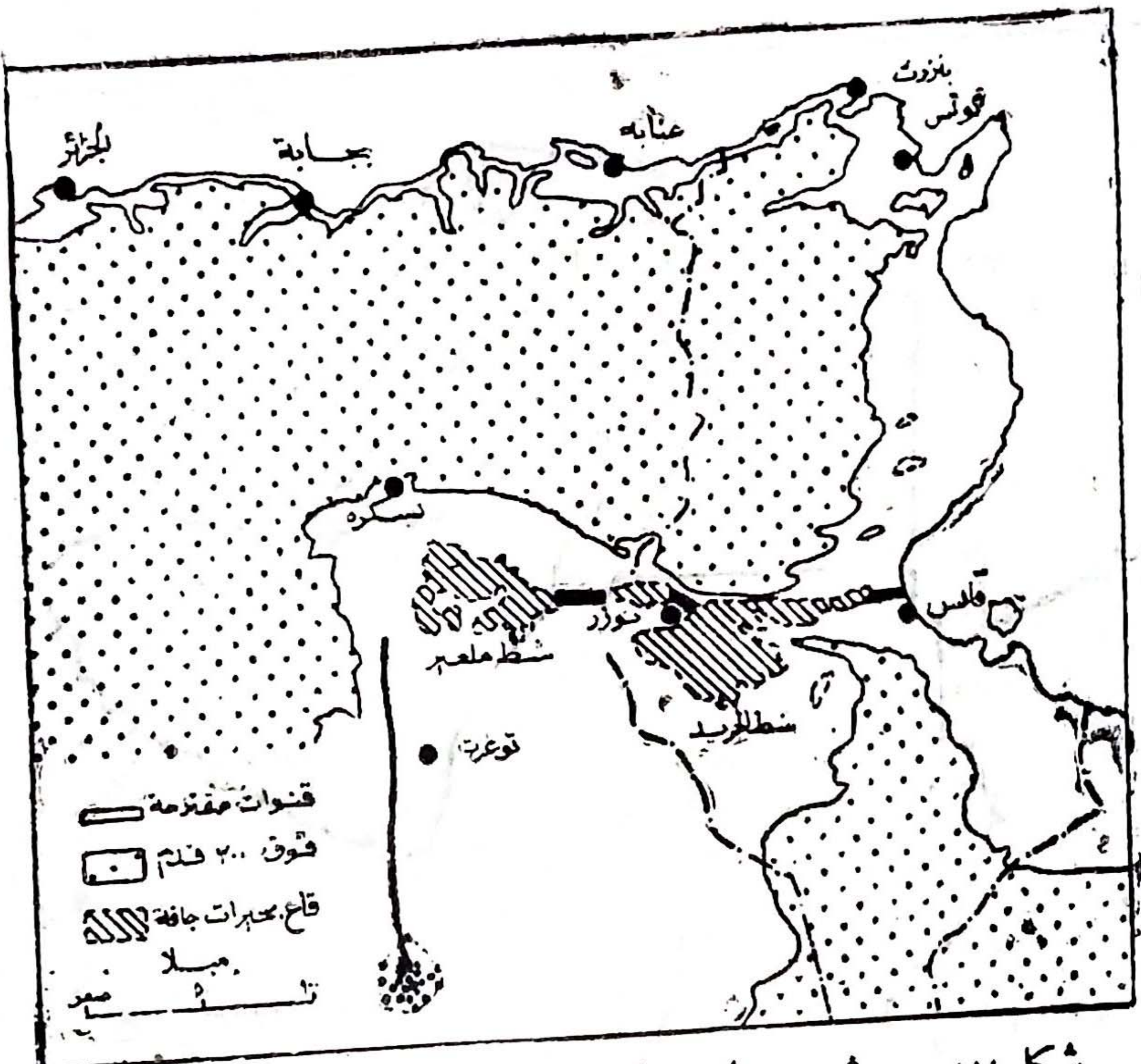
حكومات دولها الأمم الاستعمارية عملت فى أكثر من حالة على إسقاطها الحكم الوطنى فى كثير من البلاد العربية تحقيقا لمصالحها فى مد الأنابيب أو منح الامتيازات ... الخ .

وسلاح التحكم فى حجم الإنتاج سلاح آخر تسلطه الشركات على الحكومات بصورة سافرة وتمارسه خاصة ضد أى اتجاهات وطنية . والأمثلة عديدة تبدأ من تجميد الإنتاج فى العراق بعد أن أممت الحكومة شركة خانقين ، ولهذا نجد الإنتاج ثابت الحجم تقريبا بين ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ « كعقاب» للحكومة العراقية . ويتكرر الأسلوب مع السعودية فى السنين الأخيرة حتى لا تزيد عائداتها إلى الدرجة التى قد تشجعها على الخروج على سيطرة الغرب . وتمتد المناورة إلى المغرب حيث تعمل الشركات على تنمية الانتاج فى ليبيا بسرعة وعلى تباطؤه فى الجزائر لأن الجزائر تنتهج سياسية استقلالية عن النفوذ الأجنبي أقوى . ولسنا بحاجة إلى أن نضيف أن الضغط الذى تمارسه هذه الشركات فى هذا الصدد إنما هو وحى حكوماتها مباشرة . ومعنى ذلك أن شركات البترول العاملة فى العالم العربى هى أداة الضغط المباشرة التى تتخذها الحكومات الأجنبية للتسلط على الحكومات العربية . ولهذا قد لا يكون من المغالاة أن نتكلم عن « حكم الشركات » فى مثل هذه الحالات . والخلاصة النهائية أن القيمة السياسية للبترول قد حددها إما الاستعمار السياسى السافر أو الاستعمار الاقتصادى المستتر .

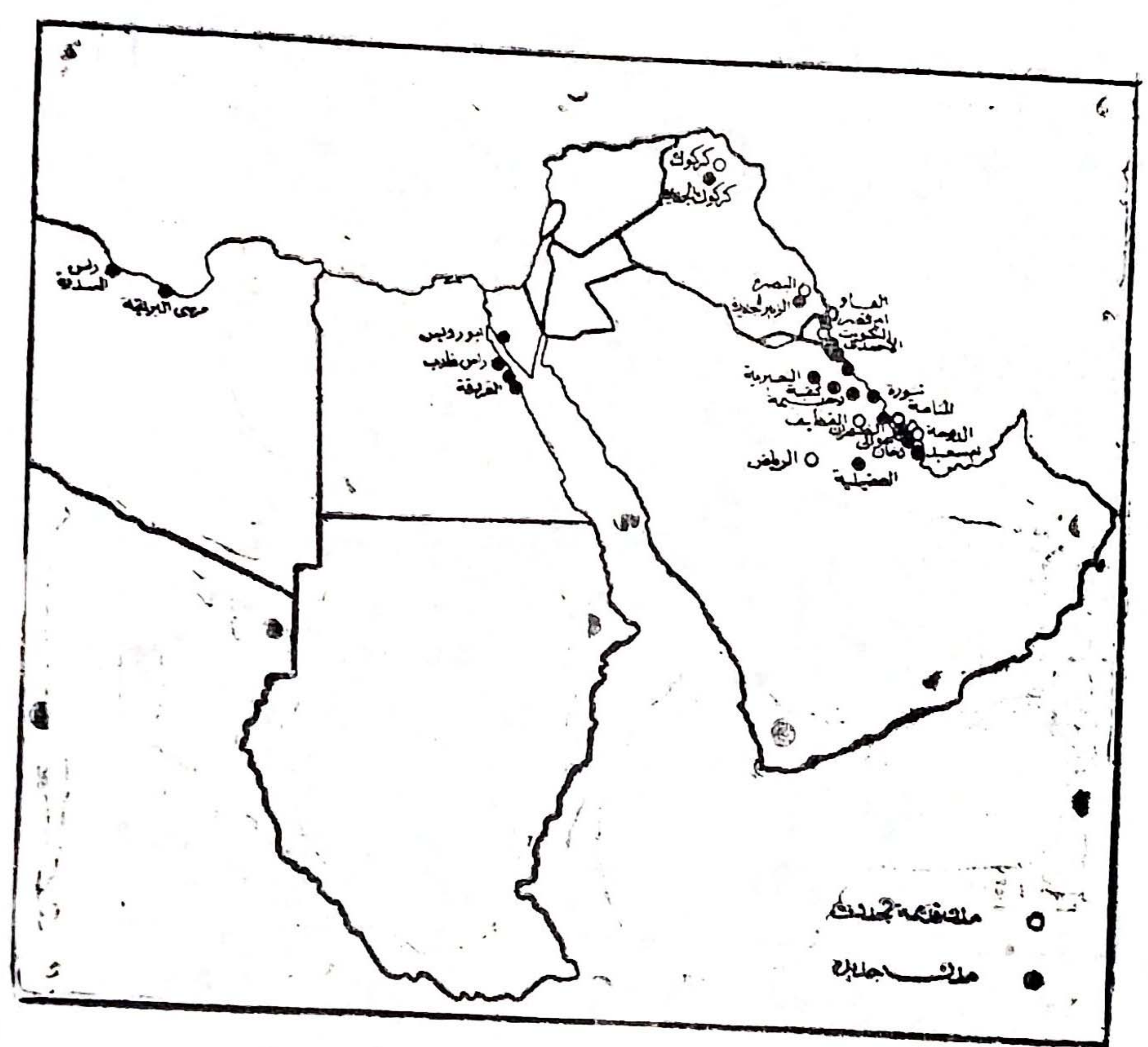
أما من الداخل فإن النظم السياسية المتخلفة المتعفنة أخطر على الفاعلية السياسية للبترول لأنها بكبتها الوائد تكاد تجرده من صفته السياسية وتجعله مجرد سلعة اقتصادية بدعوى الفصل بين العمليات التجارية والاعتبارات السياسية . والواقع أن الشركات الأجنبية أكثر استجابة للحاجات السياسية

من الاقطاع الحاكم ، بل كثيرا ما تحثه على مزيد من المرونة والتطور لا حبا فى الحركات الشعبية والقومية ولكن خوفا على مصيرها أن يكتسحها التيار مع الاقطاع . وأخيرا فإن التماسك السياسى بين الدول العربية نفسها أبعد ما يكون عن أن يجعل البترول مجالا لعمل سياسى مشترك موحد ، مما يسلبه البقية الباقية من فاعليته السياسية .

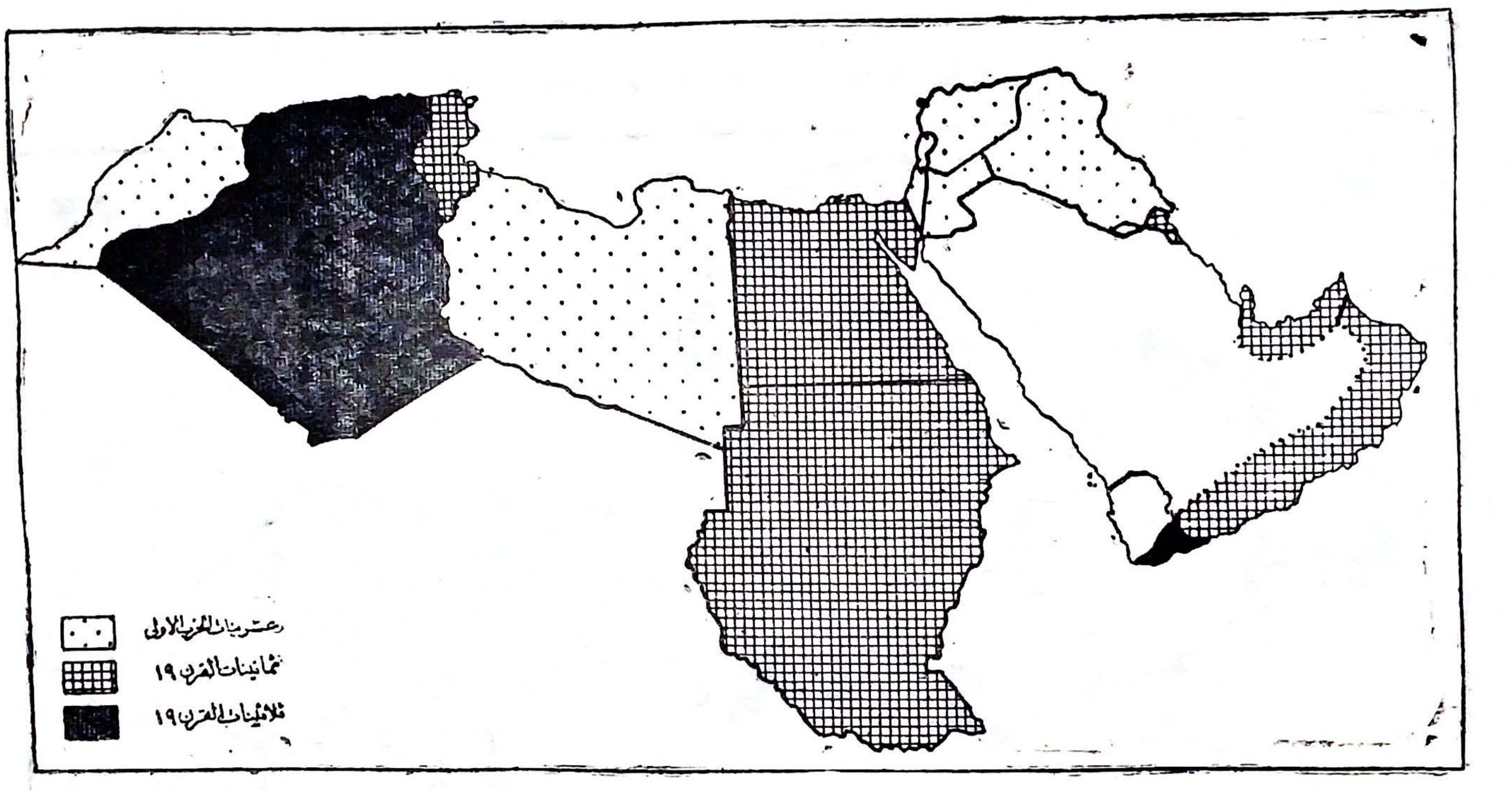
الخلاصة إذن أن نتائج البترول السياسية كانت متناقضة متضادة Ambivalent . فهو قد زاد من قوة المنطقة ووزنها السياسى عامة ورفع من طاقة التحرير وقدرته على تصفية الاستعمار — ولكن كل أولئك بالقوة أكثر منها بالفعل . فالواقع أن العالم العربى بعد البترول أصبح من المناطق القليلة فى العالم التى تجمع بين أهمية الموقع والموضع معاً . ولقد كانت نقطة ضعف المنطقة تاريخيا هى الفارق الكبير بين خطرها كعقدة للعالم وفقرها الداخلى . والآن وقد تضافرت الجغرافيا والجيولوجيا على إثراء المنطقة ، فكان ينتظر لها هيبة سياسية ووزن جيوبولتيكى أكثر مما تحقق لها بالفعل . ولكن السبب فى ذلك هو أن البترول لم يحسن استغلاله وتوجيهه سياسيا ولمصلحة المنطقة ولهذا أصبح أحيانا مصدراً لضعف وخطر ... فنحن إذن لسنا بإزاء قصور فى قوة البترول فى ذاته وإمكانياته التحررية ، وإنما إزاء تقصير مشين تفرضه الأوضاع الداخلية الرجعية والمتهالكة أو المتهافتة تسندها المصالح الاستعمارية الأجنبية .



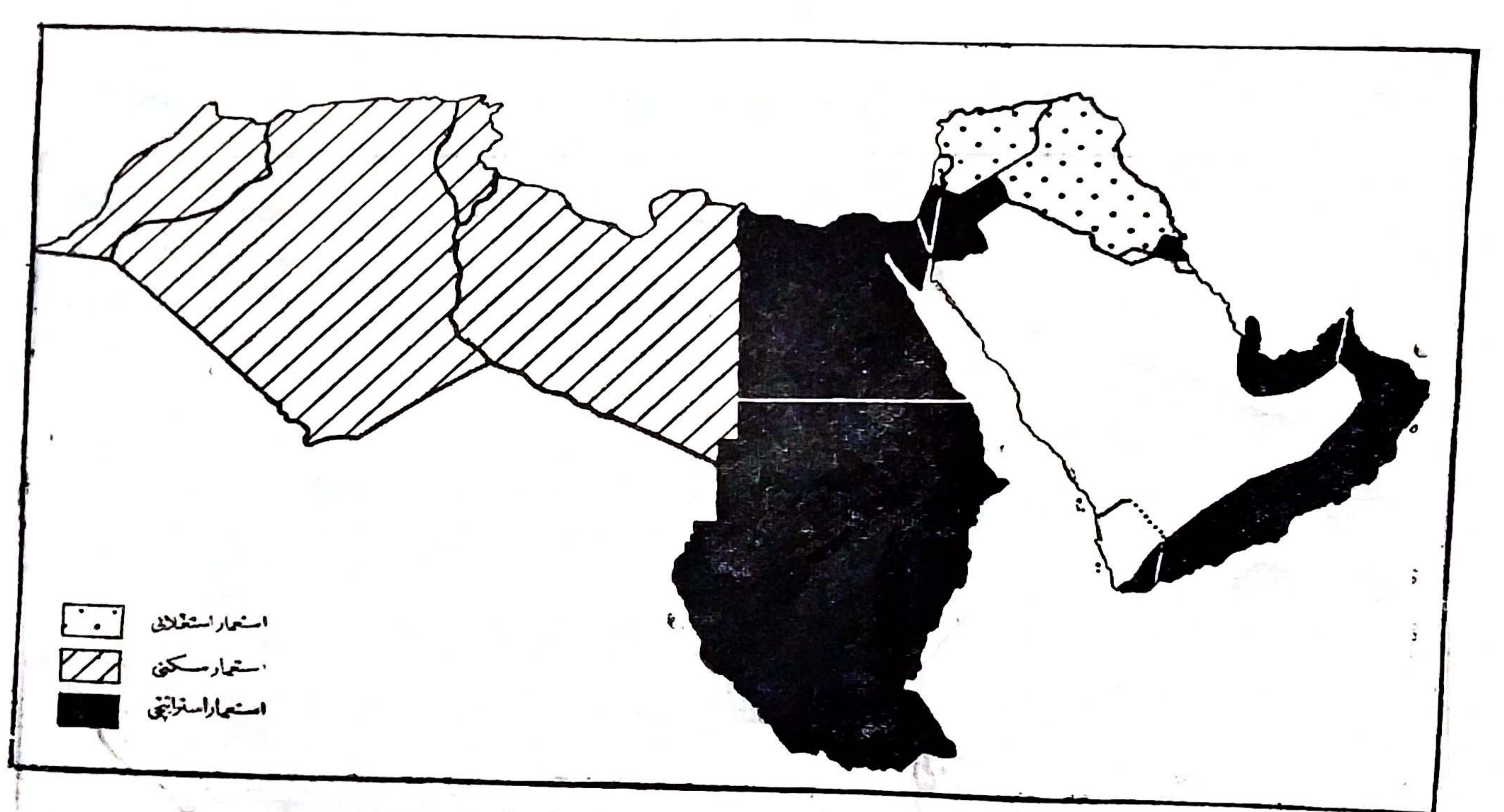
شكل ١٧ — مشروع لم يتحقق : نقل بترول الجزائر عن طريق بحر داخلي صناعي .
(عن هيس)



شكل ١٨ — مدن البترول فى العالم العربى



شكل ١٩ — تاريخ بداية الاستعمار فى العالم العربى . لاحظ التناظر الغريب بين المشرق والمغرب فى الموجات الثلاث .



شكل ٢٠ — أنواع الاستعمار فى الوطن العربى .

الفصل الحادى عشر

بترول العرب
فى الاستراتيجية العالمية

ظلت استراتيجية العالم العربى لفترة طويلة تتلخص فى معادلة بسيطة ولكنها صارمة وهى أنه كان منطقة ارتطام فى الصراع بين قوتين عظميين هما قوة البر شرقا والبحر غربا. والسبب فى هذا موقعها المتوسط الفريد. ومن هنا تردد كثيرا أن موقعنا هذا هو الذى جنى علينا وأغرى بنا المطامع الاستعمارية. وفى الفترة الأخيرة تغيرت على الأقل كثير من جزئيات هذه المعادلة فضعفت سيطرة الاستعمار على المنطقة وخرج من أغلب أجزائها. وهى تسعى الآن إلى أن تصبح منطقة حياد إيجابى وعدم انحياز بدل أن تكون منطقة ارتطام وتصادم.

بل لقد فقد الاستعمار معظم أرضه فى العالم كله. وضاع تفوق القوة البحرية على البرية فى القوة إن لم يكن العكس (؟) وأخطر من هذا أن بدأت استراتيجية جديدة تتجر ثم تتجوهر - الاستراتيجية الذرية التى يشك فى ظلها فى صحة أن نتكلم بعد الآن عن قوى بر وبحر بالمعنى التقليدى المفهوم. ولسنا نعرف بعد مدى هز هذه الاستراتيجية الكاسحة لقيمة عنصر الموقع الجغرافى عامة وموقع العالم العربى الاستراتيجى خاصة. ولكن المؤكد أن الموقع لم ينفسخ كلية. وأخيرا فقد ظهر البترول فى العالم العربى كهدف إستراتيجى حيوى فى حد ذاته، بحيث يمكن أن نقول إن أهمية المنطقة الاستراتيجية العامة لم تنقص بل زادت كثيرا فى الحساب الختامى[1].

---

(۱) جمال حمدان. دراسات فى العالم العربى. القاهرة، ١٩٥٨ ص ٢٦ - ٣٤.

والخط التاريخى الذى لا زال يمتد بين الإستراتيجية البرية — البحرية المتنحية والإستراتيجية الفضائية الذرية المتدخلة هو بالنسبة للعالم العربى خضوع أجزاء منه حتى الآن للاستعمار السياسى للقوة البحرية وارتباط أغلب الأجزاء الباقية به فى استثمارات وتسويق البترول ارتباطاً قد لا يختلف كثيرا عن نوع من الإستعمار الاقتصادى . وهذا من شأنه حتما أن يجذب انتباه القوة المعادية البرية إلى منطقة العالم العربى إن سراً أو علانية رغم محاولة المنطقة الخارقة فى عدم الإنحياز . ومعنى هذا أن المعادلة القديمة لا تزال تحتفظ ببعض مغزاها بالنسبة للعالم العربى رغم إرادته وإن يكن فى صيغة جديدة هى الاستراتيجية الذرية . وهذه حقيقة حيوية يخطىء كل من يحاول أن يغفلها ، وهى تجعل من استراتيجية البترول العربى — بالقوة على الأقل — استراتيجية صراع بين قوتين ، لا نقول بعد الآن قوة بحر وقوة بر ، ولكن كتلتين قطبيتين هما المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى . وسواء رضينا أو رفضنا ، فالبترول العربى يدخل فى حساب القوة وصراع القوة بين الكتلتين.

وجهة الغرب

فإذا بدأنا بالمعسكر الغربى وجدناه يسيطر على كل بترول المنطقة وعلى أجزاء من المنطقة . وهنا نلاحظ أن بريطانيا أقدم ممثلى القوة البحرية فى سيطرتها على المنطقة بدأت لاعتبارات الموقع الاستراتيجى ، بينما أمريكا أحدث ممثليها دخلت المنطقة أولا لاعتبارات الموضع البترولى . وبينما ارتبطت الأولى بالاستعمار السياسى ، يمكن أن نقول إن الثانية أقرب إلى الاستعمار الاقتصادى . ولكن تطورات الاستراتيجية العالمية أخذت تغير من هذه المواقف . فضياع الامبراطورية حول أغراض بريطانيا فى المنطقة

من الموقع إلى الموضع ، وقد تصادف لحظها أن مناطق « الاستعمار الساحلى » التى كانت هدفها الأساسى جاءت هى بعينها قوس البترول الرئيسى فى المشرق العربى . فوجدت نفسها ترث ثروة جديدة طافرة بعد ضياع ثروة قديمة مندثرة . هذا بينما لم تلبث الولايات المتحدة أن وجدت أن صراعها الكوكبى مع قوة البر الكبرى السوفيتية يجذبها إلى الاهتمام بالموقع الاستراتيجى للعالم العربى بعد أن كان مبدأ اهتمامها بالمنطقة هو البترول الموضعى . أى أن بريطانيا بدأت من الموقع والمواصلات ثم انتقلت إلى البترول أيضا ، بينما بدأت الولايات المتحدة من البترول ثم أخذت تتحول كذلك إلى الموقع الاستراتيجى .

ومنذ أن « فطمت » أوربا الغربية عن البترول الأمريكى لتناقص الرصيد الأمريكى إلى درجة الخطر ولأزمة العملة الصعبة ، أصبحت مسئولية تموينها بالبترول تقع أساساً على العالم العربى والشرق الأوسط . وقد كان انتعاش أوربا بعد الحرب ، وحياتها الصناعية بل اليومية الآن ، تعتمد تماما على بترول المنطقة . أما فى حالة الحرب فإن هذا الاعتماد سيكون ألزم وأكبر . وانقطاع هذا المورد لن يعنى الشلل الصناعى فى السلم وإنما الشلل الحربى العام فى ميدان القتال وسقوط خط الدفاع الأول عن الولايات المتحدة . (١) والمعسكر الغربى يدرك إدراكا مريرا درس الحربين الماضيين ويعلم علم اليقين أنه لم « يطف إلى النصر فيهما إلا على بحيرة من البترول » ، وأن « كل نقطة بترول تعادل نقطة من الدم » إلى آخر هذه الشعارات

---

(١) Hoskins, pp 189 ff.

انظر أيضا نصر السيد نصر ، « البترول والشرق الأوسط » المحاضرات العامة . الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٠٧ ، ص ٦٧ وما بعدها .

والأقوال المأثورة التى صكها ساسة الغرب أنفسهم . ولعل هذا يفسر كل استراتيجية الغرب وديبلوماسيته فى المنطقة فى الفترة الأخيرة وبالتحديد فى الخمسينات . فقد شهدت تلك الفترة سلسلة من الضغوط والمحاولات من قبل الغرب ليفرض نفسه وحمايته على المنطقة بصورة أو بأخرى ، وكان البترول طرفا جوهريا فيها جميعا كما يتضح من تتبع هذه المحاولات .

فأولا لا يمكن أن يكون خلق إسرائيل فى ١٩٤٨ بعد أن تأكد للغرب خطر العالم العربى بتروليا مجرد صدفة تاريخية ، وإنما هو على التحقيق زرع لأول وأكبر قاعدة استعمارية تضمن للغرب سيطرته على المنطقة وتهديده لها . ثم فى وقت ما كان هناك محاولات وحملات ديبلوماسية المطالبة بإشراف الأمم المتحدة على موارد البترول فى الشرق الأوسط أى فرض لون من الوصاية الغربية المشتركة على دول البترول . وكل مشاريع الدفاع التى تقدم بها مثل منظمة دفاع الشرق الأوسط MEDO (Middle East Defence Organisation) ثم مشروع حلف بغداد (الحلف المركزى فيما بعد Cento) ، وفكرة إدخال الكويت والبحرين فيه ، ونظرية « الفراغ » ، ومشروع الحكومة الأمريكية لمد شبكة من أنابيب البترول من الخليج العربى إلى البحر المتوسط - كلها كانت تدور حول البترول وضمان السيطرة على مصادره . بالمثل كان مشروع ضم إمارات الخليج الصغيرة كلها فى اتحاد فيدرالى تحت سيطرة بريطانيا(١) . ومحاولة الاستعمار البقاء فى المنطقة أطول مدة ممكنة كان يستهدف نفس الغاية كما فى الجزائر والخليج العربى .

وسياسة القواعد الحربية والنقط العسكرية فى المنطقة لا يفسرها مباشرة

---

(١) Birot & Dresch, p. 351.

إلا البترول . فقاعدة الظهران (الذرية ؟) فى قلب حقل البترول السعودى أقيمت لعدة أهداف معلنة ولكن الهدف الحقيقى هو حماية البترول . وقاعدة البحرين هى المكافىء البريطانى فى نفس النطاق . وقد أثبتت الحوادث أن القاعدة البريطانية فى عدن تخدم نفس الأغراض ولا تقتصر على السيطرة على شرق إفريقيا والجنوب العربى. ومن قبل كانت الحبانية فى العراق قاعدة جوية تحمى المصالح البترولية . ورغم أن القواعد البريطانية والأمريكية العدم (طبرق) ، هويلس Wheelus (طرابلس) وكاستل بنيتو (ادريس) سابقة للبترول فى ليبيا ، فإنها الآن أصبحت تؤدى نفس الوظيفة .

ولا شك أن جزءا من السبب فى إصرار فرنسا حتى الأمس القريب على احتلال بنزرت القاعدة البحرية يرجع إلى حماية مخارج البترول الجزائرى فى تونس . كما أن استقلال الجزائر أخيراً يترك قاعدة المرسى الكبير لفرنسا ١٥ سنة ـ بالتأكيد ضمانا جزئيا لمصالحها المشتركة فى بترول الصحراء . ولعل آخر مظاهر العلاقة الوثيقة بين البترول ومحاولات الاستعمار ما نراه اليوم فى الجنوب اليمنى المحتل . فمشروع اتحاد الجنوب العربى الاستعمارى الفاشل كان يحركه أساساً ضمان احتمالات البترول التى تواترت فى المنطقة . وأخيرا جدا ظهور مشروع فيدرالى جديد لولايات حضرموت يهدف إلى ربط سلطنتى القعيطى والكثيرى وربما مهرة ، لا لشىء سوى أن حضرموت بالذات هى التى تحقق وجود البترول بكميات هامة فيها بمنطقة ثمود . وحتى خارج العالم العربى مباشرة تهدف القواعد العربية إلى حماية البترول ، فقد أعلنت الولايات المتحدة أخيرا رسميا وبلا مواربة أن قواعد الصواريخ فى تركيا هى « حائط ذرى يفصل بين الشيوعية والبترول العربى » .

وليس بأحد حاجة إلى أن يذكر أن كل هذه القواعد قد يصبح أهدافا ـ يقولون

شرعية (كذا !) - للقوة المعادية حتى رغم حياد الدول العربية التى تقوم فيها . وحجتهم من الآن أنهم لا يستهدفون هذه الأرض وهذا الشعب ولكن تلك الشركة وذلك المنتج . والملاحظ بعامة أن بترول المشرق يتركز كله فى قوس البترول فى المشرق الأقصى ، أى أنه أبعد ما يكون عن نطاق النفوذ الحربى للغرب وأقرب ما يكون إلى المدى الحربى للشرق . بينما بترول المغرب العربى أدخل فى فلك الإستراتيجية الغربية المطلقة . وكما يقرر هوسكنز ، ليس من المؤكد أن يتمكن الغرب من أن يحتفظ بموارد البترول فى الشرق الأوسط فى حالة حرب ثالثة . وليس من بديل فى هذه الحالة إلا الالتجاء إلى تخليق البترول صناعيا من الليجنيت أو طفل الزيت oil shales الذى تملك منه أمريكا رصيداً هائلا ، ولكن المشكلة هى التكاليف الباهظة غير الاقتصادية والوقت الطويل(١) .

نظرة الشرق

أما عن المعسكر الشرقى فموقعه واستراتيجيته البترولية تختلف تماماً عن الغرب . فرصيده من البترول لا يقل عن ١/٢ الإحتياطى العالمى (٤٣٠٠ مليون طن من ٤١٥٠٠) أى نحو نصف ما يملكه العالم الجديد سواء فى الولايات المتحدة أو فنزويلا(٢) . ولكن « البترول الأحمر » كما يسمونه لا يبلغ حد الكفاية الذاتية فى الإنتاج فقط ، بل لقد أصبح الآن من أخطر

---

(١) ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢) لونجريج ص ٣٥٠ .

المناطق المصدرة للبترول لا سيما إلى شرق أوربا وغربها وذلك بسياسة الاغراق . فهو بعكس الغرب لا يقع تحت رحمة مصدر خارجي بعيد فى مجال البترول . ولقد أتى على الغرب حين من الدهر اعتقد فيه أن الاتحاد يعانى فقراً شديداً فى البترول حتى إنه لا يمنعه شيء عن الحرب الثالثة إلا هذا النقص . وقد اتضح الآن مدى خطأ هـــذه النظرية . وأغلب حقول الاتحاد السوفييتى البترولية يتمتع بالعمق الجغرافى الذى يحميها من الخطر الخارجي . ومن ناحية أخرى فإن الاتحاد يكاد يتاخم المنطقة العربية فلا يفصله عنها إلا برزخ ضيق من إيران وتركيا لا يقوم فى حساب الطائرات والصواريخ إلا بالدقائق . أما بالنسبة للعالم العربى والشرق الأوسط ، فقد كان للاتحاد السوفييتى اهتمام استراتيجى قديم بالمنطقة قبل البترول ، ويرى البعض أن هذا الاهتمام لم يقل بل لا بد أن قد زاد بعد البترول(١). وفى حالة الحرب الكاملة لا يمكن أن تقل أهداف الاتحاد بالنسبة لبترول الشرق الأوسط عن الهدف السلبي على الأقل — ويقصد به حرمان الغرب منه لأن هذا وحده يمكن أن يعد نصف النصر .

وقد حلل هو سكنز منذ سنوات استراتيجية الموقف بصورة واضحة . فهو يرى أن سيطرة السوفيت على منطقة الشرق الأوسط وبترولها من شأنها أن تضاعف من حماية آبار الزيت الروسية فى القوقاز ، وذلك أن امتداد النفوذ الروسى إلى الشرق الأوسط يوسع دائرة الدفاع عنها بتحييد كل القواعد العسكرية والجوية التى يمكن أن تخرج منها الطائرات المعادية . وأهم من هذا الاستيلاء على أعظم نطاق بترولى فى العالم . حتى إذا لم ينل هذه

(١) هوسكنز ص ٢٢٩ .

الحقول سليمة ، فمن الممكن إنقاذ بعض الانتاج إلى جانب الأنابيب الثمينة والمصافى . ويتساءل هوسكنز بعد هذا عن كيف يمكن استخدام هذه الموارد مباشرة فى نقل البترول إلى الاتحاد السوفييتى . فيرى أن نقله عبر الجبال فى عقدة غرب آسيا حتى إذا وجدت الأنابيب إنما هو ضد الجاذبية والجغرافيا الطبيعية كما هو ضد الزمن والجغرافيا الاقتصادية . بينما نقله بالناقلات عن طريق البحر المتوسط والأسود يعرضه لقوة الغرب الجوية . ولكن الواقع أنه لم يعد مجال لهذا السؤال : بعد أن أصبح الاتحاد مصدراً ضخماً للبترول . وعلى العموم فالكاتب ينتهى إلى أن الأرجح أن زيت الشرق الأوسط تحت النفوذ السوفييتى سيوجه إلى محاولة السيطرة على المحيط الهندى وسواحله حتى الهند شرقاً وشرق إفريقيا غرباً (١).

... ووجهتنا نحن

تلك هى استراتيجية البترول العربى كما تتشكل فى ميزان القوى العالمية . ولكن يتبادر إلى الذهن توا اعتراضان . أولا أن هذا التحليل ينبع من فلسفة استراتيجية تقليدية غير ذرية . فقد تغنى الأسلحة الذرية والصواريخ عن الحاجة إلى ضرب البترول فى مصادره فى الحقول أو حتى فى طريقه البحرى إلى وجهته . وقد تكون حرباً خاطفة تتحدد فى عقر المعسكرين دون أن تتعداهما إلى المناطق البينية . ومع ذلك فإن من الصعب التكهن بصورة الحرب الذرية ومغزاها بالنسبة لثروة استراتيجية إقليمية كالبترول العربى. كما أن من المرجح ألا تلغى الاستراتيجية القديمة برمتها أمام الجديدة.

الاعتراض الثانى أن هذا تحليل يغفل المنطقة نفسها تماماً ويأخذها كعامل سالب أو مجرد منطقة ارتطام زمامها خارجها وينظر إليها مـــن

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

فلسفة سياسة « الإحتواء والاحاطة » . وربما كان يصح هذا التفكير منذ عقد أو بعض عقد ، ولكن اليوم وقد طفرت المنطقة بثوراتها التحررية وحركتها القومية وتدعمت بالقوة الذاتية عاد الأمر مختلفاً جداً . والمؤكد أن مبادىء الحياد الايجابى وعدم الانحياز ستترجم إلى موقف بترولى محدد فى حالة حرب المعسكرين يرغمهما على احترام هذا الحياد . أما كيف يتم هذا فيتوقف كثيراً على مدى الوعى السياسى والتماسك والتضامن بين العرب ويعود بنا مرة ثانية إلى موضوع العلاقات الداخلية بين العرب إزاء بترولهم .

على أن الدرس الذى يبرز هنا هو أن الموضع ـ البترول ـ الذى ينبغى أن يكون خيراً على أصحابه وقوة لهم ، يمكن ـ كالموقع الجغرافى من قبل ـ أن يكون خطراً على كيانهم واستقلالهم. ولو أننا نلاحظ هنا أن الخطر الاستعمارى الذى يحتمله البترول يختلف فى نوعه عن الخطر الذى حمله الموقع . فالأول خطر الاستعمار الاقتصادى ، بينما كان الثانى استعماراً سياسياً . والفارق لا يرجع إلا إلى طبيعة وروح العصر وتطور الأساليب السياسية ما بين منتصف القرن ١٩ ومنتصف القرن ٢٠ . وعلى العموم ، فلا ضمان للدول العربية فى الحالين إلا ببناء قوة كبرى أصيلة تكون رادعة لأى أطماع ممكنة من الخارج وتفرض عليها احترام حيادها الإيجابى . ومن حسن الحظ أن هذا أصبح ممكنا لأول مرة فى تاريخ المنطقة بعد أن ازدوجت قوتها بالموقع والموضع . . ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا بأكبر قدر من البصيرة السياسية والتضامن الفعال بين العرب . وهو ما ينقلنا إلى مكان البترول فى السياسة الداخلية بين العرب .

الفصل الثانى عشر

البترول فى السياسة الداخلية بين العرب

البترول وتوزيع القوة السياسية بين العرب

لعل أول ما فعل البترول بين البلاد العربية أنه أعاد توزيع الأثقال والأوزان السياسية فى المنطقة . فكما كانت الحال قبل البترول من الناحية الحضارية ، كان العالم العربى من الناحية السياسية يشكل فى مجموعه إقليما سياسيا واحدا متجانسا أو شبه متجانس فى ملامحه السياسية وفى علاقاته الخارجية ، ولكن كانت الدول الزراعية تمثل قلب هذا الإقليم ونواته ، بينما لم تكن دول الصحراء فيه أكثر من هامش يقع فى منطقة الظل السياسى ، ولم يكن كيانها السياسى سليما أو ثابتاً . فحتى السعودية فى أوائل نشأتها وحتى البترول لم تنج من نوع من الوصاية البريطانية فكانت دولة على المعاش البريطانى كما سبق أن أشرنا . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إذا اعتبرنا «الصرة» السنوية فقد يمكن أن يقال إنها كانت على المعاش المصرى كذلك . أما الأردن فهى تقليديا دولة على المعاش البريطانى - والأمريكى أخيرا ، ودولة عجز دائم . وأخيرا ما كانت ليبيا لتسير كدولة مستقلة لولا المعاش البريطانى والأمريكى ومساعدات الأمم المتحدة . هكذا كانت دول الصحراء دولا لافقرية سياسيا واقتصاديا وتمثل « سندرلات » العائلة العربية. وعلى العكس من ذلك كانت القوة السياسية تتبع القوة الاقتصادية ، فكانت مركزة فى النطاق الزراعى بعامة ، مستقطبة فى مصر خاصة حيث كانت الوحيدة صاحبة المحصول التجارى الكبير . ولهذا كانت الزعامة والقيادة

السياسية هي للدول الزراعية بلا تردد ، يساعدها على ذلك تقدمها وتطورها الحضارى واحتكاكها الطويل بالعالم الخارجي .

أما بعد البترول فقد حدثت بالضرورة إعادة توزيع فى القوى السياسية داخل العالم العربى . وإذا كان أغلب البترول العربى صحراوى الموقع ، فليس معنى هذا أن كل دول البترول صحراوية ، كما أن دول الصحراء ليست كلها بترولية . ولهذا ينبغى أن نصنف القوى السياسية فى العالم العربى بتروليا إلى مجموعات أربع :

دول زراعية بلا بترول : مصر ، تونس ، المغرب ، وحدات الشام ،اليمن ، السودان .
دول الزراعة والبترول : العراق ، الجزائر .
دول البترول الصحراوية : السعودية ، الكويت ، قطر ، البحرين ليبيا ، أبو ظبى .
دول الصحراء بلا بترول : الأردن ، شياخات الخليج .

ولئن كانت دول الزراعة بلا بترول كالنجوم الثابتة تلمع فى ميدان السياسة فى هدوء مستمر فإن دول البترول الصحراوية جاءت كالشهب والنيازك : أكثر ضجة وأشد بريقا إلى حين، ولكنها قصيرة العمر لا تلمع إلا لتخبو. الأولى تمثل القليل الدائم والثانية هى الكثير المنقطع . وهنا ينبغى أن نتذكر ما سبق أن لاحظناه من تعارض أسى بين أحجام السكان وثروات البترول فى الدول العربية المختلفة ، ذلك التعارض الذى يجعل من عمالقة العرب أقزام البترول ومن أقزام العرب عمالقة البترول . إنه هو هذا التناقض وحده الذى أوحى للبعض أو بالأحرى أوهمهم أن ميزان القوى قد اختل داخل العائلة العربية . ومع ذلك فمن الخطأ أن نتصور أن نمط القوة التقليدى

قد اختل تماما ، فلازالت خطوطه الرئيسية كما هى ، ولازالت دخول الدول الزراعية القديمة أعلى بكثير جداً من دخول أكبر الدول البترولية الجديدة . كما أنه ليس بالدخل القومى وحده تقاس القوة السياسية . كذلك فيما بين الدول الزراعية ، قد تكون دول الزراعة والبترول أسعد حظا من دول الزراعة بلا بترول ، ولكن ليس من المحتمل أن تتغير الأوزان السياسية بينها أيضا لنفس الأسباب .

والتغيرات الممكنة فى هذا المجال محدودة . فمثلا لا يمكن لأى قدر من البترول فى أى جزء من العالم العربى أن ترجح كفته فى الميزان السياسى بما يقرب به من مصر اللابترولية وذلك بحكم عامل السكان والانتاج . وقد تبدو الآن تطلعات تونس للقيادة فى المغرب العربى أمراً غير مفهوم أكثر من أى وقت مضى بعد أن أخطأها البترول . بينما يبدو أن الزعامة السياسية فى المغرب ستؤول بلا تردد إلى الجزائر المستقلة التى تساوى دولة المغرب حجما وسكانا ولكنها تفوقها بالبترول والإرث الثورى. أما دول الصحراء بلا بترول فلم يعد منها فى العالم العربى تقريباً إلا الأردن ، التى تظل لذلك دولة اصطناعية بحتة بلا قاعدة إقتصادية . وثمة نقطة هامة يجب ألا نتجاهلها فى هذا الصدد : فالبترول دائم المفاجآت ، وقد تحرم منه دولة اليوم ولكنه يتفجر فيها غداً . ولهذا فأثره على توزيع القوة السياسية ليس أبديا فى نمطه . . .

ومعنى هذا كله أن ما أحدث البترول ليس انتقاصا من الثقل والوقع السياسى للدول القديمة ، بقدر ما هو إضافة إلى أوزان الدول الجديدة . وهو لذلك لصالح العالم العربى فى مجموعه ككل أكثر منه على حساب قواه السياسية الكبرى التقليدية . ومع ذلك فقد تصور حكام بعض الوحدات

العربية البترولية - أو صور لهم - أن معنى هذا أن يتطلعوا إلى الزعامة السياسية فى العالم العربى ، ورغم أن هذه قضية ينبغى ألا تثار فى مجتمع سياسى من أشقاء فإن مثل هذه الدعاوى لا يمكن إلا أن تسخر منها الجغرافيا ويستنكرها التاريخ . والواقع أن هذا من إيحاء وايعاز الاستعمار الخارجى الذى يحاول أن يصور الوضع على أن هناك - بتروليا - معسكرين داخل العالم العربى : « الذين يملكون والذين لا يملكون » ، وذلك للإيقاع بين الدول العربية وإثارة الأحقاد المحلية وخلق زعامات اصطناعية منافسة .

دور البترول فى مشاكل الحدود والمشاكل الإقليمية

رأينا أن البترول لعب دوراً على يد الاستعمار فى تخطيط بعض الحدود العربية ، ولكن ما أثاره البترول من مشاكل سياسية بين الجيران الأشقاء فيما بينهم لا يقل خطراً وأهمية . وسواء ارتد هذا إلى نقص فى الحكمة السياسية عند بعض الحكام أو إلى المؤثرات الاستعمارية ، فالشىء الثابت هو أن البترول هو موضوع الخلاف . ولا بد أن نذكر أولا حقيقتين أوليتين أو ثلاثا فى هـــذا الصدد . فالحدود السياسية الشكلية طارىء جديد على اللاندسكيب السياسى العربى . فمع سيادة الصحراء وسيولة القبائل ، لم تكن الأرض فى كثير من الجهات أكثر من أرض بلا مالك No man's land أو على الأكثر أرض بلا ساكن Nomad's land . ولكن مع تفجر البترول واحتمال تفجره فى أى رقعة اكتسبت المناطق الصحراوية فجأة أهمية سياسية كبرى . وأصبحت تخومها العائمة مشاتل المشاكل . وبوجه عام تعد الحدود السياسية أسبق من البترول فى معظم الحالات ، ولكن حيث حدث العكس برزت خطورة الموقف كما بين السعودية ودويلات الخليج أو بين السعودية والجنوب العربى . هذا أول .

ثانياً ثمة أمامنا حقيقة جغرافية كبرى فى خريطة توزيع البترول فى العالم العربى لها مغزاها السياسى الخطير . قد يكون البترول ساحليا وقد يكون داخلياً فى موقعه الجغرافى ، ولكنه فى موقعه السياسى يتركز فى كل دوله على الهوامش والأطراف — على الحدود السياسية سواء فيما بين العرب أو بين العرب وجيرانهم . ففى العراق تنصف الحدود بعض الحقول تنصيفاً (نفط خانة) مع إيران — بل كانت هذه المنطقة أصلا جزءاً من فارس ثم ضمت إلى العراق العثمانى قبل الحرب الأولى . كذلك لا تبعد حقول عين زالة عن الحدود التركية إلا قليلا . وفى السعودية والكويت يقع البترول على الحدود المشتركة ، بينما فى السعودية يقع قرب الحدود مع ساحل المعاهدات من الجهة الأخرى. وفى مصرقد يبعد عن الحدود ولكنه يظل على الأطراف. وفى ليبيا والجزائر تكاد الحدود تنصف الحقول مرة أخرى .

والغريب أن البترول فى هذا كله لا يقترب من البحر لينال ميزة اقتصادية إلا فقد ميزة سياسية وهى العمق الجغرافى بالنسبة للجيران . ذلك أن خطا يبعد عن حدود العرب فى المشرق بما لا يزيد عن ٥٠ كم فقط يضم كل بتروله مما يشكل خطرا استراتيجيا واضحا . هذا بينما فى المغرب حيث يبتعد عن البحر ويتعمق جغرافيا ويفقد بذلك ميزة الموقع الاقتصادى لا يكسب سياسيا لأنه لا جيران مباشرين هنا من ناحية البحر . بمعنى آخر إن الأنسب السياسى والأنسب الاقتصادى لا يجتمعان مع الأسف لموقع أى من حقول بترول العرب .

ثالثا — لقد رأينا أن توزيع البترول بين الوحدات السياسية العربية أنى أبعد ما يكون عن العدالة ، بل قد نضيف عن المنطق . وسواء كان هذا أو ذاك ، فالشىء المؤكد هو أن هذه العشوائية جاءت نتيجة لتفاعل عاملين

هما الصدفة الجيولوجية من أسفل والصدفة السياسية من أعلى . وليس لنا أن نجادل فى الصدفة الجيولوجية ولكن الصدفة السياسية محل نظر . فالذى يتعمق التفكير فى خريطة العرب السياسية واجد أن واحداً من أبرز ملامحها كان وبظل فصل الجبهة الساحلية عن الظهير الداخلى . كان ذلك واضحا فى المغرب (مراكش) ولا يزال قائما فى المشرق على طول جبهة الخليج العربى والجنوب العربى ابتداء من الكويت حتى عدن . ولقد كان هذا هو خلاصة « الاستعمار الساحلى » ومن مخلفات الاستعمار البحرى الاستراتيجى بوجه خاص .

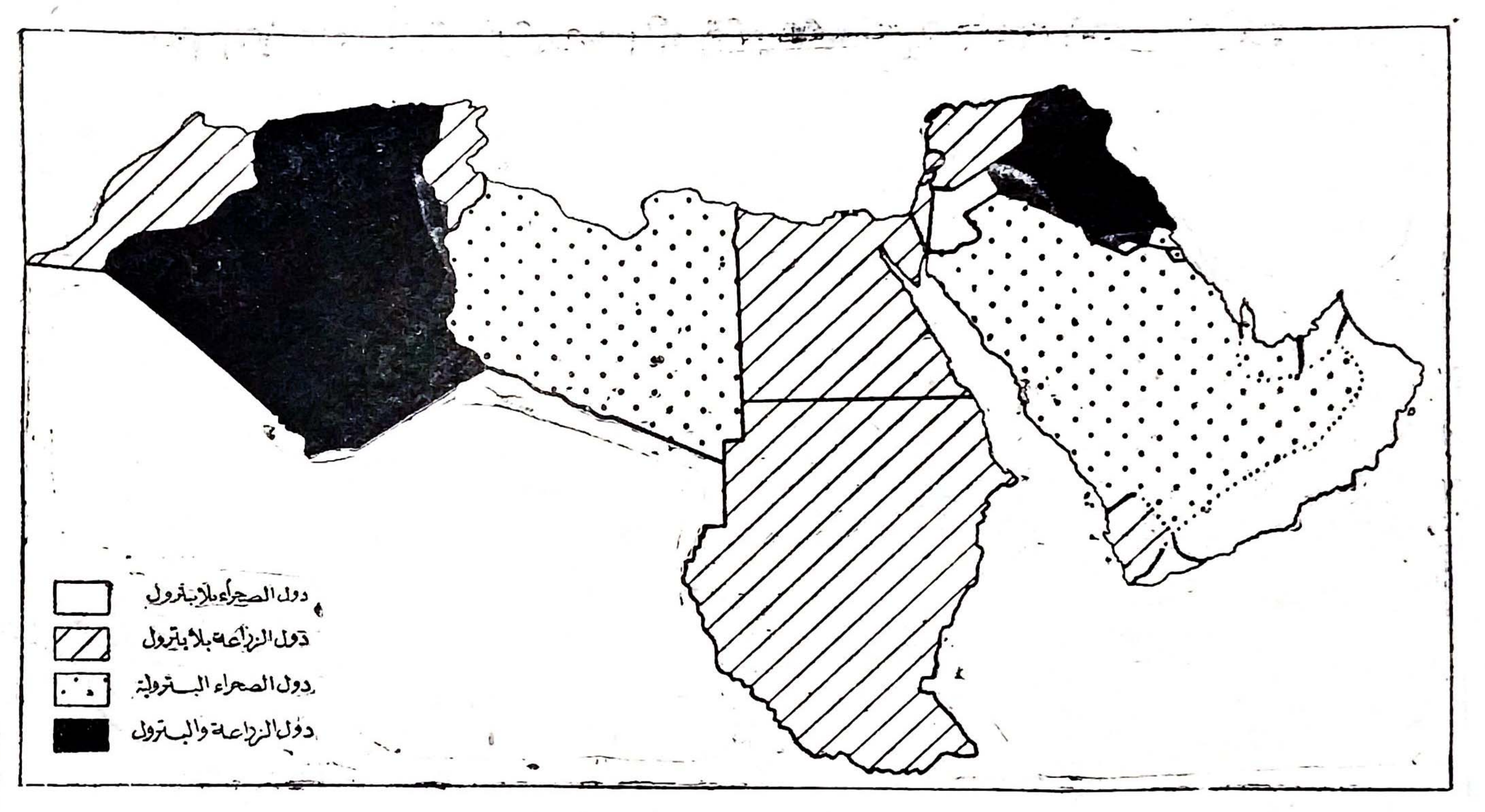
وحين فرض هذا الفصل لم يكن أحد يعلم ما يمكن أن يحمل من معنى ونتائج فى المستقبل . فالذى يتفق هو أن الأحواض الرسوبية التى هى وحدها مهد البترول هى تكوينات ساحلية أساساً . ولهذا فحين أتى دور البترول أصبحت الوحدات القزمية الساحلية هى صاحبة البترول بينما حرمت منه وحدات الظهير الداخلى المترامية الضخمة . وإذا كان هذا الفصل قبل البترول بمثابة اختناق سياسى لوحدات الظهير الداخلى ، فإنه بعد البترول قد أصبح فصلا اقتصاديا للرأس عن الجسد واختناقا ماديا . من هنا كانت الفروق المادية المحمومة بين وحدات الساحل والداخل .

وطبيعى أن يترك هذا أثره فى النفوس : فوحدات الساحل الضئيلة المحظوظة أصبحت تخشى على نفسها من أطماع الغير حتى لقد ارتمت أحياناً فى أحضان الاستعمار القائم بها تتشبث به لحمايتها ، بينما أن وحدات الداخل المترامية المحرومة بدأت تتطلع إلى نصيبها من هذه الثروة العشوائية غير المنطقية ولم يخل الأمر أحيانا من تحرشات وأطماع . وقد يتفق الطرفان أحيانا على التهدئة بنوع من الرشوة السياسية كأن يقدم الأول قروضا سخية

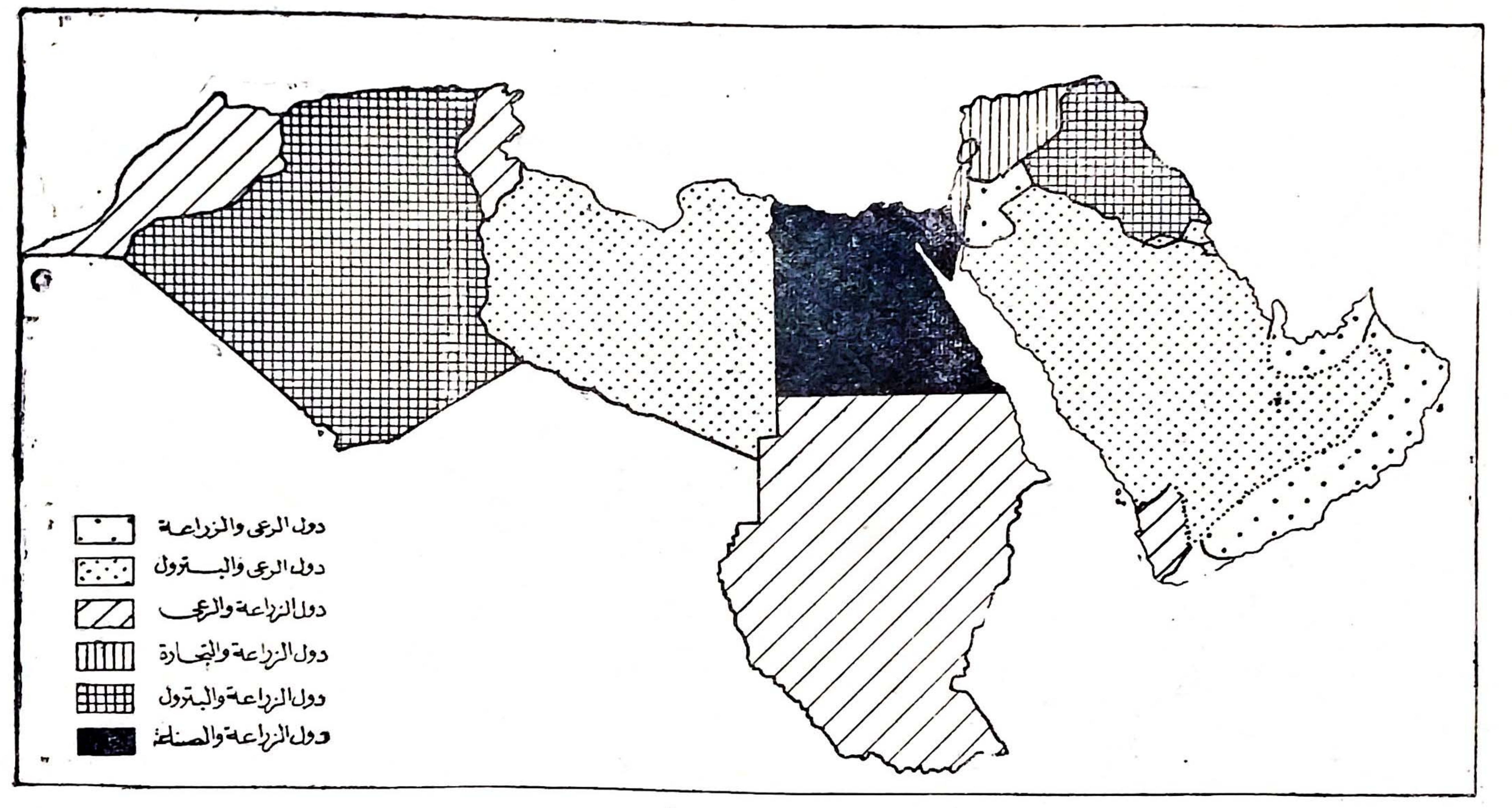
للثانى . ولكن هذا لا ينفى تشخيص الأزمة بقدر ما يؤكدها . وكلا الموقفين غير عربى سياسيا وغير علمى موضوعيا . ولنا أن نتساءل عن موقف دولة كالسعودية لو لم يكن لها جبهة الحسا البحرية البترولية وكانت مرصعة على حدودها بشريط من دويلات إيالية قزمية متخمة بالبترول . . إنها - وهى التى تكونت أصلا بالغزو والضم - كانت لاشك ستنفجر بالتوسع والقوة . كذلك فنحن نرى اليوم أن البترول كشف بكميات قيل ضخمة فى حضرموت وغيرها من الجنوب « اليمنى » المحتل ، وقد يأتى اليوم الذى تتحول فيه دويلاته إلى أثرياء بترول بينما البلد الأم اليمن فى الداخل محرومة منه .

ومن الطريف أن نلاحظ عكسا للقاعدة العامة ظهر أخيراً فى عمان . فقد ظهرت دلائل البترول فى عمان الداخلية فى حين لم تظهر فى مسقط الساحلية . وهنا لجأ الاستعمار الساحلى وقد خانه الحظ إلى الاعتداء على الوحدة الداخلية عمان باسم مسقط . فهنا الطمع ليس من قبل الداخل فى الساحل وإنما العكس . ولعل من الطريف والغريب أيضاً أن نلاحظ كيف أن فصل الجبهة الساحلية عن الظهير الداخلى لا يتفق إلا حيث يكون البترول ساحليا كما فى الجزيرة العربية من الخليج العربى إلى عدن ، بينما فى المغرب فى ليبيا والجزائر حيث يتفق أن البترول داخلى الموقع كثيراً لا يوجد أصلا فصل سياسى بين الساحل والظهير . ولو كان توقيع البترول أو التمزيق السياسى قد أتى عكس ما جاء لتغيرت المصائر والنتائج الاقتصادية والسياسية تماما .

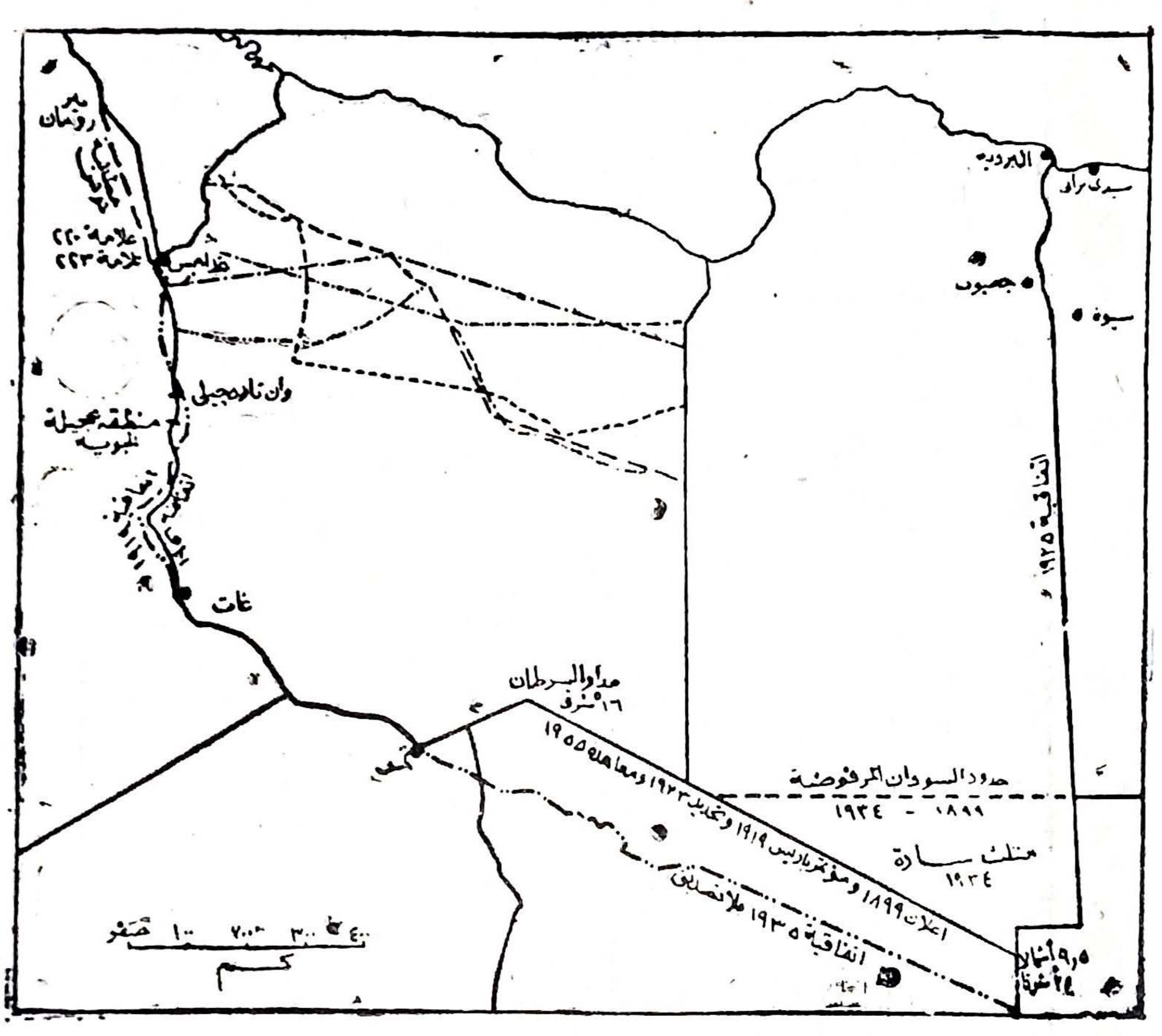
وتتفاوت هذه الحقائق من حيث خطورتها السياسية . فموقع البترول



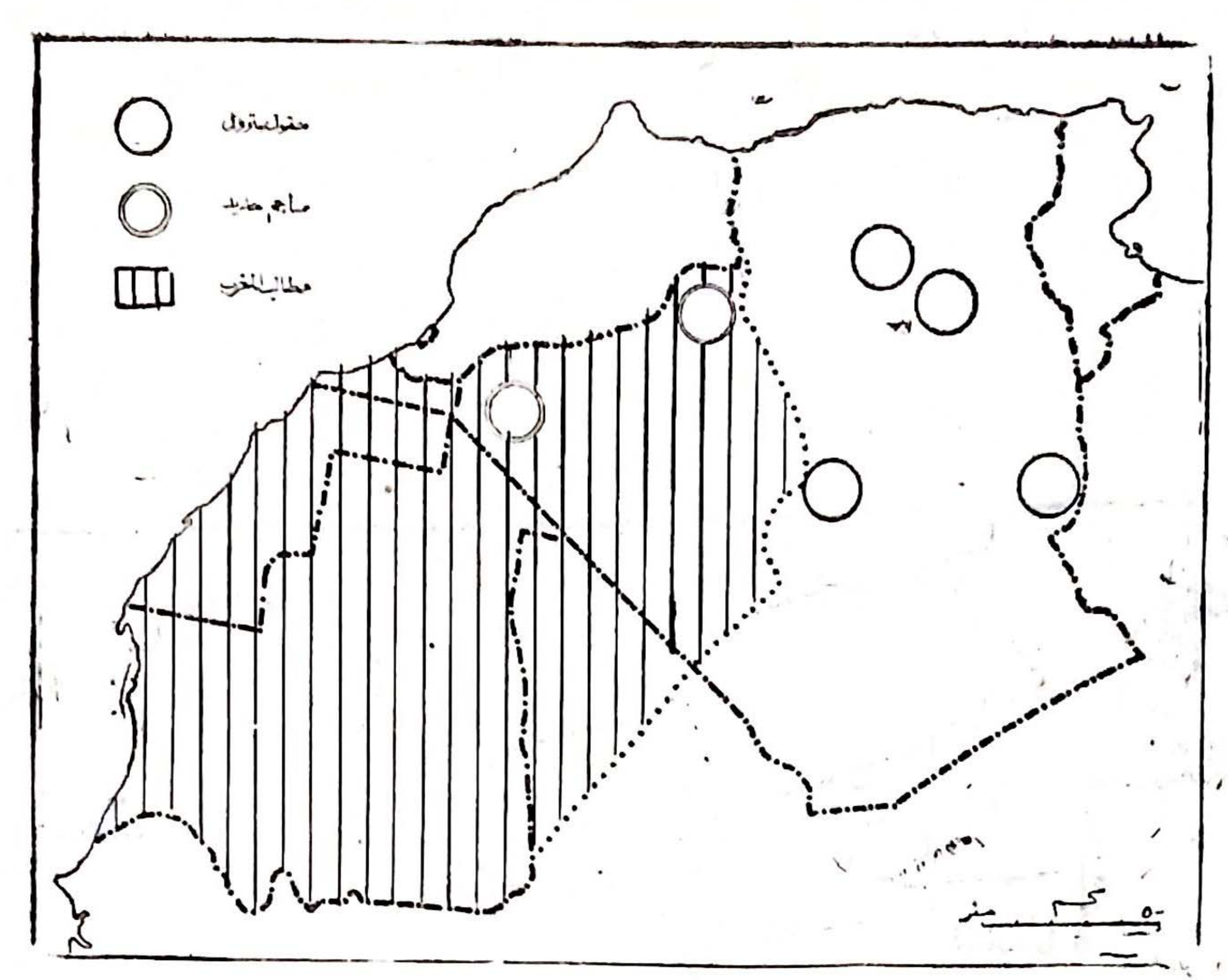
شكل ٢١ — تصنيف الدول العربية بحسب الزراعة والبترول



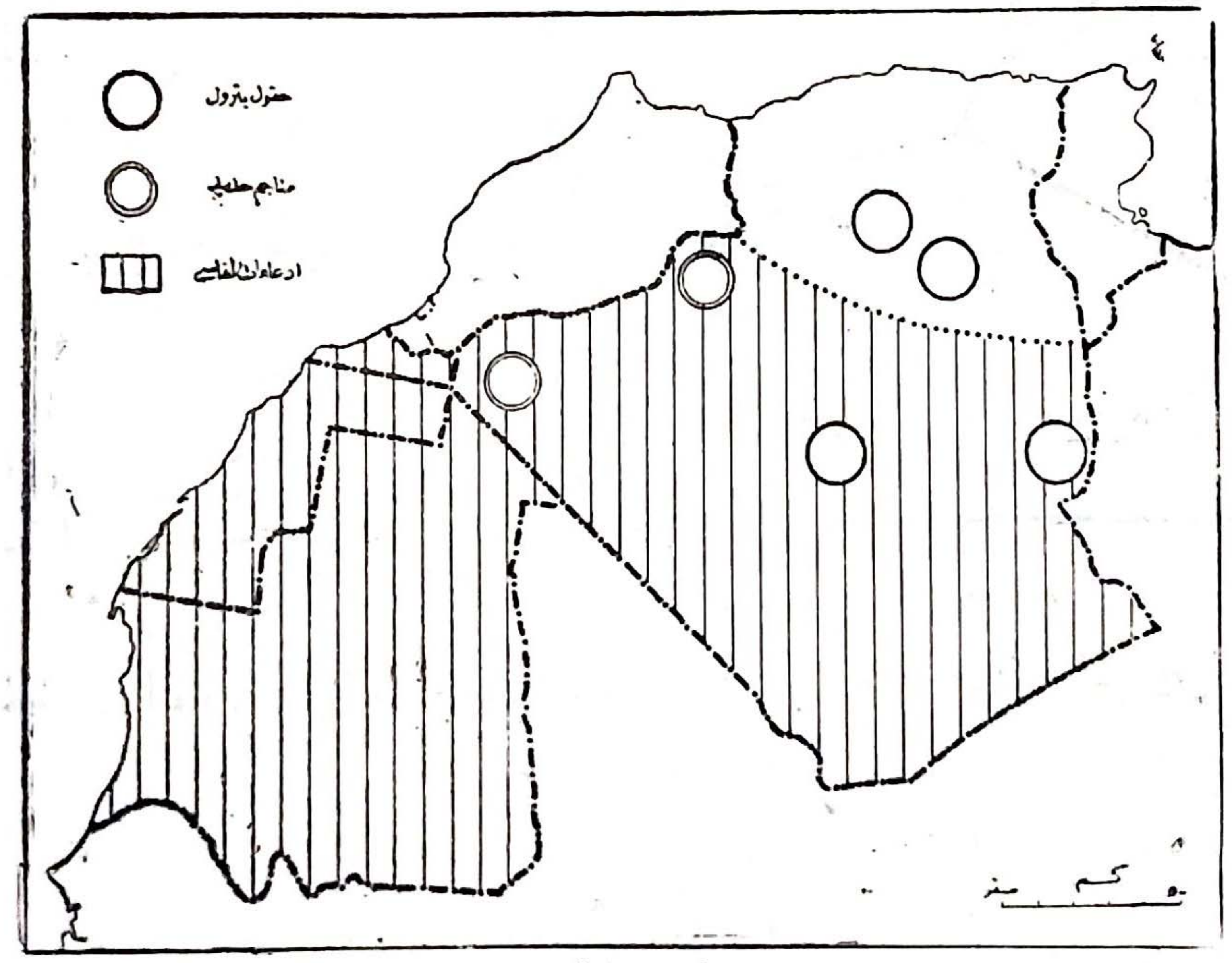
شكل ٢٢ — تصنيف اقتصادى آخر للقوى العربية على أساس المركب الوظيفى ودور البترول فيه .



شكل ٢٣ — تغيرات الحدود السياسية في ليبيا ومغزاها البترولي .
الخطوط المتقطعة تمثل التفسيرات المختلفة للحدود الداخلية بين طرابلس وفزان .



شكل ٢٤ ـ إدعاءات « مراكش الكبرى » :
خريطة حكومة المغرب (عن باربر)



شكل ٢٥ — إدعاءات « مراكش الكبرى » : خريطة علال الفاسي .
(لاحظ مغزاها البترولي)

الهامشى فى مصر اتضح خطره حين وقعت سيناء غدراً فى يد إسرائيل . وفى العراق يعنى الموقع الهامشى للبترول على الحدود — وهى مناطق الأقليات — أن البترول يقع فى منطقة الأكراد مما قد يعنى خطراً دائماً على البترول القومى . والواقع أننا لا نغالى إذا قلنا إن مشكلة الأكراد هى مشكلة بترول. حقاً إن ثوراتهم مزمنة تسبق البترول ، وحقاً إنها لم تكن تعرف تماماً ما تريد . ولكنها منذ البترول اتخذت شكلا خطيراً وهدفا واضحا : شكلا شبه انفصالى إن لم يكن انفصاليا خبيثا ، وهدفا بتروليا مكشوفا . والواضح أن اعتقاد الأكراد الخاطىء أن بترول كركوك ، أرضهم ، يلهب خيالهم السياسى وغير السياسى . وقد وجدوا من يغذى فيهم هذه الخيالات : الدعايات السوفيتية عبر الحدود من ناحية ومناورات شركة بترول العراق التى تقوم مصالحها فى منطقتهم والتى تسيطر عليها بريطانيا من ناحية أخرى . ومما له مغزاه الواضح أن الأكراد طالبوا فى ثورتهم الأخيرة بالحكم الذاتى وبنسبة دسمة — قيل ٧٥ ٪ ! — من عائدات البترول . ولا شك أن من حسن توفيق العراق أن استطاع أن يحل هذه المشكلة . كما لا شك أن من حسن حظه أن ظهر البترول غزيرا فى جنوبه ولم يعد البترول قاصرا على الشمال كما ظل طويلا .

وقد لا يكون المغزى السياسى لموقع البترول خطرا بل مفيدا كما ثبت فى ليبيا . فقد جاء البترول هنا على ما كان الحدود الاتحادية الداخلية بين برقة وطرابلس ، وأصبح حوض البترول مقسما بين كل منهما : لكل حقوله وأنبوبه ، وبدأ الاهتمام بالتوزيع الإقليمى للبترول يصبح ظاهرة مقلقة ، وبات خوف من المرارة التى قد يحدثها تركز ثروته فى ولاية دون الأخرى ، وأن يؤدى هذا إلى مزيد من التناقض والتعارض الداخلى . على أن أمل

البعض كان أن يتحول هذا إلى بؤرة جديدة للتبلور السياسى تعجل بالاندماج التام وتجتمع ليبيا حولها فى وحدة قومية أقوى من الاتحاد المفكك الذى طالما هدد كيان الدولة(١) . وهكذا كان . وكان البترول بلا ريب عامل الاختزال والانصهار السياسى من الاتحاد إلى الوحدة .

على أن أخطر نتائج الموقع الهامشى للبترول هى مشاكل الحدود التى ترتبط بها وكذلك مشاكل الأطماع أو الادعاءات الإقليمية . فقد أثار البترول خيال كثير من الأطماع وحرك بعض الشهوات الإقليمية فخلق ادعاءات ومطالب إقليمية طارئة أو جدد أخرى كامنة . ولعل أخطر هذه المشاكل مشكلة الكويت التى خرجت حكومة العراق البائدة فجأة تطالب بضمه إلى « الوطن الأم » باعتباره « القضاء السليب » Irredenta وعلى أساس أنه كان إدارياً ملحقاً بولاية البصرة تحت الحكم العثمانى ، بينما يؤكد الكويت فى كل مجال أنه سياسياً « دولة » وأنه جغرافياً جزء من الجزيرة العربية . ولقد ظل الكويت عقوداً لا يحرك شهوة حكام العراق ـ وذلك حين كان صحراء عالة . ولكن لا جدال فى أن الثروة الخيالية الطارئة هى التى ألهبت هذا الخيال حتى تحولت الكويت إلى مشكلة عربية حادة تدخلت فيها الجامعة العربية حينا ، ثم تحولت إلى نوع من المساومة السياسية ـ الاقتصادية بعد ذلك حين اعترف العراق (البعثى) بالكويت فى مقابل قرض كبير منها .

وتعد منطقة الخليج العربى مشتلا لمشاكل الحدود والضم . ولعل أشهر مشاكلها البوريمى فى منطقة التخوم غير المحددة بين السعودية من ناحية وساحل المعاهدات وعمان التى تخضع لبريطانيا من ناحية أخرى . فقد احتلت

---

(١) Clarke. «Changes in Sahara» p. 116; «Oil in Libya». p. 50.

السعودية الواحة فى ١٩٤٩ ثم فى ١٩٥٢ . وتدعى بريطانيا أنها تقع شرق الحدود المتفق عليها من قبل فى ١٩٥٢ بنحو ١٠٠ ميل . وتضم الواحة ٨ قرى ، يدعى ملكية ٦ منها شيخ أبو ظبي ، ويدعى ملكية الاثنتين الباقيتين سلطان مسقط(١) ، وبعد عدة اصطدامات ، انتقلت المشكلة إلى التحكيم الدولى ، ولا تزال معلقة . وبديهى أن هذا الصراع كله لا يحفل بالقرى الحقيرة وإنما أشعلته رائحة البترول التى اشتمت فى المنطقة . ولا تقتصر ادعاءات السعودية على البوريمى وإنما تمتد لتشمل مساحات كبيرة من ظهير ساحل المعاهدات ، بل من الساحل نفسه لمسافات طويلة شرق قطر ، كما أن القوات السعودية دخلت مع بعثة البترول فى حين ما قطر نفسها حيث تطالب السعودية « بجذر » شبه الجزيرة . على أن معاهدة ودية عقدت بين السعودية وبريطانيا فى ١٩٥٤ بشأن حدود السعودية ـ قطر(٢) .

وغير بعيد عن البوريمى قامت مشكلة أخرى فى ٤٥ — ١٩٤٧ بين أبو ظبي ودبى على الحدود المشتركة بينهما « حيث اعتقد حينئذ أنه قد يكون ثمة بترول »(٣) . كذلك ظلت البحرين حتى ١٩٥٠ تطالب بمنطقة زبارة فى شمال غرب قطر على أساس أنها الموطن الأصلى للعائلة الحاكمة فى البحرين ، ولكن دور البترول فى هذا لا يمكن أن يغفل(٤) . وعلى الجانب الآخر ، لم تثر المنطقة المحايدة بين السعودية والكويت

---

(١) R. I. I. A. The Middle East. p. 83.

(٢) Longrigg. p. 198.

(٣) R. I. I. A., p. 140.

(٤) Id., p. 138.

مشاكل خاصة بين الطرفين إلا أن البترول حولها من منطقة محايدة إسما إلى منطقة حكم ثنائى Condominium فعلا. وهناك حاليا حديث عن تحديد الحدود بين الشريكين فى المنطقة. وأخيراً يمكننا أن نضيف إلى هذه المشاكل البرية مشاكل الحدود البحرية فى الرصيف القارى سواء بين إيران والدول العربية من ناحية، أو بين الوحدات العربية على الخليج من ناحية أخرى، لا سيما أن عرض المياه الاقليمية يختلف بحسب كل وحدة.

وعلى الجانب الآخر من العالم العربى، أثار البترول مشاكل الحدود فى المغرب حيث تظهر الجزائر كطرف مشترك فيها. فتونس تطالب بتعديل الحدود الصحراوية مع الجزائر وترى أن نصيبها من الصحراء لا يتكافأ مع دورها التاريخى فيها، بينما ترى أن حدود الصحراء الجزائرية المترامية هى مجرد انعكاس للتوسع الاستعمارى الفرنسى. وليس بأحد حاجة إلى أن يقرر أن تفجر الزيت فى صحراء الجزائر بالقرب جداً من حدود تونس هو الذى أثار موضوع الحدود الخامد. على أن التعديل الذى تطالب به تونس فى حدودها مع الجزائر تعديل طفيف من شأنه أن يحرك خط الحدود قليلا إلى الغرب بادئاً من بير رومان لتنتهى نهايته فى الجنوب الغربى عند علامة ٢٣٣ بدلا من علامة ٢٢٠. كذلك تمثل حدود ليبيا مع الجزائر حدوداً حرجة بترولياً. فعليها مباشرة تطل حقول الجزائر الصحراوية وبجانبها تسير أنابيب السخيرة. والحدود الحالية تحددت فى الاتفاقية الليبية ـ الفرنسية ١٩٥٥ وتجددت فى اتفاقية ١٩٥٦، وفى كل تختلف فى التفاصيل يميناً ويساراً عن حدود الاتفاقية الإيطالية ـ الفرنسية ١٩١٩. والمهم أن اتفاقية ١٩٥٦ سمحت لفرنسا باستئجار جزء من مطار عجيلة الذى تمزقه الحدود وذلك لمدة ٢٠ عاما، كما أن إحدى نقط الحدود الفلكية هى عوان

تارجلى Ouan Taredjeli التى تقترب جداً من موقع حقل بترول جزائرى. على أنه لا مشاكل حدود بين ليبيا والجزائر .

ولكن ليبيا نفسها تلقت اقتطاعا خطيرا من رقعتها على الحدود الجنوبية . فبحسب الاتفاقية الفرنسية ـ الايطالية التى لم يصدق عليها ١٩٣٥ كانت الحدود تجرى من تمو إلى الجنوب الشرقى مع جبال تبستى حتى نقطة السودان الثلاثية tripoint . ولكن اتفاقية ١٩٥٥ الليبية ــ الفرنسية نقلت الحدود مع إفريقيا الاستوائية الفرنسية (تشاد حاليا والنيجر) لتبدأ من تمو فى خطين مستقيمين يتحددان بنقطة النيجر الثلاثية ومدار السرطان ونقطة السودان الثلاثية . وبهذا خسرت ليبيا نحو ٤٠ ألف ميل مربع لانعرف إمكانياتها البترولية بعد ، ولكنها قد لاتخلو منها (١) .

وفى الجانب الآخر من المغرب العربى كان ينتظر الجزائر المستقلة أيضا مشكلة الحدود مع المغرب التى تحب أن تعد نفسها سيدة الصحراء الكبرى الغربية طوال التاريخ حين لم يكن ــ هكذا تقول ــ للجزائر أثر مذكور أو ذكر مأثور . واحتمالات البترول ــ ولكن بالأخص الغاز الطبيعى ــ فى هذا الجانب هى جزء من السبب فى مطالبة المغرب بجزء كبير جدا من صحراء الجزائر الحالية . وقد كان اتفق على أن تؤجل كل من تونس والمغرب دعواها الاقليمية حتى يتم استقلال الجزائر وذلك لكى لاتعطى فرنسا مبررا أو فرصة للمساوات أو المناورات على هذا الاستقلال . ولكن منذ الاستقلال تهورت حكومة المغرب حتى فرضت الصدام المسلح فى منطقة

---

(١) Clarke. “Oil in Libya.” pp. 50—1.

تندوف . وإذا كانت هذه منطقة حديد فإن ادعاءات « مرا كش الكبرى » تشمل فى بعض الأحيان كل النصف الغربى من صحراء الجزائر (خريطة حكومة المغرب) وفى بعض الأحيان كل النصف الجنوبى منها فيما يلى خط عرض ٣٠ تقريبا (خريطة علال الفاسى)، وفى كلا الحالين يصبح لها جوانبها البترولية المباشرة سواء كامنة أو محققة .

البترول والوحدة العربية

هل دفع البترول حركة الوحدة العربية أم دافعها ؟ هل غذاها أم غزاها ؟ موضوع لا يمكن مناقشته إلا بالتمييز بين المدى القريب والمدى البعيد .

نخشى أن الشيء الذى يبدو على السطح وفى المدى القريب هو أن البترول قد باعد ـ فى معنى ـ بين العرب ، وباعد بينهم وبين الوحدة . فلقد خلق البترول دولا اصطناعية « وشرع » كيانات سياسية مزيفة غير حقيقية أصبحت به أمرا واقعا ، ومنحها وهما بكيان حقيقى مستقل . ولقد رأينا كيف حول البترول بعض القبائل والجيوب إلى «دول القبائل » (!) « ودول المدن » . وإذا كانت دول المدن ظاهرة شائعة فى الإقطاع الوسيط ، فإنها فى عصر القومية الحديثة ليست إلا « حفريات سياسية » وزوائد دودية فى جسم العالم العربى . ولا يمكن للبترول أن يغير من هذه الحقيقة ، ولهذا فإنها تظل « دولا سياسية » لا « دولا جغرافية » . هذا أول .

ثانيا رأينا أن البترول أثار بعض مشاكل الضم والحدود أى الأطماع الإقليمية . أضف بعض نعرات الزعامات المحلية موهومة أو مدسوسة

غذاها البترول ، فى حين أن من الشروط الأساسية فى حركات الوحدات السياسية أنه لا بد من نواة سائدة يعترف الجميع لها بالقيادة كأرض القاعدة — لا كقوة سائدة ولكن كطليعة سابقة بين أكفاء Primus inter pares.

ومن ناحية أخرى فإن الوحدات السياسية الضئيلة الفقيرة التى تمثل دول عجز وعالات اقتصادية هى أشد الوحدات طلبا للوحدة السياسية وإلحاحا عليها . وقد أتى البترول — كصدفة سياسية — فأتخم بعض هذه الوحدات القزمية حتى عادت أشد الجميع تمسكا بكيانها المستقل وحرصا على الاستقلال حتى لا يشاركها فى ثروتها الطارئة مشارك . ولو لم يكن البترول قد ظهر فى الكويت فربما كانت اليوم قد آلت إلى العراق أو حتى السعودية . وتكاد شياخات ساحل المعاهدات تكون الآن فى فترة ترقب : فإذا ثبت خلوها من البترول فقد تبتلع يوما فى السعودية ، أما إذا ظهر فيها فقد تستميت — بل بالقطع سوف تستميت — فى الابقاء على كيانها المنفصل ! . .

وعدا هذا فإن البترول قد عدد الزعامات الوهمية أو الحقيقية ، بحيث أصبحت إمكانيات الوحدة أقل بعد البترول منها قبله فيما نرى . إن هذا السائل الرجراج قد « جمد » للأسف النمط السياسى فى العالم العربى بدل أن يذيب حدوده المصطنعة . ذلك أمر لا بد من الاعتراف به علميا ، وإلا كنا نغالط أنفسنا . ولعل هذا هو أسوأ مثالب وسوالب البترول ، وهو يفسر جزئيا لماذا لم يحقق للعرب على الصعيد العالمى كل ما ينبغى أن يحققه لهم من وزن سياسى خطير .

والواقع أنه لو جاء توزيع البترول مختلفا عما جاء لتغيرت احتمالات الوحدة تماما . ونستطيع بسهولة أن نتصور ماذا كان يحدث فى المجال السياسى

لو أن بترول الكويت أو السعودية مثلا كان قد تفجر فى مصر . إذن لسارعت ليبيا وربما السودان بل وربما الجزيرة العربية كذلك إلى الوحدة معها أو الارتباط بها بصورة ما . والواقع أن الدول كالأفراد تتقرب من أقاربها الأغنياء ولكنها إذا أثرت انفردت بكيانها .

وبديهى أن أكبر عدو للوحدة العربية هو الاستعمار ، وأن أكبر حافز له على ذلك هو البترول . ومن الكتاب الغربيين من يوضح ويقرر هذا بلا مواربة كما يفعل ليمان(١). وفى هذا السبيل حاول الاستعمار أن يستغل هذه الحقائق السابقة ليمزق العرب فصور الدعوة إلى الوحدة على أنها طمع مقنع فى عائدات دول البترول . كما يدعى كذلك ولذلك أنه من غير الواقعى أن ننتظر إعادة توزيع فى الدخول بين الدول العربية للتنمية المشتركة وأن كل وحدة أولى بدخلها وبنفسها. (٢) وقد لا يعنينا ما فى هذا الزعم من خطيئة أخلاقية ولكن يكفينا أنه خطأ علمى : لأن دخول الدول الزراعية أعلى بكثير من دخول دول البترول — بكثير جدا .

هذا هو الوضع فى المدى القريب ، ولكنه يختلف كثيرا فى المدى البعيد . فرغم ما خلق البترول من مشاكل بين بعض الوحدات العربية وباعد بينها ، فلا شك أنه قد قرب بين البلاد العربية كثيرا إن لم يكن قد أعاد تقديم بعضها للبعض الآخر من الناحية العملية . فلقد خلق البترول بينها علاقات مشتركة ومصالح متشابكة خلقت نوعا من الترابط الاقتصادى . فعلاقات المرور جعلت شبكة الأنابيب والقنوات بمثابة الدورة الدموية التى

---

(١) Wayne A. Leeman. The Price of Middle East Oil.

(٢) R. I. I. A, p. 62.

تربط أعضاء الجسم العربى . ولقد كان دعاة الهلال الخصيب يرون فى التكامل البترولى بين المنتج والمخرج فى العراق والشام أساساً من أسس مشروعهم المنحرف . كذلك هناك علاقات التموين والسياحة والترفيه . . الخ . وقد لا يمكن أن ندعى أن البترول قد حقق « وحدة » اقتصادية بعد بين البلاد العربية ،ولكنه من المؤكد يدعو منطقيا إلى قدر كبير من الوحدة الاقتصادية . وقد رأينا كيف أن خروج البترول العربى من الحلقة الاقتصادية المفرغة التى يتبدد فيها رهن بقدر ما من التكامل العربى السياسى .

وقد يقال عند هذا الحد لماذا أصبح البترول فجأه يدعو إلى وحدة اقتصادية وغير اقتصادية بين العرب الآن فقط ولماذا لم يظهر مثل هذا الحماس من قبل حين كانت دول البترول دول صحراء فقيرة عالة ولا يمكن إلا أن تكون عبئا على الدول الزراعية الغنية ؟ وهذا تساؤل يبديه البعض فى براءة مصطنعة ولكنه كلام له خبىء . فالواقع أن هذه المشاركة الاقتصادية كانت تحدث طوال التاريخ بصور غير مباشرة فكانت الوحدات الغنية تساهم فى اقتصاديات وميزانيات وحدات الصحراء : قديما فى شكل الخراج ، ومرة فى شكل الحج، ومرة فى شكل «الصرة» ، وقريبا فى شكل المساعدات الاقتصادية العربية المشتركة للأردن ليستقل عن المساعدات البريطانية.

أما فى الوقت الحالى فليس هناك شعور حقيقى أو معلن بأن عائدات الزراعة تختلف عن عائدات البترول. قد يكون أن الأولى تأتى بالجهد والعرق ، والثانية دخل بغير جهد unearned income ؛ الأولى عمل والثانى صدفة. ولكن أحدا لم يثر هذا ولم يحاول أن يتخذ منه حجة وذريعة أو منطق تبرير . إنما هناك شعور بل يقين بأن التقسيم السياسى الاعتباطى الذى فرضه الاستعمار هو السبب فى سوء توزيع الثروة البترولية بين العرب وجعلها

محض صدفة . وليس يكفى كحل لهذا الوضع العشوائى أن تقدم بعض دول البترول التى تعجز عن استثمار عائداتها إلا بتكديسها فى البنوك الاستعمارية - ليس يكفى أن تقدم بعض جرعات القروض لغيرها من الدول العربية عن طريق بنك بترول عربى أو نحو ذلك ، فكل هذه مسكنات لا علاج . بل إنها حين تخفى وراءها لونا من الرشوة السياسية تصبح إلى المخدرات أقرب . . ولا بد من تجميع pooling حقيقى يتخطى الحدود السياسية .

ويحاول الاقطاع الحاكم أن يستغل النعرة الاقليمية والعصبيات المحلية للابقاء على الانفصال السياسى بين العرب لكى يبقى على احتكاراته واستغلاله للبترول . ولكن من المؤكد أن هذه الشعوب تدرك تماما أن نصيبها الفعلى من خير بترولها سيزيد قطعا فى ظل وحدة عربية اشتراكية عنه فى ظل الانفصال الاقطاعى الحالى . والواقع أن من حسنات البترول غير المباشرة أنه بعدم عدالة توزيعه كشف بعنف وبلا إبطاء زيف الإطارات السياسية فى العالم العربى وعرى التقسيم السياسى الاستعمارى من غلالة الوطنية المزعومة ، ووضع العرب وجها لوجه مع الوحدة .

لكن البترول لا يدعو إلى الوحدة فى المدى الطويل فحسب . وإنما كذلك قد يكون عاملا مساعدا ومعجلا بالوحدة . فمن ناحية يبدو جليا أن البترول نفسه يساعد على الاقتراب من هذا الاتجاه إلى الوحدة . فهو كخميرة للتطور السياسى الداخلى ، جدير بأن يثير من التوترات والتشنجات السياسية ما قد ينتهى إلى انتفاضات سياسية حقة تصفى الحواجز الشكلية وحدود الحكام بين العرب . وهنا نلاحظ أن التطور والوعى الذى يحركه البترول جدير بأن يذيب البقايا الحفرية الصحراوية التى تقلصت إليها الملكية فى العالم العربى . ومن الصعب على المرء أن يتصور كيف كان يمكن

للأنظمة القبلية والرجعية المتحجرة فى عزلة الصحراء وفقرها أن تذوب وأن يحدث تطور وتحضر على الإطلاق لولا البترول وما فعل .

وهذا يؤدى بنا إلى نقطة هامة أخرى لها دورها التوحيدى الخطير . فقبل البترول كانت الفروق الحضارية والانحدارات المدنية بين الأجزاء المختلفة من العالم العربى شاسعة تمثل أحيانا قرونا برمتها كاملة (راجع ما قاله توينبى عن مصر) . وكان هذا البعد الحضارى السحيق يؤدى إلى بعد سياسى محقق - أو تباعد . فقد كانت المناطق الفقيرة المتخلفة منطوية على نفسها فى إحساس بالنقص «وعدم الانتماء» ومعتزلة على استحياء ، بينما من الصحيح أن المناطق المتطورة الغنية التى ضربت بسهم وافر فى الحضارة الحديثة كانت قد بدأت تستشعر بعضا من الخيلاء والاستعلاء أدى بها إلى نوع من التباعد والنفور عن «فقراء العائلة والأقارب الفقراء» حتى تبلورت هذه النزعة إلى نوع من النعرة الإقليمية الضيقة والانفصالية السياسية حاولت أن تتخذ سندا لها أحيانا من الرجعة التاريخية historicism والقوميات القديمة كالفينيقية والفرعونية . وكان هذا أحيانا بإيعاز من الاستعمار أو بوحى من الرجعية الحاكمة حتى تنسخ فكرة الوحدة .

ولكن كان للبترول الفضل كل الفضل فى نسخ هذه النزعات . فلعلها كانت حكمة الطبيعة التعويضية البالغة أن أتت بالجزء الأكبر من بترولنا ففجرته فى أفقر صحارينا فأتخمها بالثروة . فهنا عادت الأبصار المتعالية ترنو إلى بلاده وتتطلع ! وسرعان ما تخلت عن عقدها وغرورها وسعت إليها تخطب ودها وتتقرب ... وبهذا ارتفعت المناطق المتخلفة إلى مستوى حضارى معقول قربها من المناطق الأغنى القديمة ، وفى نفس الوقت اقترب بهذه منها نفسيا وماديا وسياسيا . إن عدم عدالة توزيع البترول الجغرافية الواضحة هى فى

الحقيقة أدنى إلى العدالة الاقتصادية الشاملة بين العرب . وهى لهذا من أكبر عوامل اختزال المسافات الحضارية وبالتالى السياسية بين العرب .

كذلك قد تحفز مشاكل النزاع على الحدود بسبب البترول إلى نتيجة عكسية وهى حلها حلا شاملا بالاندماج . وقد لا تكون حالة المغرب العربى بعيدة عن هذا الاحتمال . فهنالك ميل قديم إلى الوحدة فى « المغرب الكبير » كان من عوائقها الاستعمار الخارجى والأطماع الاقليمية المحلية التى يكمن خلفها البترول . فهنا قد تكون الوحدة تحقيقا للهدف الكبير وحلا ضمنيا للنزاع البترولى الصغير .

وهناك بعد هذا الأخطار الخارجية المتزايدة التى يتعرض لها العالم العربى بإطراد بسبب البترول . فمن المرجح أنها ستفرض عليه بإستمرار تقاربا سياسيا ما ـ على الأقل كضرورة بقائية حتى يواجه هذه الأخطار . أضف فى النهاية وأخيرا أن البترول كثروة « حفرية » تراكمية ، حين تتبدد لا تتجدد ، سيأتى اليوم الذى يكشف فيه الجوهر السياسى المصطنع للكيانات الحالية ، وذلك بعد أن يكون قد خلق جسما من السكان والحاجات تجد نفسها فى مأزق اقتصادى خطر قد لا يكون منه مخرج إلا بالاتحاد مع دول الموارد الزراعية الدائمة ـ ولو أن الوحدة قد تسبق مثل هذه المرحلة لأسباب أخر . والملاحظ فى هذه الناحية أن خطر النفاد يتهدد بعض الوحدات الصغرى فى مدة قصيرة نسبيا لا تزيد عن ١٥ سنة من الآن فى قطر ونحو ذلك فى البحرين . فإذا ذكرنا الأطماع الإقليمية التقليدية للجارة الضخمة السعودية ، والتركيب السياسى الشاذ لهذه الدويلات ، وأضفنا إلى ذلك ضخامة الرصيد البترولى فى الأولى وخطر النفاد القريب فى الثانية ، فقد ينتهى الأمر بعملية ابتلاع مفروض من ناحية الأولى أو اندماج مطلوب

من ناحية الأخيرة لتحل أزمة الكيان الاقتصادى الذى تبخر فجأة .

الخلاصة إذن أن هناك اختلافا جذريا فى النتائج والاحتمالات السياسية القريبة والبعيدة للبترول بصورة تجعله يبدو مذبذبا ambivalent يجمع بين الأضداد شأنه فى هذا شأن معظم الضوابط البشرية . إنه فى النظرة العريضة سلاح ذو حدين . ولكن الشىء المطمئن هو أن الغلبة فى النهاية والمدى البعيد هى للجانب المجمع لا المفرق وللآثار الحميدة لا الخبيثة . وما بدا فى الأول عاملا تمزيقيا يشجع الأنانية الانفصالية قد انتهى أخيرا ، بعد أن كشف أخطاء الهيكل السياسى الحالى وأثار داخله مشاكل عديدة ، انتهى إلى أن يصبح عامل اختزال سياسى مؤكد . وإذا كانت الثورة الأولى فى تاريخ العرب وهى الإسلام قد أحدثت فى بداية ظهورها بعض الخلاف والتمزق بين العرب ثم عادت سريعا لتثبت نفسها أكبر قوة لاحمة فى تاريخهم ، فلنا أن نطمئن إلى أن آخر ثورة فى تاريخ العرب وهى البترول لا يمكن أن تختلف أو تتخلف كثيرا فى هذا المضمار . إن بترول العرب لن يكون مذيبا للوحدة العربية بل سيكون « أسمنت » القومية العربية .

المراجع العربيــة

أحمد توفيق المدنى . جغرافية القطر الجزائرى ، الجزائر ، ١٩٥٢ .

اخترنا لك . البترول والسياسة العربية ، القاهرة .

البنك الأهلى المصرى . النشرة الاقتصادية .

تقرير اتحاد الصناعات . الجمهورية العربية المتحدة ، ١٩٦٢ .

جاسم الخلف . محاضرات فى جغرافية العراق ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

جمال حمدان . دراسات فى العالم العربى ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

جمال حمدان . المدينة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

حليم جريس . « بترول العرب فى شمال إفريقية » مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، ديسمبر ١٩٦١ .

داود صليبا ، مصطفى الحاج إبراهيم . العالم العربى ، دمشق ، ١٩٥٨ .

راشد البراوى . ثورة البترول فى إفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦١ .

رشدى سعيد . « تطور صناعة البترول المصرى » ، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، مارس ١٩٦٢ .

ريمون فيرون . الصحراء الكبرى . مترجم . القاهرة ، ١٩٦٣ .

فاروق الحسينى . « تسويق البترول العربى » ، حلقة الدراسات الاقتصادية العربية الأولى ، ١٩٦١ .

كارل تويتشل . المملكة العربية السعودية . مترجم . القاهرة ، ١٩٥٥ .

الكتاب السنوى لاتحاد الصناعات بالجمهورية العربية المتحدة ، ١٩٦٣ .

عبد الرحمن الجليلى . اقتصاديات العراق ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

عبد الله الطريقى ، فاروق الحسينى . نقل البترول العربى ، القاهرة ١٩٦١

عزة النص . أحوال السكان فى العالم العربى ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

مجلة بترول الشرق الأوسط ، القاهرة .

محمد السيد أيوب . « هجرة البدو إلى المدن وأثرها على الإنتاج الحيوانى والزراعة فى المملكة العربية السعودية » أعمال المؤتمر الجغرافى العربى الأول ، القاهرة، ١٩٦٢ .

محمد جواد العبوسى . البترول فى البلاد العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

محمد صبحى عبد الحكيم ، يوسف خليل ، حليم جريس ، إجلال السباعى . الموارد الاقتصادية فى الوطن العربى ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

محمد لبيب شقير . التنظيم الاحتكارى للسوق العالمية للبترول ، القاهرة ، ١٩٦١ .

محمد رياض ، كوثر عبد الرسول . الإقتصاد الإفريقى ، القاهرة ، ١٩٦٣

نصر السيد نصر . « البترول والشرق الأوسط » المحاضرات العامة ، الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٥٧ .

يوسف أبو الحجاج . « مكانة البترول فى التنمية الاقتصادية للوطن العربى » . أعمال المؤتمر الجغرافى العربى الأول . القاهرة ، ١٩٦٢ .

أهم المراجع الأجنبية

Awad, Mohamed, « Settlement of Nomadic & Semi-Nomadic Tribal Groups in the Middle East, » Bull. Soc. Géog. d' Egypte, 1959.

Awad, Hassan, « L'Eau et l. Géog. Humaine dans la Zone Aride » Bull. Soc, Géog. d' Egypte, 1958.

American Geographical Society, World Geog, of Petroleum, N. Y.

Barbour Nevill, A Survey of North West Africa (The Maghrib), Lond., 1959.

Beaujeu - Garnier, J., L'Economie du Moyen - Orient, Coll. Que Sais-Je?, Paris, 1951.

Birot P., & Dreesh J., La Mediterranée et le Moyen-Orient. Paris, 1956.

Cornet, P., Pétrole Saharien: du Mirage au Miracle, Paris.1960.

Clarke, John I., « Economic & Political Changes in the Sahara,» Geography, April, 1961.

« Oil in Libya. Some Implications, » Econ. Geog., vol. 39, no 1, Jan., 1963.

Debenham, F., The Use of Geography, Lond., 1950.

Fisher, W.B., The Middle East, Lond.. 1950.

George, Pierre, Géographie Industrielle du Monde, Coll. Que Sais-Je ?, Paris, 1949.

George, Pierre, Géog. de l' Energie, Paris, 1949.

Gordon East, W., Geography Behind History, Lond., 1948.

Hamdan, G., « The Pattern of Medieval Urbanism in the Arab World», Geography, April, 1962.

Hance, William, African Economic Development, 1958.

Hess, W. N., « New Horizons in Resource Development. The Role of Nuclear Explosions, » Geog. Review, Jan., 1962.

Hoskins, H.L., The Middle East. Problem Area in World Politics, N.Y., 1954.

Leeman, Wayne A., The Price of Middle East Oil.

Lenczowski, G., The Middle East in World Affairs.

Logan, Richard F., Post-Columbian Development in the Arid Regions of the United States, in A History of Land Use in Arid Regions, Unesco, Paris, 1961.

Longrigg, S. H.. Oil in the Middle East, Lond., 1961.

Melamid, Alex., « Geog. of the World Petroleum Price Structure» Econ. Geog., Oct., 1962.

Mikesell, R.F., Chenerv, H. B. Arabian Oil, N.Y., 1949.

Moodie, A.E., Geography Behind Politics, Lond., 1947.

Normand, S. & Acker, J., La Route du Pétole au Moyen-Orient, Paris, 1956.

Party. André, Le Petrole et le Moyen-Orient arabe, Paris.

Petroleum Press Service

Royal Institute of International Affairs, The Middle East. A Political & Economic Survey, Lond., 1958.

Sarkis, N., Le Pétrole et les Economies Arabes, Paris, 1963.

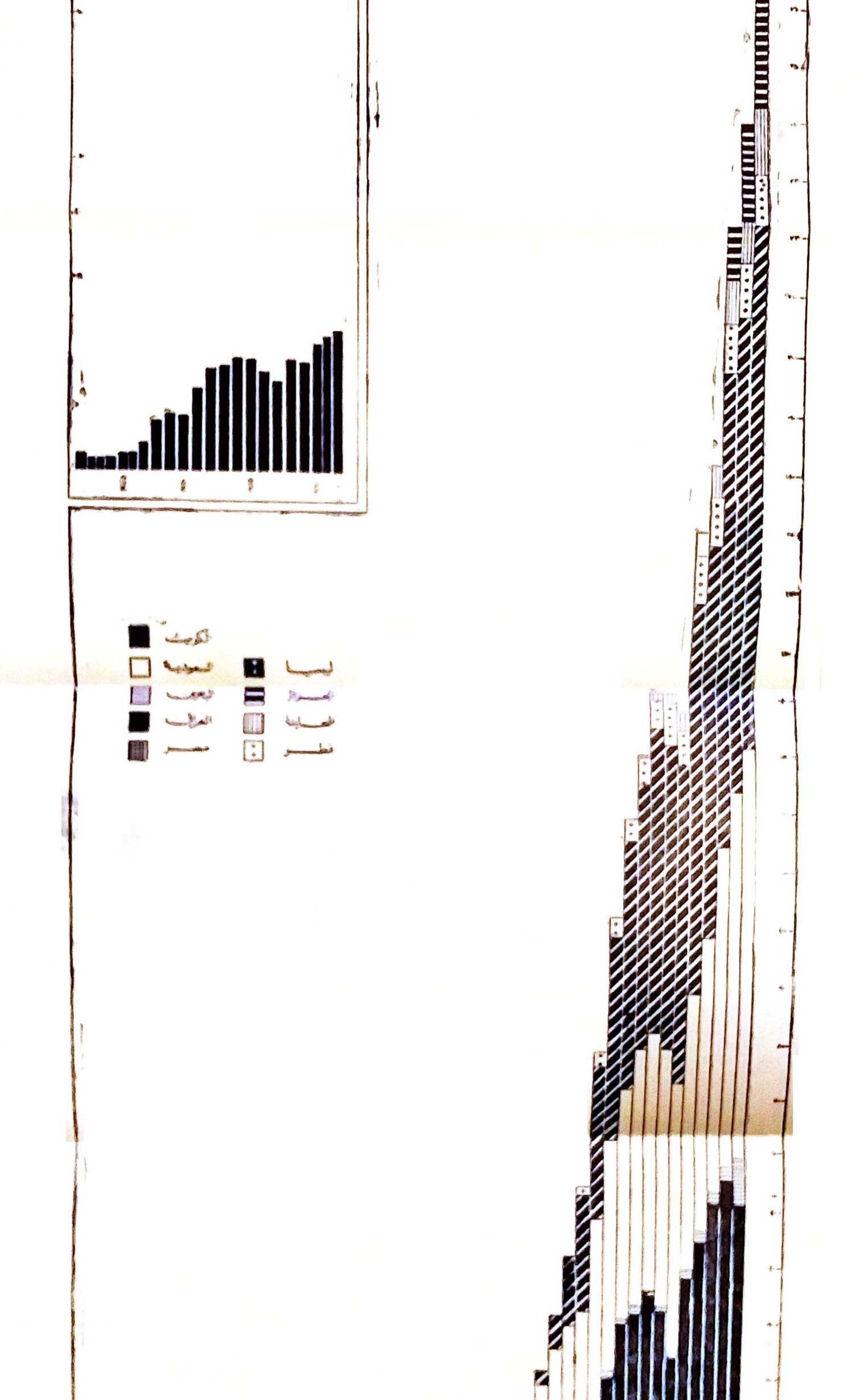
Shwadran, B., Middle East Oil & the Great Powers, N. Y., 1955.

Warriner. Doreen. Land & Poverty in the Middle East. Lond., 1948.

World Oil, August, 1963.

Zimmermann, E. W., World Resources & Industries. 1951.

محتويات الكتاب



الكويت
السعودية
ليبيا
مصر
قطر